

العالم

من 1450م حتى 1700 م

ترجمة : خلود الخطيب

جون إ. ويلز جونيور

العـالـم

من 1450م حتى 1700م

ترجمة: خلود الخطيب

مراجعة: د. أحمد خريس

الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

D228 .W5312 2012
Wills, John E. (John Elliot), 1936-
[World from 1450 to 1700]
العالم من 1450 م– 1700 م / تأليف جون إ. ويلز ؛ ترجمة خلود الخطيب .– أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة و الثقافة، كلمة، 2012.
ص. 240 ؛ 15.5×23 سم.
ترجمة كتاب : The World from 1450 to 1700.
تدمك: 3-139-17-9948-978
1- أوروبا – تاريخ - 1700-1450.
أ-خطيب، خلود.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
John E. Wills Jr.
The World from 1450 to 1700



www.kalima.ae

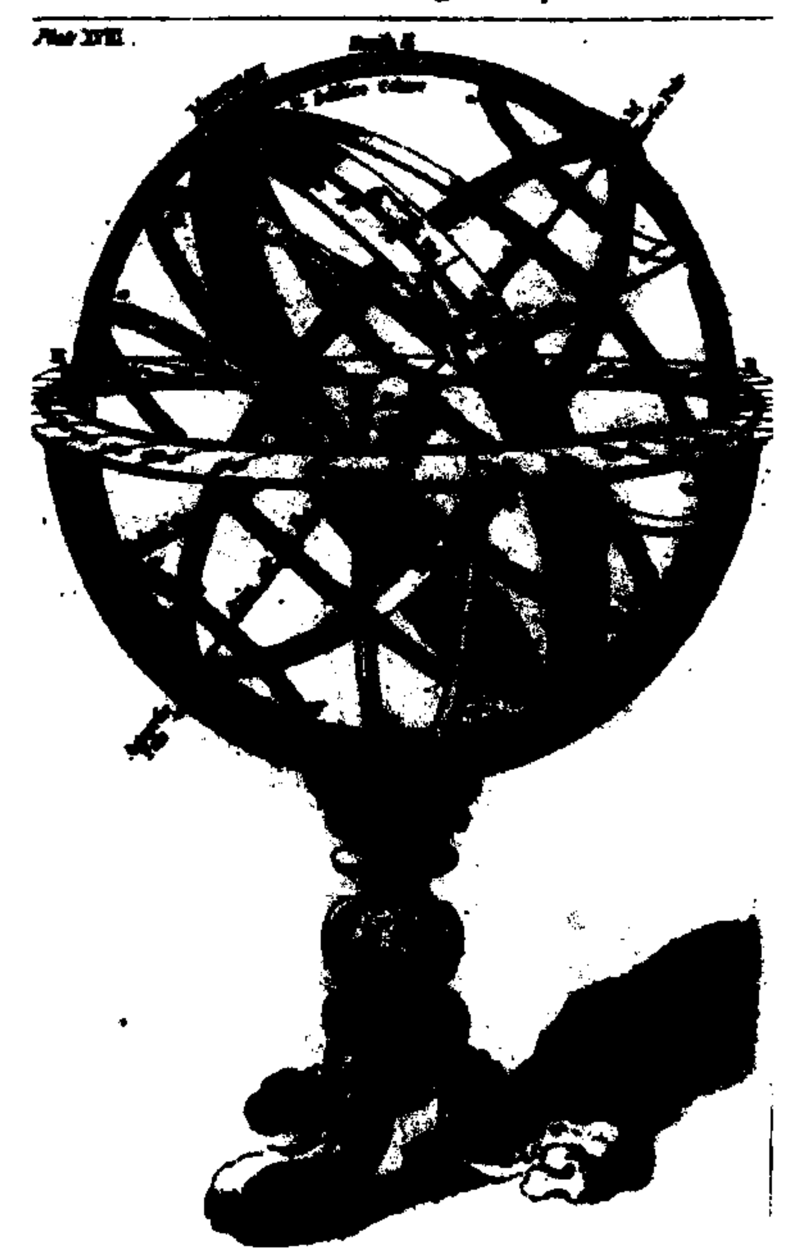
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

العالم

من 1450م حتى 1700م

The Armillary Sphere



(المُحلِّقة: بالإنجليزية: Armillary Sphere) أو «ذات الحَلَق»، وهي آلة فلكية قديمة لرصد الكواكب مؤلفة من حلقات تمثل مواقع الدوائر الرئيسية في القبة السماوية).

الإهداء

إلى زملائي في جامعة جنوب كاليفورنيا

المحتويات

استهـلال: تكساس والعالم

في 17 يونيو 1527، انطلقت سرية من خمس سفن تحمل على متنها ما يقرب من ستمائة رجل باتجاه ميناء سان لوكار دو بارميدا San Lucar de Barrameda جنوبي إسبانيا. أبحرت السفن تحت إمرة القائد بامفيلو دو نارفاز Pamphilo de Narvaez في مهمة ملكية هدفها «الغزو والاستيلاء» على الأراضي الممتدة بطول الجانب الشمالي لخليج المكسيك من الجزيرة التي تُعرف الآن باسم فلوريدا، وصولاً إلى المناطق القريبة من حدود تكساس–المكسيك. كان على متن هذه السفن، إلى جانب فريق من القساوسة الفرنسيسكان، مجموعة من الإسبان الذين تلقوا وعوداً بتعيينهم في رتب أقل درجة في المستعمرة المستقبلية. ولم تشر أي من الدلالات على أن السكان الأمريكيين في هذه الأراضي كان لهم من الأمر شيء فيما يتعلق باختيار من يحكمهم، فقد قام البابا بتقسيم العالم مناصفةً بين المملكتين الإسبانية والبرتغالية.

وقد اعتقد معظم الرومان الكاثوليك أن البابا هو وكيل الله في الأرض، وأنه رئيس الكنيسة الحقيقية الوحيدة. ومع بداية حكم تشارلز الخامس Charles V؛ ملك إسبانيا والإمبراطور الروماني المقدس، اشتعلت شرارة الصراع المرير ضد التحديات التي خلفها المذهب الكاثوليكي الذي نادى به مارتن لوثر وأتباعه. وقد شهد كل من أراد لهم القدر أن يكونوا على متن هذه الرحلة – ممن تجاوزوا سن الخامسة والثلاثين وولدوا في إسبانيا– تلك الحرب الدائرة مع الملوك المسلمين في قلب غرناطة، إلى جانب الاضطرابات التي اشتعل فتيلها بين الإسبان الكاثوليكيين والإسبان من أصول مسلمة ويهودية، مما أضفى سمة العدوانية على الكاثوليكية الإسبانية. كما شكلت القرصنة وغارات العبيد على منطقة البحر الأبيض المتوسط فيما بين شواطئها الشمالية الكاثوليكية والجنوبية المسلمة وجهات نظر الناس ومواقفهم من مجريات الأمور حولهم. كما جلب بعض قادة البعثة البحرية معهم عبداً إفريقياً أو اثنين لخدمتهم.

انطلقت البعثة البحرية تمخر غمار البحر الكاريبي، الذي تغيرت ملامحه عبر أكثر من ثلاثين عاماً من الاحتلال والاستغلال نتيجة الأمراض القادمة من أوروبا، التي لم يتمكن

الأمريكيون الأصليون من مقاومتها، وبسبب النصر غير المتوقع الذي تحقق على يد هيرنان كورتيز Hernan Cortes وقواته على إمبراطورية الأزتك، وهو نموذج الانتصار الذي سيطر دونما شك على خيال نارفاز وأتباعه أملاً في تحقيقه. أبحرت السفن مباشرةً لتواجه موسم إعصار الكاريبي، الذي كان يشكل خطورة على سفن الإبحار الخشبية أكثر منه في العصر الحديث، وقد حالفهم الحظ سابقاً في مواجهة العديد من العواصف، جالبين معهم الكثير من الخيول والمؤن إلى كوبا. وفي إبريل 1528، عندما رسوا أخيراً على شواطىء المستعمرة المنشودة، في مكان ما قرب خليج تامبا Tampa Bay؛ انقشع المظهر الخادع المتهلهل للمهمة الملكية المنظمة، وبدأ الصراخ المتبادل يسود المشهد، إذ لم تكن لديهم أدنى فكرة عن مكانهم. فقد انتهى بهم الأمر فحسب إلى العثور على بعض مستوطنات الأمريكيين الأصليين، دون أن يجدوا ذهباً أو محصولات ليغتصبوها أو يسرقوها. أراد نارفاز قيادة قواته لاستكشاف الأراضي الداخلية، فظلت السفن تبحر على امتداد الساحل إلى أن وجدت مرسى جيداً تستطيع اللقاء عنده مرة أخرى.

قام نارفاز بتغليب رأيه على آراء الآخرين الأكثر حكمة. أبحرت السفن بعيداً، وقضت المجموعة التي كانت على متونها معظم أشهر العام التالي في البحث -في كل أنحاء الساحل- عن المجموعة الأخرى التي رست من قبل، دون أن يجدوا لها أثراً. انطلق أكثر من ثلاثمائة رجل تحت إمرة نارفاز بحثاً عبر المستنقعات والخلجان الساحلية، وكانت تقودهم الصدفة أحياناً ليجدوا محصولاً للذرة فيسرقوه من إحدى قرى الأمريكيين الأصليين. وبحلول يوليو 1528، وصلوا إلى المنطقة المعروفة الآن باسم خليج أبالاتشي Apalachee Bay، بالقرب من تالاهاسي Tallahassee، لكنهم وقعوا فريسة هجوم متواصل من محاربي السكان الأصليين.

وفي أغسطس وسبتمبر، من خلال عرض مذهل لاستخدام أفقر الموارد المتاحة بين أيديهم، لجأ أفراد البعثة إلى استخدام قمصانهم في صناعة الأشرعة وتحويل الركابات المعدنية إلى مسامير لبناء خمس سفن صغيرة منخفضة الجانبين، وانطلقوا بها غرباً على امتداد ساحل الخليج. عانى أفراد المهمة ضراوة الجوع، كما دفع العطش بعضهم إلى الجنون، فشربوا الماء المالح ثم ماتوا. تبقى على قيد الحياة ثمانون رجلاً تقريباً من بين

المائتين وخمسين أو نحو ذلك ممن انطلقوا في هذه الرحلة عند وصولهم ساحل تكساس، في مكان بالقرب مما يسمى الآن بجالفستون في الأول من شهر نوفمبر. وبحلول فبراير 1529، تبقى خمسة عشر رجلاً على قيد الحياة. وعلى الجانب الآخر، تقطعت السبل بإحدى هذه المجموعات الخمس فوق إحدى الجزر، فاضطر من تبقى منهم على قيد الحياة إلى أكل الموتى حتى بقي واحد منهم فقط.

أصاب الذهول السكان الأمريكيين المحليين من الكارانكاوا **Karankawa** وغيرها من القبائل الأخرى، حين شاهدوا أكلة لحوم البشر فوق شواطئهم، لكن الشفقة غلبتهم عند رؤية الإسبان يعانون مرارة الجوع والبرد دون كساء. فأخذوهم إلى مستوطناتهم وشاركوهم طعامهم القليل، وأصروا على أن يشاركهم الإسبان أعمال جمع الحطب، والتنقيب عن الجذور وما إلى ذلك. كانت هذه بداية ثماني سنوات من تجربة نادرة راقب خلالها الأوروبيون الذين كانوا بالكامل تحت رحمة مضيفيهم من السكان الأمريكيين الأصليين شعباً قوام حياته الصيد وجمع الثمار والأخشاب، وقلما تأثر أسلوب معيشته بمواجهة هؤلاء الأوروبيين. ولقد أدركنا هذه الحقيقة عن طريق أحد الإسبان، الذي ظل على قيد الحياة، وعاد إلى الدول الناطقة بالإسبانية، وقد كان متعلماً فخزّن الكثير من المعلومات التي راقبها في أثناء وجوده في مستوطنة ألفار نونيز كابيزا دو فاكا **Alvar Nunez Cabeza de Vaca**. وقد عُدّت روايته لهذه المغامرات نقطة انطلاق جيدة لتصور حال العالم خلال القرن السادس عشر، حين رُبطت الابتكارات التي غيرت ملامح وجه العالم بأقدم أسلوب للحياة الإنسانية، متمثلٍ في الصيد وجمع الثمار والأخشاب.

لم تزاول القبائل الأمريكية الأصلية في جنوب تكساس الزراعة، ولم تقم بتربية الحيوانات المنزلية. إنما اعتمدت حياة أفرادها بالكامل على الدورة الغذائية المتاحة في مواقع مختلفة وأوقات متباينة من العام. ففي أواخر فصل الربيع، اعتادت هذه القبائل قضاء عدة أشهر في الاستمتاع بولائم المحار بالقرب من البحيرات الساحلية، في حين ينصب أفرادها خيامهم فوق الأكوام الضخمة من قشور المحار المتراكمة نتيجة قرون متعاقبة من فضلات تلك الولائم، كما تغذوا على ثمار التوت الناضجة في الأدغال الساحلية. وعقب فترة وجيزة كانوا يقضون أسابيع قليلة في الاقتيات على ثمار شجر

الجوز الأمريكي الممتد على طول الأنهار الساحلية، ثم يتجهون نحو الداخل إلى سهول شجر الماسكويت الشائكة، التي يصعب الوصول إليها حيث تنمو ثمار التين الشوكي الناضجة فوق شجيرات الصبار الشائكة أواخر فصل الصيف؛ أفضل فصول العام بالنسبة إليهم. ومع قدوم فصل الشتاء تقل المؤن وتضرب الريح الباردة قلب القارة الشاسعة من ناحية الشمال. وفي تلك الأثناء، يشترك أبناء مستوطنة ألفار نونير كابيزا دو فاكا Alvar Nunez Cabeza de Vaca، في مجابهة الظروف القاسية بأجسادهم العارية، ويتقاسمون بقناعة الطعام المتاح بين أيديهم سواء في أثناء الولائم أو المجاعات، فقد اعتادوا تعاقب الفصول والموارد التي تجود بها بيئتهم.

وما إن وطئت أقدام الإسبان ساحل تكساس، حتى اكتشفوا أن الأمريكيين الأصليين توقعوا من الغرباء القدرة على علاج الأمراض. «في ليلة وصولنا ذاتها، أتت مجموعة من الهنود الحمر إلى كاستيلو، وأخبروه عن ذلك الألم في رؤوسهم، وتوسلوا إليه أن يشفيهم، وبعد أن رسم علامة الصليب فوق موضع الألم وأودعهم معية الله، في تلك اللحظة قال الهنود الحمر إن الشعور بالألم قد فارقهم تماماً، [وأحضروا إلينا هدايا من لحم الأيل وأطعمة أخرى.]... وما إن انتهت جلسات العلاج حتى شرعوا في الرقص والغناء والاحتفال إلى أن أشرقت شمس اليوم التالي، واستمرت الاحتفالات ثلاثة أيام على شرفنا». تمتم الإسبان – ما وسعهم– ببعض الصلوات القصيرة ورسموا علامة الصليب، وفي أحيان عديدة انتهى الأمر بتحسن صحة بعضهم. عاشت قبائل الأمريكيين الأصليين في مجموعات صغيرة من العائلات المترابطة مع فروق ضئيلة في درجة السلطة أو الاحترام. أما المجموعة التي احتلت مكانة خاصة في ذلك المجتمع، فكانت مجموعة المعالجين.

وعبر استخلاص بعض الإشارات من رواية كابيزا دو فاكا Cabeza de Vaca ومصادر أخرى، يبدو أن الاعتماد على مصادر الغذاء الموسمية تسبب في حفلات التهام متعاقبة لمختلف أنواع الأطعمة، التي قد يكون بعضها غير صحي بتاتاً، مما أدى إلى معاناة الانتفاخ المتكرر والاضطرابات المعوية، التي يُشفى من أعراضها معظم الناس خلال أيام. كما أن هناك إشارة إلى الزعيم الحكيم، وهو شخص تراوده الأحلام الخاصة، أو امرأة تتمتع يداها بقدرة خاصة على العلاج، وتقوم بتلاوة التعاويذ السحرية في الوقت الصحيح،

وتحظى بالثقة كمعالجة للأمراض. أما الإسبان، بأنوفهم الضخمة وبشرتهم الشاحبة ولحاهم الطويلة، فمن الواضح أنهم ينتمون إلى عالم آخر، ومع ذلك فغالباً ما كان السكان الأصليون يلجؤون إليهم طلباً للشفاء. ولم يقتصر اهتمام أبناء قبيلة الكارانكاوا بالإسبان عند استضافتهم على دافع الإحسان، فلم يكونوا يسمحون لهم بالذهاب بعيداً قبل أن يتأكدوا من قدرتهم على الشفاء، أو سيؤول مصيرهم إلى مقايضتهم بالبضائع القيمة.

اعتادت قبائل الأمريكيين الأصليين، كثيراً، الدخول في حروب فيما بينها، لكن ذلك لم يمنع أفرادها من إنشاء شبكات التبادل التجاري بينهم من جهة أخرى. فقد تمت مقايضة الجوز والبندق والمحار من الساحل مقابل جلود الجاموس من السهول في الشمال. حتى إن النساء واصلن متابعة العمليات التجارية في أثناء انشغال الرجال بقتال بعضهم. وبالمثل استطاع الغرباء عن هذه البيئة مزاولة التجارة، فقد تمكن كابيزا دي فاكا من تحسين نمط حياته واتسع نطاق معرفته بالقبائل المحلية عبر التجارة. وأخيراً، بحلول عام 1533 أو 1534، تبقى ثلاثة إسبان وعبد إفريقي من البعثة الأصلية فحسب. وفي موقع الاحتفال بوليمة التين الشوكي تمكنوا من الهروب من قبيلة الكارانكاوا والانضمام إلى قبيلة أخرى. انطلقوا يحدوهم الأمل وأعينهم صوب الجنوب والغرب وصولاً إلى المستعمرة الإسبانية. بدا أن العبد المرافق لهم، الذي غالباً ما أُطلق عليه اسم «إستيبانكو»، أو «ستيفن الصغير»، لم يواجه أي صعوبة في التأقلم، من حيث معرفة الأماكن التي يذهبون إليها، وإنشاء علاقات طيبة مع القبائل الأمريكية الأصلية.

لكن إنشاء هذه العلاقات اعتمد في الأساس على توقعات هذه القبائل حول قدرة هؤلاء الوافدين على الشفاء. سرت الأنباء حول قدرات الإسبان على الشفاء في أثناء التعاملات التجارية، ولا سيما عند التقاء القبائل المختلفة في أفضل مواقع زراعة التين الشوكي. فأينما صحبت إحدى جماعات الأمريكيين الأصليين الإسبان لإرشادهم إلى قرية جديدة، احتشد الناس للقائهم ولمسهم طلباً للشفاء. وغالباً ما يصر هؤلاء المرشدون على الحصول على الهدايا من المضيفين الجدد أو سرقتها منهم بكل بساطة. وبعد مرور مرحلة اللمس وطلب الشفاء والاحتفالات الصاخبة، يقوم المضيفون الجدد بتعويض خسائرهم عن طريق اصطحاب الغرباء إلى قرية أخرى، ليستولوا على نصيبهم من الهدايا

أو السرقات.

وفي ظل ما شاهدوه من تصرفات غريبة، قرر الإسبان الثلاثة والعبد الإفريقي التوجه بعيداً عن خليج المكسيك، وشدوا الرحال عابرين ما يُطلق عليه الآن «مكسيكو» على الحدود الشمالية من خليج كاليفورنيا. وصادفوا في طريقهم قرى أكبر مساحة تزرع الذرة الصفراء، والفاصولياء، والقرع الصيفي. وما إن اقتربوا من المستوطنات الإسبانية المطلة على السهول الساحلية من خليج كاليفورنيا، مع نهاية عام 1535، حتى أصابهم الهلع من غارات جنود أمن الحدود الإسبان على تجمعات القبائل الأمريكيين الأصليين ليتخذوهم عبيداً. واستطاعوا في نهاية الأمر التوصل إلى عقد هدنة تسمح للأمريكيين الأصليين الحياة بسلام في قراهم لبعض الوقت، والسماح لكابيزا دو فاكا ومرافقيه الثلاثة في يوليو 1536؛ أي بعد ثماني سنوات من وصولهم إلى ساحل تكساس، بالتوجه نحو مدينة المكسيك حيث رحب بهم نائب الحاكم الإسباني وكورتيز فاتح البلاد العظيم.

بدت تلك البقعة الشاسعة المتنوعة من هذا المشهد، التي نطلق عليها الآن تكساس، بعيدة ونائية وفي هامش ما يجري من تغيرات مؤثرة سنعرضها في هذا الكتاب. وثمة سبب وجيه للبدء من هذه النقطة. ويجب أن نتذكر أن بعض من واجهوا هذه التغيرات .بمواردهم المحدودة أو شاء سوء حظهم أن يعترضوا طريق هذه التغيرات الكبيرة قد اختفوا ببساطة. فلا نسمع اليوم أن أحدهم يزعم أنه من سلالة الكارانكاوا – Karankawa. ومع ذلك استطاعت قبائل الأمريكيين الأصليين الأخرى الحفاظ على أساليب معيشتها في مواجهة ما تكبدته من خسائر بسبب الأمراض والأوبئة التي جلبها الغرباء إليها، وما إلى ذلك من تحديات وفرص انطوى عليها تواصلها مع عالم أوسع نطاقاً.

فعلى سبيل المثال، عاش أهالي قبيلة الكادو – Caddo في منطقة وودزلاند، التي يُطلق عليها الآن شرق تكساس، حياة عادية حيث تعاونوا في مزاولة الزراعة، وبناء المنازل، وتداول الحكم، وإرساء نظام قويم، وخفض معدلات الجريمة في مدنهم، وهو وضع حظيت به قليل من أجزاء أوروبا في الفترة نفسها من القرن السادس عشر أو السابع عشر. ومن الواضح أن قبيلة الكادو فقدت العديد من أبنائها بسبب الأوبئة والأمراض بحلول القرن السابع عشر، إلا أنها استطاعت الحفاظ على تماسك أسلوبها المعيشي.

وبفضل زراعة أفرادها الذرة والفاصولياء واليقطين والقرع الصيفي، والتوت، والفاكهة في تربة خصبة وطقس معتدل، علاوة على مزاولة صيد السمك وقنص الغزلان والدببة، لم يشعروا بالجوع مقارنة بالفلاحين في العديد من أجزاء أوروبا. ومن خلال اعترافهم بوجود إله، وأن ما يشعلونه من نيران هو قبس من نيران مقدسة وأبدية تضطرم ألسنتها في معبدهم الخاص، وتوديع موتاهم في شعائر تفطر القلوب، اتبع أبناء قبيلة الكادو مجموعة من الطقوس المتصلة بتقويم السنة الزراعية.

كما صنعوا السلال الجميلة والبسط من أعواد الخيزران والملابس الجلدية القوية، والأواني الفخارية الدقيقة الصنع التي أبدعتها الشعوب الأصلية في أمريكا الشمالية. وفي أواخر القرن السابع عشر، حصلوا على البضائع التجارية من أهالي المستوطنات الفرنسية ناحية الشرق، في حين جلبوا الخيول – وقد كانت من نتاج السلالات التي أحضرها الإسبان معهم – من الإسبان أو القبائل التي تسكن السهول ناحية الغرب. وقد تمتعوا بالثقة الكبيرة في قدرتهم على الترحيب بالزائرين الفرنسيين أو الإسبان واللعب ضدهم في مباريات فاصلة دون أن يفقدوا سيطرتهم على الموقف. ومع الوقت فازوا باحترام الإسبان والفرنسيين علاوة على احترام البعثات التبشيرية الأولى التي استهدفت تغيير أسلوب حياة هذه القبائل من الجذور. وما إن اجتاحتهم موجات الاستيطان الأوروبية – الأمريكية بعد 1750، بدأوا في الاضمحلال بشكل ملحوظ، أما اليوم فإنهم يعيشون فقط في محميات صغيرة في أوكلاهوما.

حصل الكادو على الخيول عام 1680، لكن ذلك لم يغير من أسلوب حياتهم. وعلى طول السهول المقفرة والممتدة حتى جبال روكي عبر ما يُسمى الآن غرب تكساس وبانهاندل Panhandle، أسست قبائل الأمريكيين الأصليين، في عام 1700، أسلوباً معيشياً جديداً اعتمد على تربية الخيول، وشن الحروب، وقنص الجاموس. وكان لها السبق بين سكان مناطق أقصى الجنوب في تأسيس أسلوب حياة «الهنود الحمر أو هنود السهول» – Plains Indian، التي استمرت حتى أواخر القرن التاسع عشر، وهو النموذج الذي رسخ في مخيلة الكثيرين اليوم عن الهنود الحمر، ولاسيما كما صورتهم أفلام هوليوود في أفلام حياة الغرب الأمريكي – Westerns إلى يومنا هذا.

وحتى عام 1600، اعتادت هذه القبائل الجنوبية مزاولة الزراعة جزءاً من السنة، وقنص الجاموس بعد الحصاد. كانت مزاولة صيد الجاموس الضخم السريع على الأقدام عملاً محفوفاً بالمخاطر. ويبدو أن بعض قبائل الأمريكيين الأصليين بدأت ببيع الخيول أو سرقتها من المستوطنات الإسبانية الجديدة على امتداد منطقة ريو جراند – Rio Grande بالقرب من مدينة «سانتا في» الحديثة – Santa Fe بنيو مكسيكو في أوائل القرن السابع عشر. وعندما قامت قبائل البيوبلو Pueblo بطرد الإسبان خارج تلك المنطقة بصورة مؤقتة عام 1680، لم يستخدم أفرادها قطعان خيولهم لانشغالهم بالزراعة، لذا لجأوا إلى المتاجرة بها وبيعها للقبائل خارج منطقة السهول. وبحلول عام 1700، قامت قبائل الأمريكيين الأصليين من سكان منطقة السهول بالإغارة على المستوطنات في وادي ريو جراند. وكان من بين تلك القبائل المغيرة قبيلتا الأباتشي والكومانشي، وفيهما أكثر المحاربين مهابةً وإثارة للخوف في النفوس حتى نهاية القرن التاسع عشر. كانت سهول تكساس موطناً لأعداد ضخمة من قطعان الجاموس، مما يضمن لهذه القبائل التمتع بحياة الترحال والسفر ببضائعها من مخيم إلى آخر على دعامتين تجرهما الخيول، حاملة كل ما قد يحتاجون إليه من لحوم وجلود لنصب خيامهم وملابسهم وغيرها من الأمتعة، وملاحقة الجاموس وقنصه أو طعنه بالرمح من فوق ظهور خيولهم، ونيل الشهرة كمحاربين أشاوس في حروبهم ضد القبائل المجاورة.

إن هذا الكتاب يطوف بنا أنحاء العالم مستعرضاً طرفاً من التغيرات الكبرى، ويطرح بعض الأسئلة على غرار: كيف أضحى عالمنا الآن متقارب الأطراف؟ وكيف بلغ حالة الاضطراب التي يعيشها حالياً؟ كما يحكي قصصاً عن أشخاص رائعين سواء كان لهم نصيب من الشهرة أو الصيت السيئ. ويحلو لي أن أبدأ بقصص صغيرة، تستند إلى بعض الحقيقة، حول أشخاص وأماكن بعيدة عن التغيرات الدرامية الكبرى. فكثير مما نعتقد أننا نعرفه عن الماضي يعتمد في الواقع على نص أو اثنين، كما أن بعضها يصعب تخيله أكثر من قصة كابيزا دو فاكا. إن التاريخ وليد التغيرات والخيارات التي قام بها أشخاص عاديون جداً، بل مجهولون، ولم يقتصر – حسب– على النساء والرجال العظماء.

الفصل الأول

الإسلام وعالم أرحب نطاقـــاً
1490-1450

حي على الصلاة... حي على الفلاح... الله أكبر.. لا إله إلا الله...
حي على الصلاة... حي على الصلاة... الله أكبر.. لا إله إلا الله.

لأسابيع خلت من ربيع عام 1453، حرس الجنود المسيحيون، والإغريق، وحلفاؤهم، الأسوار الضخمة المزدوجة لمدينة القسطنطينية، في حين تردد على مسامعهم نداء المسلمين لصلاة الفجر عابراً خطوط الحصار الذي أقامته الجيوش التركية العثمانية المواجهة لهم. فاق عدد القوات العثمانية عدد المدافعين عن المدينة بما يناهز أربعة أضعاف على الأقل، وربما عشرة أضعاف، إضافة إلى تفوقهم في التنظيم إلى حد بعيد. وفي غضون بضعة أسابيع أحضروا على ظهر سفنهم المواد اللازمة لتشييد قلعة قوية من الأحجار عند أضيق نقطة من مضيق البوسفور، وهو المضيق الرئيس بين القسطنطينية والبحر الأسود. كما بنوا دعامة خشبية لنقل السفن الصغيرة إلى البر المحاذي للمرفأ الداخلي، متجاوزين سلسلة ضخمة وضعت لحمايته.

وعلى الرغم من ضخامة مدافعهم، فإن براعتهم في استخدامها فاقت استخدامهم أي عتاد أخر داخل المدينة، إذ تمكنت مدافعهم من تحطيم أحد جوانب الأسوار الضخمة، ولكن في كل مرة استطاع الفريق الآخر المدافع عن المدينة إصلاح الجزء المُحطَّم، مما بعث قليلاً من الأمل في قلوب المدافعين بأن الله إلى جوارهم، رغم كل شيء. وفي المدينة، لم يتوقف إحياء الطقوس الدينية وتسيير المواكب التي تشدو بأروع الترانيم والتعاليم الأرثوذكسية اليونانية قط، وهم يحملون الأيقونات المتوهجة الألوان والصور المقدسة للمسيح، والسيدة مريم العذراء، وغيرهما من القديسين.

وفي يوم 12 مايو انزلقت أقدس أيقونة كان يحملها أحد المواكب من فوق، وفي اليوم

التالي ملأ ضبابٌ كثيفٌ وضوءٌ غريبٌ عنان السماء محيطين بكاتدرائية الحكمة المقدسة (Cathedral of the Holy Wisdom). مما دفع العثمانيين إلى تفسير الحادثة وفق أنها النور الحقيقي للإسلام الذي سرعان ما سيسطع في تلك الأنحاء، وقرروا في نهاية المطاف القيام بهجومٍ أخيرٍ واسع النطاق. وكتب شاهد عيان إيطالي يدعى جياكومو تيدالدي (Giacomo Tedaldi) عن ذلك قائلاً:

«بعد أن قرر السلطان القيام بهذا الهجوم الإضافي، أعطى أوامره قبل ثلاثة أيام من الهجوم بضرورة الصيام في المعسكر بأكمله تقرباً لله وتعبيراً عن الإجلال والتعظيم لرب السموات، الذي لا يعبدون سواه، لذلك صام هو ورجاله مدة ثلاثة أيام متتالية، دون أن يتناولوا شيئاً طوال اليوم، إلا ليلاً، منذراً إياهم بأن الموت سيكون عقاباً لمن يخالف الأوامر. وفي الليل، أضاؤوا المكان بالشموع وأشعلوا الأخشاب التي تركوها لتذوي فوق الأرض وبمحاذاة شاطئ البحر، فبدا الأمر وكأن حريقاً هائلاً قد طال البحر والبر، وسط ضجيج قرع الطبول وغيرها من الآلات (فقد نَدَرَ أن تجد لديهم أي أبواق).

جرى الهجوم الأخير في فجر يوم 29 مايو. وتحقق النصر، وكان انتصاراً للانضباط العسكري العثماني أكثر منه انتصاراً للمدافع الكبيرة، التي لم تتسبب، في تلك الساعات، إلا في إحداث ثغرات صغيرة في الأسوار المحيطة باثنتين من البوابات الضخمة. وبعد صد عدة محاولات للتقدم، تمكن السلطان محمد (Sultan Mehmet) من التقدم هو و3000 جندي من جنود قصره، حيث وقف جانباً، في حين تقدم الجنود صامتين، في صفوف منضبطة. وكانت إحدى البوابات الجانبية غير مؤمّنة كما ينبغي، فتمكن زهاء خمسين جندياً مهاجماً من اختراقها والصعود إلى أعلى السور لرفع علمهم. وقد تقطعت بهم السبل وأحاط بهم الموت من كل جانب عندما أصيب القائد الإيطالي الذي كان يقود رجاله للمساعدة في الدفاع عن المدينة، فانسحبوا إلى الخلف، وبدأ الذعر يدب في قلوب رجاله وغيرهم من المدافعين عن المدينة، بعد فقدانهم قائدهم الشجاع. وفي تلك اللحظة شقت القوات العثمانية طريقها بقوة عبر بوابتين، في حين انهارت الدفاعات أمامها. وانتشر الجنود العثمانيون لوقف عمليات السلب والنهب التي اجتاحت المكان.

امتطى السلطان الشاب محمد جواده مخترقاً إحدى الثغرات في الجدران المزدوجة

الضخمة، في حين انطلق جنوده عبر شوارع المدينة العظيمة متجهين مباشرة صوب كنيسة الحكمة المقدسة الرائعة. لم ينبهر السلطان محمد بألوان الفسيفساء الداكنة والذهب اللامع الذي يزين القباب العديدة؛ إذ تحرم العقيدة الإسلامية كل محاولات تجسيد صور من الحياة والجمال الطبيعي! أو نحت تماثيل السيد المسيح أو السيدة مريم العذراء، ليعبدها الناس شركاً بالله الواحد والإله الحقيقي، كما تعتبر ذلك استهانة بقدرة الخالق سبحانه وتعالى. أصدر السلطان أوامر مشددة بتوقيف الجنود الذين خرجوا على السيطرة، وبدأوا في تكسير الرصيف الرخامي الفخم، وامتطى جواده مواصلاً طريقه إلى بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية (Greek Orthodox Church) للتشاور معه.

وهكذا، فعلى الرغم من أن الإسلام يسعى في الغالب إلى إيجاد نوع من النقاء الخاص به ويقاوم التأثيرات الآتية من الدول غير الإسلامية، اعتاد القائد الإسلامي، حينئذ، وفي تلك اللحظة من انتصاره، التعامل بشكل فاعل مع عالم معقد غير مسلم، مثلما فعل الكثير من الحكام والجنود والتجار والعلماء المسلمين، من بداية الإسلام حتى عصرنا الحالي. لم يتسم المسلمون بنظرة عصرية وحسب، وإنما كانوا «عصريين بصورة مبكرة»في انضباطهم، واستخدامهم للمدافع الكبيرة، ومؤسساتهم الحكومية الرائدة، وتسامحهم مع غير المسلمين الذين يعيشون تحت حكمهم، وحتى في نظرتهم إلى جميع أصحاب المعتقدات الأخرى وفق أنهم سواسية أمام الله الواحد الأحد.

استمر فتح القسطنطينية، التي عرفت بعد فترة وجيزة باسم اسطنبول، على يد الأتراك العثمانيين، واستمر هذا الاسم فترة طويلة لاحقة. خرج العثمانيون من الطرف الشرقي للمنطقة التي تعرف الآن بتركيا قبل عام 1100، وعبروا الحدود إلى أوروبا في أربعينيات القرن الرابع عشر، وبحلول عام 1389، حققوا نصراً كبيراً على الصرب في كوسوفو، ظل عالقاً في الذاكرة القومية الصربية إلى يومنا هذا، باعتبار الصرب كانوا في يوم ما خطَّ المواجهة الشجاع لأوروبا المسيحية ضد جحافل المسلمين.

ومازال الإخفاق حليف القوى الأوروبية العظمى في محاولاتها التغلب على الانقسام القديم بين الكنيسة الكاثوليكية الرومانية– التي منحت البابا في روما السلطة على جميع المسيحيين– والكنيسة الأرثوذكسية اليونانية، ومركزها في القسطنطينية، وقد رفضت هذا



قوات محمد الفاتح تهاجم قلعة البندقية على مضيق البوسفور، قرابة عام 1450، يسلط الفنان العثماني الضوء على الأسلحة النارية الوفيرة والتنظيم الجيد للقوات المهاجمة. *Bildarchiv Preussischer Kulturbesitz / Art Resource, NY*.

الادعاء. كما أن الأوروبيين أخفقوا في تنظيم أي شيء؛ كالقيام بهجوم مضاد مدروس، وبصورة عامة ظلوا في حالة إنكار بشأن حجم التهديد العثماني.

ورثت القسطنطينية التقاليد السياسية والفكرية المجيدة من اليونان وروما، وكانت عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، التي كانت قوة عظمى في شرق البحر المتوسط حتى ظهور العثمانيين. لذا كان فتح المدينة صدمة كبرى لأوروبا المسيحية، ويعتبر عام 1453 عاماً محورياً في تاريخ شرق البحر الأبيض المتوسط والعلاقات بين المسيحيين والمسلمين.

ويجب أن تحظى قصة الإسلام بمكانة مهمة في تاريخ العالم عبر أي فترة زمنية منذ بدأ انتشاره في القرن السابع.

تأثر الموروث الإسلامي التقليدي العظيم للدول الناطقة بالعربية تأثراً عميقاً بعد عام

1200 بغزوات المغول، التي مزقت طرق التجارة ودمرت بغداد وغيرها من المدن الإسلامية الكبرى، كما زادت حدة الخلافات الدينية أيضاً. فقد اعتقد أصحاب الفكر السني أن الألفاظ الصريحة للقرآن الكريم، وإجماع العلماء على الاعتماد على الشريعة والسُنّة يمثل جميع الإرشادات اللازمة لأي مسلم صالح. في حين اعتقد الشيعة أن الإسلام لا يمكن الاسترشاد به بشكل صحيح إلا بواسطة شخص من سلالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو «الإمام» أو «الوليّ» المعلم، وقد حزن الشيعة على قطع سلالة الأئمة إثر ما حدث من نزاعات إبان العهد الأول للإسلام، وأعربوا بطرق مختلفة عن أملهم في مجيء إمام خاتم أو غائب عن الأنظار. وانتابهم إحساس بأن هناك تفسيرات خفية حتى في القرآن، وشعروا بحاجة ماسة إلى معلم مُلهَم، وحبذا لو كان إماماً، لمساعدتهم على فهمه.

في بعض الأحيان، ظلت بعض التعاليم التي تضمنتها الممارسات الصوفية داخل إطار المذهب السني، لكنها انسلّت بسهولة إلى منهج الشيعة. لقد وضع الإسلام معايير حازمة لسلوكيات المسلمين: تمثلت في فرض الصلاة يومياً، والصيام في شهر رمضان منذ طلوع الفجر إلى غروب الشمس، والزكاة، والحج إلى مكة لمن استطاع إليه سبيلاً، بيد أنه لم يتطلب الانقطاع عن العالم أو الحرمان من الشهوات الجسدية. ولايزال بعض المسلمين – في خضم سعيهم للتدين– ينذرون يومهم بالكامل لمنهج الزهد والعزوف عن متاع الدنيا، لا يشغلهم إلا الصوم طوال اليوم والصلاة طوال الليل، مما قد يؤدي إلى لحظات رائعة من التوحد في معية الله، والتمتع بآياته ومخلوقاته. وقد أطلق على هؤلاء الزاهدين اسم «الصوفية»؛ وهي كلمة عربية تشير إلى العباءة الصوفية السوداء. ومع أنهم لم ينتهكوا قواعد السلوك لدى المسلمين، فإن النظرة إليهم ظلت مغلفة بالارتياب، لأنهم كانوا خارج الحدود المعتادة للمكان، والعمل، والأسرة، ويبدو أن رواياتهم عن تجاربهم تدل ضمنياً على أنهم أكثر قرباً إلى الله من رب البيت العادي المتدين. وقد جذبوا أتباعاً لهم من بين الجنود والحرفيين والتجار، وشكّلوا مجموعات منظمة من أجل الدعم المتبادل، وأنشؤوا تكايا مفتوحة لجميع المسافرين.

تبنى الأتراك العثمانيون مجموعة من التقاليد التي شاعت في آسيا الوسطى، وغدت منهجاً سياسياً مركزياً فرض سيطرته على حياة البدو الرحل وطرق التبادل التجاري

حتى بلغ ذروته في عهد الإمبراطورية المغولية العظمى في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. وارتبطت لغتهم بلغة المغول وغيرهم من الشعوب الآسيوية الداخلية. ولم يكونوا أول الأتراك الذين تعدّوا على الإمبراطورية البيزنطية؛ إذ حقق الأتراك الذين نعرفهم باسم السلاجقة نصراً كبيراً أوائل عام 1071. كما احتفظ الأتراك بإرث آسيا الوسطى من السياسات المتسامحة، في ظل وجود صراعات عنيفة متكررة بين المطالبين بخلافة وراثية لكرسي الحكم، وقد ينتهي الأمر أحياناً إلى يد مجموعة من المتحاربين على رأس السلطة. فكانت بيئةً ما أسرع أن تتبدل فيها الهوية، فالقائد الموهوب هو من يستطيع أن يجذب حلفاءه وحتى خصومه المهزومين إلى تنظيم جديد تحت اسم جديد.

ظهر العثمانيون نتيجة نوعين من التفاعل داخل المجتمعات الإسلامية الأولى. النوع الأول، تمثل في عمل بعض الأتراك حراساً على الحدود لحماية المناطق المستقرة من جماعات البدو الأخرى، والبلاء بشجاعة في المعركة، وإخضاع الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية. والنوع الثاني، في المدن وعلى امتداد طرق التجارة، حيث نشر التجار المسافرون تعاليم كبار شيوخ الصوفية. وشكّلت مراكز تعليم الصوفية– التي وفرت السكن للمسافرين والتجار والحرفيين– نوعاً من روابط الأخوة في الصلاة حول الشيوخ الصوفيين. كما لفتت هالة الغموض المحيطة برباط الأخوة والطاعة للشيخ الزاهد الورع، انتباه المقاتلين على الحدود إلى بعض الطرق الصوفية. ويشبه هذا الوضع بصورة ملحوظة ذلك التفاعل الذي حدث بين محاربي الصحراء وجماعات التجار في أول عهود العرب من تاريخ الإسلام.

في البداية كان العثمانيون مجرد مشاركين بين عدد قليل من المشاركين الأتراك الأكثر قدرةً أو حظاً على الحدود البيزنطية، وأخضعوا الآخرين تحت سلطتهم في إطار من الحرية؛ فكل ما كان مطلوباً هو قيادة الحاكم لقواته في حملة صيفية تحت القيادة العثمانية. وأخذت هذه العملية شكلاً رسمياً بصورة تدريجية في ظل نظام اعترف بحق الحكام الإقليميين في جمع الإيجارات من إقليم خاضع لهم، فيما عرف باسم «تيمار timar»، وما نتج عن ذلك من التزامهم بتوفير الدعم لعدد معين من الفرسان والمشاة. بعد عام 1300، تكرر عبور العثمانيين إلى أوروبا عن طريق التحالف مع هذا الفصيل أو ذاك في

ظل سياسات البلاط البيزنطي، وبدؤوا في توسيع نطاق استراتيجيتهم الأساسية لحكم غير المسلمين، وقد تحقق ذلك تدريجياً في القرون السابقة في منطقة تضم أصحاب العقائد المختلفة واللغات المتعددة. وقد خلقت هذه السياسات شعوراً حذراً في مثل هذه المنطقة، كما انبثقت من احترام المسلمين للمسيحيين واليهود، باعتبارهم، مثل المسلمين، «أهل كتاب»، وعباد إله واحد، وأقروا بالعديد من الأنبياء، من موسى(Moses) وإبراهيم (Abraham) حتى المسيح (Jesus) عليهم السلام. ومن ناحية أخرى، نظر المسلمون إلى المسيحيين واليهود باعتبارهم لم يعترفوا بنبي الله الخاتم، محمد صلى الله عليه وسلم، وكتابه المقدس خاتم الكتب «القرآن»، لكنهم ظلوا يستحقون الاحترام. ولم تكن هناك حاجة لدى المسيحيين واليهود إلى حمل السلاح تحت قيادة حاكم مسلم، متى دفعوا ضريبة الرأس «الجزية».

وتمثل التجديد الرئيسي الثاني اللازم لاستقرار الدولة العثمانية الفتية في إنشاء قوات عسكرية مدفوعة الأجر بدوام كامل، أطلق عليها الإنكشارية، وهي من الكلمات التركية ومعناها «الجيش الجديد»، الذي قدم دعماً أكثر موثوقية للحاكم من المحاربين الذين تبعوا القادة الإقليميين في حملة من الحملات. وكان ثالث تجديد هو قانون التجنيد الدوشيرمة «جمع الأولاد» (devshirme)، فقد اشتُرِطَ على الرعايا غير المسلمين أن يسهموا بالأولاد كي تتم تربيتهم في البلاط العثماني كمسلمين وعبيد للحاكم؛ وارتقى رجال «الدوشيرمة» في كثير من الأحيان إلى مواقع السلطة والثقة الكبيرة في الدولة العثمانية.

بعد عام 1400، سيطر العثمانيون على جزء كبير من منطقة البلقان، حيث ضمت رعيتهم العديد من المسيحيين- المجريين والصرب، وغيرهم - وظهرت دلائل كثيرة على أن العيش بين المسيحيين والتزاوج معهم قد أثر في حياتهم الثقافية. وبعد فتح القسطنطينية/ إسطنبول عام 1453، أطلق المسلمون على الحكام العثمانيين لقب «سلاطين»؛ أي الحكام السياسيين المسلمين، وبدأوا في أربعينيات القرن السادس عشر في تأكيد تسميتهم بـ«الخلفاء»، ليحظوا بالسلطة الكاملة في الأمور الدينية الخاصة بالمسلمين. كما أضفوا على الفئات غير المسلمة وفاضاً إسلامياً تحت قيادتهم الخاصة - كوجود بطريرك يوناني، وبطريرك أرمني، وكبير حاخامات - وسمحوا لهم بإدارة القوانين الخاصة لأتباعهم،

ولاسيما في المسائل الدينية، والزواج، والميراث، وتمتع هؤلاء القادة الدينيون بسلطة سياسية كبيرة جداً.

وهكذا وفر العثمانيون السلام لجميع رعاياهم في ظل رقعة شاسعة من العالم، يمكن أن يتجول التجار فيها دون التعرض للسرقة، ويمكن للمزارعين أن يزرعوا محاصيلهم دون الخوف من أن تقوم الجيوش المارة بتدميرها. ويبدو أن الضرائب المفروضة كانت زهيدة وفي متناول اليد مقارنة بالابتزاز الذي كان يمارسه الحكام المسيحيون في الأجزاء الأخرى من منطقة البلقان. كما تبوأت الكنائس والمعابد مكانتها إلى جانب المساجد. وربما أصاب الحزن الشديد بعض العائلات التي فقدت ابناً لها في الدوشيرمة «نظام التجنيد» (devshirme)، على الرغم من بلوغ هذا الابن في بعض الأحيان مكانة عالية في الخدمة العسكرية العثمانية، مما جعله قادراً على حماية موطنه الأصلي أو التبرع لأهالي بلدته بالأموال لبناء جسر أو إجراء إحدى التحسينات الأخرى.

وقد أعقب عملية السلام والازدهار العام في أواخر القرن الخامس عشر بعض الحروب التي كان النصر حليفاً فيها للعثمانيين، والتي مولتها الضرائب التي دفعها الناس عن طيب خاطر بسبب فائض الإنتاج. وفي وقت لاحق، في القرن السابع عشر، أصبحت نتائج هذا الازدهار أكثر اختلاطاً؛ حين تمكن ذوو السلطة في الأقاليم من السيطرة على العائدات الناتجة من مناطقهم واستخدامها في رفع وتيرة التحديات ضد سلطة الحكومة في إسطنبول. وأدى نجاح الحكم المركزي فوق هذه الرقعة الشاسعة من العالم، وتزايد أهمية القوة العسكرية داخله، إلى أن يصف مفكرو العصر الحديث الدولة العثمانية باعتبارها إحدى «إمبراطوريات البارود»، بما في ذلك الإمبراطورية الصفوية في إيران والمغولية في الهند، وذلك لاعتمادهم بدرجة كبيرة على السيطرة المركزية على تكنولوجيا الأسلحة النارية سريعة التطور للحفاظ على السلام في منطقة شاسعة.

ولم تشهد منطقة دول البحر الأبيض المتوسط في عام 1500 أي تقدم حققه المسلمون بصورة منتظمة. ففي أقصى الغرب، عانى الإسلام من تراجع استمر فترة طويلة لاحقاً حتى تحقق النصر في إسطنبول. لقد حكم المسلمون شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال حالياً) عدة قرون، وحظيت في ظل حكمهم بثقافة نابضة بالحياة وثراء أدبي وفني، مع

وجود درجة كبيرة من التسامح مع المسيحيين واليهود. لكن الفرسان المسيحيين القادمين من الشمال استولوا على معظم شبه الجزيرة بحلول عام 1300 تقريباً.

و لم تظهر على السطح أي مقاومة حقيقية سوى من مملكة غرناطة (Granada) الصغيرة في أقصى الجنوب، التي سقطت في يد القوات المسيحية في يناير عام 1492. وكان الملوك المسيحيون أقل تسامحاً إلى حد بعيد عما كان عليه المسلمون؛ حيث كان مطلوباً من اليهود والمسلمين إما التحول عن دينهم أو مغادرة البلاد. واستوطن عدد كبير من اليهود الأيبريين مرة أخرى في إسطنبول. واستطاع الانتصار البحري الذي حققه ائتلاف مسيحي في ليبانتو(Lepanto) قبالة سواحل اليونان في عام 1571 تهديد القوة البحرية العثمانية المتنامية، ومع ذلك استمرت سيطرة العثمانيين إلى حد كبير على شرق البحر الأبيض المتوسط، في مواجهة القوة البحرية الفرنسية والإسبانية في المياه المحيطة بإيطاليا وأقصى الغرب.

ومن عام 1510 حتى عام 1520، حظيت الإمبراطورية العثمانية (Ottoman Empire) بقوة كبيرة وازدهار اقتصادي في لحظة مليئة باحتمالات عديدة عبر موقعها على مفترق الطرق بين قارتي أوروبا وآسيا (أوراسيا)، ونتيجة للتغيرات الكبيرة التي شهدها مجال الاكتشافات البحرية التي بدأت برحلات كولومبوس (Columbus) وفاسكو دا جاما(Vasco da Gama). كما واجهت قوتين معاديتين تمثلتا في سلاطين المماليك في مصر، الذين وصلت قوتهم شمالاً إلى سوريا الحديثة، وتلك القوة العسكرية الجديدة؛ أي الدولة الصفوية الشيعية (Shia Safavid) في إيران. وعززت كلتا السلطتين مكانتيهما من عائدات الضرائب المفروضة على التجارة البحرية، المتجهة إلى شمال الخليج العربي وشمال البحر الأحمر، التي تعطلت حينئذ بصورة مؤقتة بسبب هجمات البرتغاليين في المحيط الهندي. وفي عام 1516، عندما اتجه جيش عثماني كبير نحو سوريا، لم يكن واضحاً ما الطريق الذي سوف يسلكه. وحينما حوَّل الجيش اتجاهه نحو مصر، انضم العديد من أصحاب السلطة في سوريا إلى الجانب العثماني، ومع نهاية عام 1517، أخمدت سلطة المماليك وأصبحت مصر آمنة تحت السيطرة العثمانية. ثم تلتها مكاسب إقليمية أخرى: ففي عام 1534 استولى العثمانيون على بغداد ومعظم العراق من الصفويين الإيرانيين، وهو

ما يمثل بداية مئة عام من المواجهة على تلك الحدود. وفي البلقان أعقبت حصاراً وجيزاً لفيينا في عام 1529 سنوات عديدة من حرب الكر والفر فوق أراضي المجر وصربيا. وعلى الرغم من أن العثمانيين لم يكن لهم خبرة بأسلوب الحرب في البحر، فقد تمكنوا حينئذ من خلق وجود قوي في منطقة البحر الأبيض المتوسط، مع الاستيلاء على قبرص في الفترة من عام 1570 حتى عام 1571، كما أقاموا قاعدة أمامية تتمتع بحكم شبه ذاتي في أقصى الغرب، في الجزائر العاصمة، عام 1517.

وهكذا فرض العثمانيون سيطرتهم على الكثير من المناطق، التي شملت الكثير من الأراضي المسيحية. وفي بلاد فارس الشيعية، واجه العثمانيون تحدياً جدياً لمذهبهم الإسلامي السني وهيمنتهم الاستراتيجية على تلك المنطقة. وقد تطلب الاحتفاظ بالإمبراطورية المتعددة الجوانب موحدة، والإبقاء عليها متماسكة، قدراً كبيراً من التنمية



حاج يرتدي ثوباً بسيطاً يحج إلى أضرحة مدينة مشهد (*Mashbad*)، في إيران، عام 1598، يرفع عمامته ويحك رأسه في ضجر أو استغراب. وكان الحج إلى مقابر علماء الشيعة سمة خاصة للمسلمين الشيعة. معرض فرير للفنون، مؤسسة سميثسونيان، *Washington, DC: Purchase, F1953.12*.

المؤسسية. وبصفة عامة، يُعتقد أن عهد سليمان الكبير؛ «القانوني» أو «المشرع»، منذ عام 1520 حتى عام 1566، كان ذروة الإنجاز السياسي العثماني، فقد وضع قواعد القانون والهياكل القانونية البيروقراطية، وحاول الحد من ممارسات الصوفية والشيعة وعمل على فرض المذهب السني.

كان ثمة قلق خاص من مشاركة سكان المدن، بما في ذلك الجنود، في اجتماعات «الدراويش» (dervish) المنظمة التي اتبعت تعليمات بعض قادة الصوفية؛ وقد شملت هذه الأحداث غالباً الكثير من الغناء والرقص الصوفي، الذي يختلف تماماً عن الركوع البسيط وتلاوة الصلوات اليومية للمسلم.

وعزز العلاقات العثمانية بالعالم الإسلامي مباشرة ما حققوه من فتوحات. كما منح الأشراف- الأوصياء على المدينتين المقدستين؛ مكة المكرمة والمدينة المنورة، حيث ظهر الإسلام- ولاءهم للعثمانيين، وهكذا يمكن تعيينهم وخلعهم من جانب السلطة في إسطنبول. وعنى هذا أن قوافل الحج الكبيرة السنوية من دمشق والقاهرة أصبحت الآن تحت حماية الدولة العثمانية وإشرافها. فقد كان الجنود يحرسون كل القوافل ومواقع الحاميات على امتداد طرق القوافل. وربما أطلقوا حملات أكبر لصد المغيرين من البدو الذين هددوا طرق القوافل، أو ربما اقتصر الأمر على دفع الأموال للمغيرين، لإبقائهم بعيداً عن تلك الطرق. ولم يكن من الممكن إبعاد الحجاج الشيعة القادمين من إيران تماماً، ولكن طُلِبَ منهم أن يتبعوا مساراً التفافياً طويلاً مروراً بطريق دمشق، كما تعرضوا إلى كثير من العقبات، والإساءات اللفظية في المدن المقدسة.

وسيكون من الصعب المبالغة في تقدير الأهمية التي حظيت بها المدن المقدسة وشعائر الحج، حيث يتوجه المسلمون سنوياً لزيارة الأماكن المقدسة، في أوائل العصر الحديث. وقد أعطى هذا للإسلام كماله وسط تنوع شعوبه كافة، من جنوب شرق آسيا إلى الصين وحتى غرب إفريقيا. وأينما وجد المسلمون، فقد توجهوا في صلاتهم نحو مكة المكرمة، وعندما يأتون إلى الحج يستمعون إلى العديد من الخطباء الذين يدعونهم لتجديد إيمانهم والعودة إلى الأسس الصحيحة للدين، كما يزورون الأماكن التي نزل فيها الوحي على الرسول بآخر آيات القرآن الكريم من عند الله، ويتعهدون باتباع المنهج الإسلامي الخالص

الذي عاشوا مناسكه وروحيته في تلك البقاع المقدسة. ويعتبر الحج واجباً دينياً على كل مسلم قادر جسدياً ومالياً على القيام بهذه الرحلة. ويبلغ الحج ذروته بمناسك مهيبة يؤديها الحاج خلال بضعة أيام من شهر ذي الحجة. وبما أن التقويم الإسلامي يتكون من اثني عشر شهراً قمرياً، فإن توقيت التقويم الشمسي للحج يتغير من عام إلى آخر، مما يثير مشاكل مختلفة للحجاج القادمين عبر الصحراء في ذروة حرارة الصيف، أو الذين يضطرون إلى الإبحار من الهند إلى البحر الأحمر وقت هبوب الرياح في الاتجاه الصحيح.

وقد يضطر الحجاج إلى الانتظار عدة أشهر عند بعض النقاط في منتصف الطريق، أو في مكة المكرمة والمدينة المنورة بعد الانتهاء من المناسك. وكثيراً ما يجلب الحجاج معهم البهارات والأقمشة وأخشاب البخور من أوطانهم لبيعها وتغطية نفقات الرحلة. لم يكن ذلك مستغرباً فقد نزل الوحي على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، الذي عمل في مجال التجارة، كما أن أول من اعتنقوا الإسلام كانوا من تجار مكة، لذا أصبح الحج مناسبة دينية شهدت أولى الحركات التجارية في العصر الحديث. وفي الحج، يرتدى الحجاج الملابس البيضاء غير المزخرفة، التي تزيل جميع أشكال التمييز في الثروة أو الأصل القومي. كما يقوم كل حاج بالسعي والهرولة في الأماكن نفسها التي سعى وهرول فيها الأنبياء بدءاً من إبراهيم، ويطوف حول الكعبة المشرفة؛ ذلك البناء المكعب الشكل، الذي يضم الحجر الأسود في ساحة الحرم المكي الشريف، ويشق الحجاج طريقهم وسط الحشود للحصول على فرصة للمسه، مع الصلاة والتضرع إلى الله بالدعاء. ومن مناسك الحج أيضاً شعيرة السعي ذهاباً وإياباً بين بئرين كما فعلت هاجر بحثاً عن الماء لابنها إسماعيل. وفي اليوم الأخير يخرج الحجاج من مكة إلى جبل عرفات للصلاة والدعاء طلباً للصفح عن خطاياهم.

ظهرت قصص كثيرة عن الأشخاص الذين تغيرت حياتهم بعد هذه التجربة الشعائرية، حتى وإن كانوا متدينين بالفعل، أو خالطتهم الشكوك قليلاً، فلقد اكتسب جميعهم لقب «حاج»، وحظوا باحترام خاص في أي مجتمع مسلم. كما بدأ العديد من حركات تجديد الدين وتنقيته مما ألم به من شوائب في أنحاء العالم الإسلامي، عبر إصرار أحد الحجاج العائدين إلى أهاليهم على تعريفهم بالإسلام في صورته الخالصة والمركزة وفق التجربة

التي عاشها. وكانت تلك استراتيجية أكثر فاعلية في الدفاع عن منهج ديني ضد التغير والفساد، عوضاً عن التطبيق البيروقراطي والاستبدادي للأرثوذكسية، التي كرست لها الكنيسة الكاثوليكية الرومانية الكثير من الجهد في هذه القرون.

في القرن السابع عشر، ظلت الإمبراطورية العثمانية قوة عظمى، وكانت إسطنبول إحدى أكبر مدن العالم، غنيةً بجميع أنواع السلع الكمالية، وموفرةً الكثير من فرص العمل للمهندسين المعماريين والرسامين والحرفيين من جميع أنحاء العالم الإسلامي، وحتى من أوروبا المسيحية. واتسم أسلوب الحياة في ذلك الوقت بميزة حضارية خاصة في المناطق الحضرية، مثل انتشار المقاهي التي تقدم مشروب القهوة التي جلبت من موطنها الأصلي في إثيوبيا واليمن حيث انتشرت على نطاق واسع عبر العالم الإسلامي أكثر من ذي قبل، لأن كل المسلمين الصالحين امتنعوا عن شرب الكحوليات. ازدهر نظم الشعر والآداب الأخرى، التي كتبها بعض السلاطين أنفسهم، باللغة التركية العثمانية والفارسية. وإلى جانب المجتمعات المسيحية واليهودية، اندرج تحت مظلة الإسلام الكثير من الشيع والمذاهب المختلفة. وقد اجتهد المسلمون كثيراً خلال القرون الوسطى في سبيل الحفاظ على العلوم والفلسفة اليونانية الموروثة من القرون السابقة، ومع ذلك خالجت الريبة العديد من المسلمين تجاه التعلم من مصادر غير إسلامية؛ اعتمدت على ترجمة أعمال اليونانيين، التي ازداد تأثيرها مع الوقت.

وهناك سمة إضافية للحياة الثقافية العثمانية، وهي عدم وجود طباعة باللغة العربية أو التركية العثمانية في عهد الخلافة العثمانية حتى ما بعد عام 1700، على الرغم من معرفة الحكام بشأن الطباعة؛ فاليونانيون والأرمن واليهود -جميعاً- كانت لديهم مطابع في إسطنبول. ولكن الطباعة اليدوية للنصوص المقدسة حظيت بمكانة عظيمة في عهد الإسلام، وأدرك العثمانيون أن طباعة الحوارات الدينية في أوروبا المسيحية أسهمت في خلق نوع من الصراع بين المؤمنين، فتخوفوا من تكرار حدوثه في بلادهم. وقام الكاثوليك والبروتستانت ببعض الطباعة باللغة العربية في أوروبا المسيحية، في إطار جهودهم الرامية إلى كسب ولاء المسيحيين فيما تسمى الآن لبنان، التي أصبحت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية لاحقاً؛ ولم يكن ذلك سوى ضرب من ضروب إثارة التوتر العرقي والديني،



المآذن المتعددة للمسجد الحرام في مكة المكرمة، والكعبة المشرفة بلونها الأسود وشكلها المكعب، تحيط بها ساحة الحرم المكي الواسعة، وهي تمثل الصور الرئيسة في إحدى اللوحات الخزفية العثمانية من القرن السابع عشر. ويأمل كل مسلم صالح أن يحظى في حياته برؤيتها عياناً عند تأدية فريضة الحج.
Reunion des Musees
.Nationaux I Art Resource, NY

الذي يمكن أن يجعل من حكم إمبراطورية متعددة الأعراق والأديان أصعب.

كان العمل في السياسة إبان العهد العثماني في القرن السابع عشر مجالاً محفوفاً بالمخاطر. فقد تعرض العديد من السلاطين للعزل والقتل على يد الإنكشارية (Janissaries). واستمر الرعب الذي أثارته آلة الحرب، فتم الاستيلاء على كريت في وقت متأخر من عام 1669 وحصار فيينا عام 1683. وتم التخلي عن نظام الدوشيرمة: «نظام التجنيد» (devshirme)، إلى حد كبير، بيد أنه قدم مساهمة أخيرة لبقاء الدولة العثمانية؛ فقد كانت إدارة الإمبراطورية لفترة طويلة منذ القرن السابع عشر في أيدي سلسلة من رؤساء الوزراء المنتسبين إلى أحد المجندين قسراً في نظام الدوشيرمة (devshirme) ذي الأصل الألباني. وقد أدت هزيمة الجيوش العثمانية قبالة مدينة فيينا عام 1683 إلى إحداث فوضى عارمة

استمرت لسنوات في السهول العظمى من جنوب شرق أوروبا، بما في ذلك حادثة تمرد الجنود العثمانيين الذين لم يتلقوا رواتبهم وزحفوا عائدين إلى إسطنبول. وبحلول عام 1700، نجت الإمبراطورية من السقوط في حضن الفوضى، لكنها ظلت ضعيفة.

نشأت الإمبراطورية الصفوية في إيران في ظل ظروف لا تختلف كثيراً عن بدايات العهد العثماني، مع انتشار الطرق والجماعات الصوفية بين حرس الحدود والتجار في المدن. وكان من الممكن أن تظل تعاليم الصوفية في حدود المنهج السني للإسلام، لكنها شهدت توترات دائمة. واتسم هذا الاختلاط بين مفاهيم الشيعة التي تبناها المعلمون في الخفاء والمعاني التي حملتها تطلعات المسيحية المستقبلية، بتوتر أقل حدة و قوة أكبر.

العالم الإسلامي وإفريقيا وأوروبا

بدأ العهد الصفوي (Safavid) في القرن الرابع عشر كحركة صوفية قوية بين حرس الحدود والتجار والحرفيين في المناطق الحضرية، وتحولت إلى حركة سياسية بعد عام 1450، ومنذ عام 1499حتى عام 1501وجدت قائداً ملهماً، يدعى إسماعيل، الذي ادعى امتلاكه لسلطان النبوة، وقاد جيوشه إلى احتلال مدينة تبريز(Tabriz)، حيث كان يُنادَى باسم الشاه. وغزت قواته جميع بلاد فارس (إيران حالياً) طوال ما يقرب من عشر سنوات، واستمر في الحكم حتى وفاته عام 1524. وقد ادعى إسماعيل، البعيد تماماً عن العقيدة الإسلامية، أنه كان تجسيداً جديداً لآدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد والإسكندر الأكبر. ويقال إنه صرح قائلاً:

«بداخلي النبوة وسر القداسة. أنا عين الله؛ تعالوا الآن، أيها الضالون، لتشهدوا حقيقة أنني المتصرف المطلق الذي يتحدثون عنه، والشمس والقمر طوع بناني»3.

في القرن السادس عشر رسم الصفويون ملامح عالم جديد حدد المنهج الثقافي والديني للشيعة في إيران، وهو مايزال أساس نهج الحياة في إيران وحياة الشيعة في أماكن أخرى، كما هي الحال في العراق، حتى يومنا هذا. وخلال أوقات معينة من التقويم الإسلامي، كانت المدن الشيعية –ومازالت– تمتلىء بالعروض الدرامية لاستشهاد الإمام الحقيقي الخاتم، ومواكب الرجال الذين يندبون على وفاته، ويحتفون بتضحيته من أجل المسلمين.

ويعتبر الكثير من الشيعة أتباعاً مخلصين لإمام أو آخر، وهو يمثل شيخاً ومعلماً ذا سلطة وبصيرة دينيتين خاصتين.

في البداية كان العديد من الإيرانيين سنّيين، ويبدو أن الكثير من حالات تحول الولاء للمذهب الشيعي قد تمت بالقوة. لكن التحول القسري يفرز نتائج طويلة المدى فقط عندما يلمس الإكراه استعداداً للتغير. وربما وجد الإيرانيون في عقيدة الشيعة وممارساتهم ما مكنهم من الاعتقاد أنهم مسلمون أفضل من أعدائهم العرب ناحية الغرب. وربما انعكس اعتقاد الإيرانيين قبل الإسلام في ألوهية ملوكهم على تمجيد الصفويين لمكانة الملك. ويعتقد أن الشاهات الصفويين كانوا يتمتعون بصلة خاصة مع الله، لذلك احتلوا مكانة الأئمة الكبار، وأصبح يشكل بعضهم خطراً عظيماً على الحكام، وتم إبعادهم.

كانت البداية في عهد طهماسب (Tahmasp) ابن إسماعيل، حين فوض الشاه الكثير من سلطته الدينية للأئمة الذين سيطر عليهم بشكل صحيح. وأصبحت الثقافة الحضرية واضحة، ولاسيما في الأبنية الجديدة الرائعة بأصفهان، تحت حكم الشاه عباس الكبير (great Shah Abbas) (1588—1629). كما نقل إنتاج الحرير وتصديره إيران الصفوية إلى عالم التجارة المتداخل. وانتهى الصراع الطويل مع العثمانيين عام 1639. وفي أواخر القرن السابع عشر، عانت إيران من اضطرابات داخلية، ويبدو أن ثقافتها النابضة بالحياة، والمليئة بالتوتر، قد استسلمت للمذهب الشيعي الذي نسي منذ عهد طويل ادعاء إسماعيل الألوهية في عصر تمتع خلاله الأئمة الكبار بسلطة كبيرة.

ازداد صراع الإمبراطورية الصفوية مع جارتها التيمورية (Timurid) في الشمال الشرقي، في ما يسمى الآن بجمهوريات كازاخستان وأوزبكستان. وظل لاسم تيمورلنك (Timur) وزن حتى عام 1450، على الرغم من أن تيمور، الذي يعد آخر المحاربين الكبار حسب التقاليد المغولية، قد توفي وهو في طريقه لغزو الصين عام 1405.

وقد تسربت قصصه إلى آداب شعوب عديدة؛ حتى إن هناك مسرحية معروفة جيداً باسم «تيمورلنك»، بقلم كريستوفر مارلو (Christopher Marlowe)؛ أحد الكتاب المعاصرين لشكسبير. وفي نظر العديد من الإيرانيين، كان البدو الرحالة القاطنون على الحدود الشمالية الشرقية لإيران يمثلون كل ما هو وحشي وغير مألوف. لكن حكم المغول فرض

نوعاً من السلام، الذي جعل من الممكن للقوافل أن تنتقل على امتداد طريق الحرير بأمان، كما استمتع المغول أيضاً بالتعلم من الثقافات الرفيعة لجميع الشعوب التي حكموها. ولا يستحق بعض ورثة تيمورلنك، وبخاصة حفيده ميرزا محمد طارق بن شاه رخ المعروف بـ(ألوك بيك) Ulugh Beg، استخفاف الإيرانيين به وبثقافته وفكره. حكم ألوك بيك في شبه استقلال عن أقاربه في سمرقند (Samarkand) من عام 1409 حتى وفاته عام 1449. وكان جنرالاً رهيباً، ومتردداً، ولطالما غير خططه. لكنه كان راعياً كبيراً للفنون، وأمر ببناء المدارس والحدائق والحمامات والبوابات الرائعة في سمرقند (Samarkand) وبخارى (Bukhara)، ويمكن مشاهدة بعضها إلى الآن. وقد قاده حبه لمعرفة العالم الطبيعي إلى بناء مرصد وتجميع أكثر من ستين عالماً لتصميم غيره من الوسائل وتسجيل الملاحظات، فقد نسخت جداول النجوم التي جمعوها وترجمت عدة مرات، كما نشرت ترجمة لاتينية متأخرة في إنجلترا عام 1652. وبعد موت «ألوك بيك (Ulugh Beg)»، لم يستمر خلفاؤه في هذا العمل، لكن علماءه وجدوا فرص عمل لهم في بلاط حكام آخرين في العالم الإسلامي.

تطلع علماء سمرقند وبخارى، التي سميت لاحقاً كابول، في ظل أجواء نابضة بالحياة، إلى اتجاهين اثنين؛ الثقافة العظيمة لإيران وثروات القارة الهندية. كانت الإمبراطورية المغولية، التي تعرف الآن بالهند وباكستان، ثالث أعظم قوة مسلمة في «إمبراطوريات البارود». وقد تعرف المسلمون إلى الديانة الهندوسية عبر عدة طرق، أفضت –كما ظهر لهم– إلى أنها دين يصعب تجاوزه تقريباً، وأوسع بكثير مما كانت عليه الحال في مواجهاتهم مع المسيحية. ارتعد المسلمون، الذين اعترفوا بوجود إله واحد فقط، واعتبروا أي تجسيد لشكل الإنسان والحيوان شركاً بقدرات الخالق، لامحين مدى الانتشار المتطرف للمعتقدات الهندوسية، التي تمثلت في آلهتهم وإلهاتهم ذات الأذرع المتعددة أو رؤوس الحيوانات. لم يأكل المسلمون لحم الخنزير، لكنهم ألفوا ذبح الثور وأكل لحمه، على الرغم من كونه حيواناً مقدساً لدى الهندوس. لكن الهندوس عاشوا في ظل حكام مسلمين في أجزاء من شمال الهند منذ القرن الحادي عشر. وحتى فيما بينهم، عاش الهندوس في مجموعات منفصلة حسب المكانة والمهنة، وهو ما نسميه أحيانا الطبقات. ولم يُسمح بالزواج بين تلك الطبقات، بيد أنهم نظموا وحسب الاتصال مع بعضهم بدقة؛ ولم يكن هناك مجال كبير

للهندوس كي يضعوا قواعد جديدة للتعايش جنباً إلى جنب في أوساط المسلمين.

جاء المغول من المنطقة التي تعرف الآن باسم أفغانستان، وهم ورثة التقاليد المغولية العظيمة عن طريق أحفاد تيمورلنك. قاموا أولاً بغزو دلهي (Delhi) وأجرا (Agra) على السهل الهندي الشمالي في عام 1526، لكنهم تراجعوا بعد ذلك على يد غزاة منافسين من الشمال وجاؤوا للبقاء فقط في منتصف القرن السادس عشر. وقد ترك لنا الفاتح المغولي الأول لسهل شمال الهند، بابور (Babur)، سيرة ذاتية طويلة وغنية بالملاحظات، ومليئة بتفاصيل المؤامرات والروابط الأسرية بين حكام آسيا الداخلية (Inner Asia)، لكنها امتلأت أيضاً بتفاصيل سمرقند وكابول، وغيرهما من المدن، ومبانيها الجميلة ومزارعها المروية بمياهها الصيفية المتدفقة بغزارة من الجبال العظيمة، وقممها الثلجية التي تظهر في كثير من الأحيان في الأفق، وإنتاجها من الفاكهة كالبطيخ والعنب والتفاح والفواكه الأخرى التي أشار اليها «بابور» بتفصيل جميل. وقد كان مفتوناً بسهل شمال الهند، لكن من الواضح حنينه إلى وطنه كابول في قوله: «تقع معظم الأقاليم...على أرض مسطحة. وحتى العديد من المدن والأقاليم، ورغم عدم وجود مياه عذبة في أي مكان، تتميز هندوستان (Hindustan) ببعض من السحر. ولا يوجد جمال لدى شعبها، ولا علاقات اجتماعية حسنة، ولا موهبة شعرية أو فهم للشعر، أو آداب معاشرة، أو نبل، أو رجولة. ولم تتسم الفنون والحرف بأي انسجام أو تناغم. ليس هناك خيول جيدة، أو لحوم، أو عنب أو بطيخ أو غيرها من الفواكه. ولا يوجد ثلج، أو مياه باردة، أو طعام جيد أو خبز في الأسواق. ولا توجد حمامات أو مدارس [المدارس الإسلامية]» 5.

بلغت ذروة الطاقة والفاعلية لدى الحكام المغول في وقت مبكر، في عهد الإمبراطور «أكبر» (Akbar)، الذي حكم من عام 1556حتى 1605. وقد هزم الراجبوت الهندوسي (Hindu Rajput) محاربي الصحراء واستولى على حكمهم فيما يعرف الآن باسم ولاية راجستان، ومنحهم مراكز قيادية عالية في جيوشه المركزية. وبالنسبة إلى المعتقدات والممارسات الهندوسية التي اعتنقها الراجبوت، كانت الشجاعة والولاء في الحرب ممثلة للقيم الأولية، وقد استجاب الراجبوت لتعيين المغول في قيادات الجيش، ليس فقط بداعي الخدمة بإخلاص، وإنما بالسماح لبناتهم بالزواج من الأمراء المغول. كما أحضر «أكبر»

-أيضاً- العديد من المتخصصين الإيرانيين في الضرائب وحفظ السجلات لمساعدته في جهوده للسيطرة الكاملة على ثروات مملكته. وعندما شن حملة لتوثيق عائدات الضرائب المجموعة من مملكته ومراقبتها، وكّل المسؤولية لوزير هندوسي. وكان من المفترض أن تُدفَع نفقات الجيش المغولي الكبير جداً من عائدات الضرائب المركزية، لكن الحلول الوسط مع صناع القرار السياسي المحليين كانت ضرورية دائماً، وفي كثير من المناطق كان على الحكام الرضا بحجم أقل بكثير من السيطرة الكاملة.

كان المغول ورثة التقاليد التركية والمغولية ومنطقة آسيا الوسطى التي لعبت فيها المرأة أدواراً سياسية كبيرة في بعض الأحيان وأثناء انشغال أزواجهن بالحملات العسكرية أو القطعان. وفي البلاط المغولي، احتلت النساء المسنات، ولاسيما زوجات الأباطرة وأمهاتهم مراكز استشارية، ونعمن بالسلطة والاحترام. وفي عهد أكبر، خرج وفد كبير من نساء القصر بهدف الحج إلى مكة، وبقين هناك أكثر من ثلاث سنوات.

وكان لدى «أكبر» اهتمامات واسعة النطاق. ومازال بعض المباني الرائعة التي تضم بلاطه قائمة في دلهي (Delhi)، وأجرا (Agra)، وفاتح بور سيكري (Fatehpur Sikri). ويدين هذا النمط بالكثير للعمارة الإيرانية. وقد قام الحرفيون الإيطاليون ببعض أعمال الترصيع بالأحجار الكريمة. وكان الكثير من أدب البلاط الملكي باللغة الفارسية، وقد استوحى العديد من نماذج الحياة الإيرانية التي اتضحت في الرسوم المصورة التي ضمها. كما أبدى «أكبر» اهتماماً خاصاً في استماعه إلى ممثلي مختلف الديانات ومناقشة معتقداتهم كالسنة، والشيعة، والصوفية، والهندوس من كل نوع، حتى المسيحيين،.بما في ذلك المبشرون اليسوعيون من البرتغال وإيطاليا. وظهر له أن بحث العديد من نسل سادة الصوفية عن الاتحاد مع الله كان من أجل سد الفجوة المستحيلة بين الهندوسية والإسلام. وفي أواخر حياته جرَّب ديانة جديدة من تأليفه تماماً، عاداً نفسه النبي المرسل، مما أصاب المسلمين السنيين بالرعب.

وفي ظل حكم جهانجير (Jahangir) ابن «أكبر» (حكم من عام 1605إلى عام 1627)، وحفيده شاه جهان (Shah Jahan) (حكم من عام 1628 إلى عام 1658)، واصلت الإمبراطورية التوسع على جميع حدودها وعملت على ترسيخ سلطتها داخلياً. كما

جلب التقدم إلى الجنوب عدداً كبيراً من السكان بلغاتهم، ومعتقداتهم الهندوسية المختلفة، وبعض الموانئ تحت حكم المغول. وكان العديد من مناطق الإمبراطورية مراكز رئيسة لإنتاج المنسوجات القطنية والحريرية، التي تم تصديرها إلى جنوب شرق آسيا، والشرق الأوسط، وبشكل متزايد إلى أوروبا. كما ذهبت معظم عائدات الضرائب في الإمبراطورية إلى دعم جيوشها، وظلت القيادة العسكرية وإنجازاتها مفاتيح لتحقيق الثروة والسلطة. كما قام الحكام بحركة بناء على جميع المستويات ببذخ في عواصمهم ومراكز الحج الهندوسية والإسلامية؛ ففي تاج محل (Taj Mahal) بنى «شاه جيهان» ضريحاً لزوجته المفضلة ولنفسه. ومع ذلك ظل المسلمون الجادون دونما تأثر بمظاهر الجمال الدنيوي، وكانوا غير مرتاحين بشكل أكبر من مظاهر «الوثنية» الهندوسية التي رأوها في كل شيء، حولهم وغير راضين عن الانحرافات عن العقيدة الإسلامية التي اتبعتها بعض الجماعات الصوفية، والتي نتجت من التفاعل مع الهندوس. وفي نهاية عهد «شاه جيهان»، انفجرت حرب أهلية وحشية بين أبنائه الكبار. كان واحد منهم، يدعى دارا شكوه (Dara Shukoh)، وقد تحمس للأديان على نطاق واسع، ورأى ذلك التشابه بين تعاليم الصوفية والهندوسية. وكان الابن الآخر أورنجزيب (Aurangzeb)، مسلماً متزمتاً وضيق التفكير. فاز أورنجزيب، وحكم حتى عام 1707.

ألغى «أكبر» ضريبة الرأس المطلوبة من الرعايا غير المسلمين؛ لكن أورنجزيب أعادها مرة أخرى في عام 1679، مما أثار الاحتجاجات على نطاق واسع، وصرف بسخاء لبناء مساجد جديدة، كما دمرت بعض المعابد الهندوسية التي بنيت أو تم إصلاحها حديثاً. وفي غرب الهند، كانت هناك قنبلة موقوتة على وشك الانفجار تمثلت في استياء الهندوس، مثل شيفاجي (Shivaji)؛ الحاكم المحلي لشعب المرثا (Maratha)، الذي عزز نفوذه في المناطق التي لم يستطع المغول أن يفرضوا سيطرتهم عليها، فقتل جنرالاً مسلماً في عام 1657، وقدم سلاماً هشاً مع البلاط المغولي، ومن ثم أخل ببنوده وهرب من البلاط الملكي، وفي عام 1674 توج نفسه ملكاً هندوسياً مستقلاً. وقد استطاع فرسانه المهاجمون سريعو الحركة خلخلة توازن المغول، وكسبت تصريحاته التي تهاجم سياسات أورنجزيب المناهضة للهندوس الكثير من التعاطف. وتوفي في عام 1680، لكن سلطة المرثا استمرت

في النمو في عهد ابنه وغيره من القادة. وبعد عام 1700 انشقت مراكز القوة الإقليمية داخل الإمبراطورية المغولية، وخصوصاً البنغال (Bengal)، والعديد من ممالك المرثا، بعيداً عن مركز الإمبراطورية المغولية، وتعلم البريطانيون والفرنسيون كيف يصطادون في المياه العكرة للتراجع المغولي.

كان العثمانيون والصفويون والمغول أجمعهم غزاة. وبعد عام 1450 كان الجانب المحارب من العقيدة الإسلامية نابضاً بالحياة؛ ففي الإسلام يُعتبر الجهاد قيمة رئيسة، وقد يعني الجهاد الأخلاقي من أجل مجتمع أفضل أو سلامة الفرد، لكن من المؤكد أنه عنى غالباً الكفاح المسلح. ومع ذلك، ففي القرنين السادس عشر والسابع عشر، يمكننا عزو معظم التوسع الجغرافي في العالم الإسلامي إلى حركة التبادل التجاري التي قام بها التجار. وتنطبق صحة ذلك بصورة خاصة على جنوب شرق آسيا المجاور للبحر (ماليزيا وإندونيسيا الحديثة تقريباً) وفي غرب إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى. ولعل الإسلام من أكثر الديانات الكبرى قابلية للانتقال، فقد احتفظ بمبادئه القائمة على قراءة القرآن باللغة العربية، والحفاظ على تدفق الحجاج إلى وجهة مقدسة، واحترام التقاليد الأساسية العامة للشريعة، التي يلتف حولها أي تاجر، أو معلم ديني، أو خبير قانوني في أي مكان في العالم الإسلامي، وهم يعلمون جيداً ما هي القواعد. (احتفظ اليهود بلغتهم وشريعتهم، ولكن فرص عودتهم إلى القدس (Jerusalem) محدودة، كما أنهم لم يهتموا بتغيير ديانة من يعيشون بينهم؛ وكان للمسيحيين العديد من الشرائع، واللغات، والعديد من التداخلات مع سلطة الكنيسة). وعلى الرغم من تأثر أي محطة إسلامية جديدة بثقافة غير المسلمين حولها، فإن السكان المحليين، وحتى الحكام، وجدوا أن من السهل التحول إلى الإسلام، كما حرص المعلمون القادمون من الأراضي الإسلامية والحجاج العائدون من مكة المكرمة على استنهاض الهمم بشكل منتظم من أجل حياة إسلامية أكثر نقاءً.

في جنوب شرق آسيا المجاورة للبحر، جاء التجار المسلمون من الهند، وأحياناً من بلاد فارس وبلاد العرب. وعلى الساحل الشمالي لجزيرة جاوة (Java)، وحتى في جنوب فيتنام، كانت المقابر المزينة بنقوش إسلامية والتحف الأخرى بمثابة أدلة على استقرار المسلمين قبل عام 1450. وكان من بين أهم مراكز الإسلام ومحطاته الأولى في جنوب

شرق آسيا ذلك الموجود في الدولة المستقلة بميلاكا (Melaka) (كانت تهجّى سابقاً مالقة (Malacca)) في شبه جزيرة الملايو (Malay Peninsula)، وهي تواجه سومطرة عبر مضيق ميلاكا (Strait of Melaka)؛ حيث نشأت أولى محطات للتجارة جنوباً من ناحية جزيرة سومطرة (Sumatra). وكانت «ميلاكا» تتمتع بصلات قوية مع شبكة التجارة الصينية في المنطقة. ووفقاً لأحد التقاليد، كان البطل الشعبي في «ميلاكا» يتعلم تلاوة القرآن بواسطة تاجر من الهند. وقبل عام 1450 كان حكام ميلاكا من المسلمين، وقد طلبوا تقديرهم بشكل خاص باعتبارهم حماة للدين.

وصل الإسلام حتى أقصى الجزر الشرقية، بما في ذلك ميندناو (Mindanao) في الفلبين الحديثة، وذلك قبل وصول الأوروبيين هناك. وقد أسهم العداء للبرتغاليين -إلى حد كبير- في انتشاره. وبعد أن غزا البرتغاليون ميلاكا عام 1511، انتقل الحكام السابقون في جنوب الساحل إلى جوهور (Johor) بالقرب من سنغافورة الحديثة، وبحثوا عن حلفاء في سلسلة من الهجمات المضادة غير الناجحة. وكان أهم هؤلاء الحلفاء «آتشه دار السلام أو آچيه (Aceh) 6» على الطرف الشمالي من جزيرة سومطرة، التي أصبحت أكثر المدن التي انتشر فيها الإسلام ومن أقوى المدن التجارية في جنوب شرق آسيا، ووصلت إلى ذروة الازدهار في ظل الحاكم الكبير إسكندر مودا (Iskander Muda)، الذي حكم بين عامي 1607 و 1636. وكانت بانتن (Banten)، قرب الطرف الغربي لجزيرة جاوة، مدينة تجارية مسلمة أخرى منذ منتصف القرن السادس عشر حتى فتحها الهولنديون وأغلقوها في عام 1682. وفي جزيرة سولاوسي (Sulawesi)، تحول حكام مملكة ماكاسار (Makassar) إلى الإسلام في عام 1605. وهناك كما في أماكن أخرى، بحث الحكام عن حلفاء ضد البرتغاليين، وأسهم تأثير التعاليم الصوفية وشيوخ الصوفيين في تعزيز جهود التجار المسلمين.

كانت معظم الدول الواقعة شمال البحر الأبيض المتوسط تعتنق المسيحية، في حين عاش المسلمون في الدول الواقعة جنوبه وشرقه، وضمت جميع جهات البحر الأبيض المتوسط تلك المدن الكبرى التي تعتمد على التجارة البحرية والوديان الخصبة، التي قلت أو انعدمت فيها الأمطار صيفاً، مما دفع رعاة الماشية إلى البحث عن المراعي لقطعانهم في الشتاء والصيف.7 كما ازدهرت حركة التجارة على الرغم من العداء الموروث بين

هذه الدول. وقد عاش الكاثوليك الأوروبيون والبروتستانت وعملوا بالتجارة في إسطنبول بنفس الشروط مثل «أهل الكتاب» الآخرين. كما حضر التجار الإيطاليون إلى القاهرة والإسكندرية لشراء البهار والسلع الكمالية الأخرى التي وصلت عن طريق البحر الأحمر؛ وقد حدّت هجمات البرتغاليين في المحيط الهندي من هذه الحركة التجارية بعد عام 1498، لكنها ما لبثت أن انتعشت بعد فترة قصيرة.

نشبت هناك الكثير من الصراعات الحامية الوطيس. وقام النظام الملكي الإسباني بعدة محاولات لإقامة قاعدة بحرية محصنة على الجهة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، دون أن تنجز أي منها الكثير، باستثناء استنفاد الميزانيات الإسبانية وتصاعد مظالم المسلمين. وأصبحت «القرصنة»، ومهاجمة السفن في عرض البحر، والاستيلاء على بضائعها، وأخذ أطقمها أسرى من أكثر صور الانتقام والثأر تكراراً. وقد يدفع الأسرى الفدية ثمناً لحريتهم في حال حظوا بأقارب أغنياء؛ في حين يستعبد الآخرون، فيعمل الرجال بتحريك مجاديف السفينة، وتخدم النساء في المنازل أو يضممن إلى الحريم. وقد اعتبر المسيحيون الأوروبيون هذه الإغارات مثالاً رئيساً لوحشية المسلمين مع النظر إلى الجزائر بوصفها مركزاً كبيراً للإغارة والجهود الأوروبية لتحرير العبيد. ومع أواخر القرن السابع عشر كان الزعماء المحليون في الجزائر قد خفضوا السيطرة العثمانية إلى مجرد وجود شكلي وأثري، وكان النظام الملكي الفرنسي الحازم يهاجم الجزائر بانتظام. واستهدف أول مشروع أجنبي للولايات المتحدة الجديدة «القراصنة البربر» على «شواطئ طرابلس». لكن الأوروبيين أخذوا الرهائن أيضاً واستعبدوهم وطالبوا بفدية. وبالقرب من قصر دوجي الكبير (Doge's Palace) في مدينة البندقية (Venice) تقع «ريفا ديلي سكيافوني Riva degli Schiavoni»؛ «مرسى العبيد»، حيث هبط العديد منهم.

عزز المسلمون وجودهم على الطرق التجارية بامتداد الجهة الجنوبية من الصحراء لفترة طويلة قبل عام 1450. وقد تجول بعض التجار على طول نهر النيجر (Niger River)، وصولاً إلى حقول الذهب في الأشانتي (Asante) شمال غانا الحديثة، وحملت طرق القوافل الذهب وغيره من البضائع عبر الصحراء إلى الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط. وقد أدى الملك مانسا موسى (Mansa Musa) ملك مالي فريضة الحج إلى مكة

المكرمة في عام 1325، منبهراً بالشعب المتحضر الثري في القاهرة مع موكبه الرائع وتوزيعه السخي للذهب. وبعد عام 1468، ظهرت تمبكتو (Timbuktu) في النيجر في ظل حكم مملكة سونغي (Songhay) كمركز كبير للتجارة والتعليم الإسلامي.

وفي عامي 1496 و 1497 خرج الملك أسكيا محمد (Askia Muhammad) ملك سونغي حاجاً إلى مكة المكرمة. وكانت مملكة بورنو (Borno) المسلمة في ذروة قوتها التجارية والعسكرية أوائل القرن السابع عشر. ومع ذلك، برزت حينئذ آثار وجود البرتغاليين على امتداد السواحل. وفي ذلك الوقت، شُحن بعض الذهب بحراً إلى الجنوب من قلعة أشانتي إلى قلعة المينا (Elmina Castle) البرتغالية. ويبدو أن الحرب التي اشتعلت نتيجة الهجمات البرتغالية في المغرب قد أسهمت في غزو مغربي عبر الصحراء في عام 1591، وزعزعت استقرار المنطقة على امتداد دولة النيجر لسنوات عديدة.

وفي أماكن أخرى، نزع الناس إلى تجنب الاتصال بالعادات والمعتقدات غير المسلمة، ليحظوا بأجواء إسلامية صرفة، وعاشوا في مجتمعات منفصلة، وكثيراً ما كانت مراكز للتجارة نتيجة لوجود صلات تقوم على الثقة ومبادئ الشريعة الاسلامية التي تجمع المسلمين. وفي منطقة السنغال (Senegal) الحديثة، أحياناً قبل عام 1650، رفض أتباع المعلم سليمو سوار (Salimu Sware) صراحة عقيدة المحارب الإسلامي، مصرين على أن الجهاد والكفاح، لا يعنيان سوى جهاد النفس. وعقب التدهور والعنف الذي بدأ زهاء عام 1600، أخفى العلماء في تمبكتو والمناطق المحيطة بها المخطوطات الإسلامية أو أظهروها فقط لدوائر مختارة من الطلاب. وبعد أربعة قرون، كان هناك جهد دولي جار لإيجادها، وفهرستها، والحفاظ عليها.

ومن هذا المنطلق استطاع الإسلام- بمبادئه القائمة على التسامح مع «أهل الكتاب» واستراتيجياته المنبثقة من عقيدة التعايش مع الشعوب الأخرى، والحفاظ على نقائه ومبادئه، فإنه ربط الشعوب من السنغال إلى صربيا إلى ميلاكا. ولكن بحلول عام 1700 تبنى العالم الإسلامي الموقف الدفاعي وقيد انفتاحه على الأفكار الواردة من الخارج، في مواجهة العدوان الأوروبي من البلقان إلى الهند وجزر البهار، مما افقد شبكة اتصاله بدول آسيا حصتها في السوق لصالح شبكات الاتصالات التي أنشأتها دول أوروبا عبر البحر.

الفصل الثاني

مقايضات كولومبوس
1490م – 1530م

«اليابسة، اليابسة».. بتلك الصيحات التي أطلقها طاقم السفن المبحرة غرباً طوال سبعة وثلاثين يوماً نحو المجهول، تبدد القلق الذي استحوذ عليهم ليحل مكانه –لوهلة– شعور بالارتياح ما إن شاهدوا بعض فروع الأشجار وغيرها من العلامات التي تنبئ بوجود شاطئ قريب. وفي ليلة الحادي عشر من شهر أكتوبر، حسبوا أنهم قد لمحوا نيراناً متأججة في الأفق. وما إن رست السفن الثلاث على الشاطئ المنخفض ذي الشجيرات، حتى تجمع السكان المحليون لرؤيتهم. وبما أن مواجهاتهم العدائية مع الأفارقة جعلتهم ينزعون إلى وصم أصحاب البشرة السمراء العارية بالهمجية، لم يتردد الأوروبيون في النزول إلى الشاطئ وإعلان سيادة ملك إسبانيا وملكته، فيرديناند وإزابيلا – Ferdinand & Isabella of Spain. على هذه البقعة.

كان يوم 12 أكتوبر 1492، أحد أشهر أيام التاريخ وأكثرها إثارة للجدل. إنه ما يعرف بيوم «اكتشاف كولومبوس لأمريكا». غير أن القبائل المقيمة على الشاطئ، والسكان المحليين في أقصى الأمريكتين إلى أدناها كانوا يدركون تماماً موقعهم، كما عرفوا الدول المجاورة لهم، ولم تكن لديهم أدنى حاجة إلى أن يكتشفهم أحد. على الطرف الآخر لم يساور الشك كولومبوس وربابنة سفنه وبحارتها في أن الـ«اكتشاف» هي الكلمة المناسبة؛ فقد وجدوا شيئاً جديداً، لكنهم لم يدركوا ماهيته. وفي محاولتهم تبرير دوافعهم وراء هذا الاكتشاف، عزوا الأمر إلى رغبتهم في نشر العقيدة المسيحية، ونصوص الإنجيل، والنصوص اليونانية واللاتينية القديمة، وما قد يعود عليهم من مكاسب تجارية كان لها قيمتها في تلك الأزمان: وتتمثل في تجارة التوابل الثمينة المجلوبة من جزر جنوب شرق آسيا، والذهب من منطقة غرب إفريقيا الاستوائية، وإنشاء العلاقات التجارية مع قوة الصين والاستفادة من ثرواتها. بنى كولومبوس آماله على أن يكون قريباً من جزر البهار

والثروات الأخرى في منطقة المحيط الهندي، وسمى هذه الجزر «الهند» Indies (ومازلنا نسميها جزر الهند الغربية)، وسمى سكانها الأصليين «الهنود». ولو أنه سعى لنيل موافقة الحكام الأقوياء ليتداول التجارة مع شعوبهم أو حتى الإذن برسو سفنه على شواطئهم، كما فعل البرتغاليون في غرب إفريقيا، فلربما حظي بمنصب تجاري تحت سلطة حاكم محلي.

لكن سكان «تاينو» لم يكن لديهم التنظيم السياسي المركزي، أو السلاح اللازم للمقاومة على مدى طويل. ففي الجزيرة الأطول التي تستعمرها الآن «هايتي» و«جمهورية الدومنيكان»، ما لبث كولومبوس أن أسس مدينة إسبانية صغيرة، وبدأ في معاملة أهل «تاينو» وفق أنهم رعايا التاج الإسباني. لكن محاولاته لفرض ضريبة على الذهب لم تسفر عن نتائج تذكر، فاستعبد بعض أسرى المعارك الصغيرة، وبدأ يفكر في تجارة العبيد، كما في إفريقيا، بوصفها مصدراً للربح.

وعلى الرغم من تدين كولومبوس الشديد، وتأييده تجارة العبيد، فإنه أصيب بالذهول من سلوك المستعمرين الإسبان؛ الذين كان العديد منهم مُدانين سابقاً، فقد توقعوا عيش حياتهم اعتماداً على نهب قبائل التاينو وابتزازها، وغالباً ما أظهروا تحديهم لقادة المستعمرة. وبوفاة كولومبوس عام 1506، انخرط الإسبان في تشييد الكثير من المدن، كما أتى العديد من المستوطنين. وفي ذلك الوقت أوشكت مستعمرته الصغيرة على الانهيار التام؛ نتيجة ما وقع من مذابح بين الطرفين حتى أصبح تاريخ مغامرة كولومبوس المذهلة على شفا الاندثار، وانضم الناجون في إثرها إلى السكان المحليين.

لكنها لم تندثر، فقد اعتبر وصول كولومبوس بداية تحول ضخم وكارثة هائلة تعرض إليها سكان الأمريكتين الأصليين. ولم تكن هذه الكارثة نتيجة ضغائن الإسبان أو أحقادهم فحسب، رغم أطماعهم الكبيرة، وسعيهم إلى صيد العبيد، وما اقترفوه من حملات الإبادة الجماعية المتعمدة. من جهة أخرى، جادت الطبيعة على سكان الأمريكتين الأصليين بقطعان الخنازير الأوروبية والماشية البرية، مما يسر حصولهم على اللحم بصورة أوفر مما كانت عليه الحال في السابق، ولكن، في الوقت نفسه، تركت هذه الحيوانات مخلفاتها في الكثير من حدائقهم. لقد درس الأوروبيون زراعة محاصيل الغذاء

الأساسية مثل: البطاطس والطماطم، والبطاطا، والفلفل الحار، والذرة؛ وتعلموا زراعة محصول غير غذائي وجذاب أي التبغ أيضاً، كما قاموا بنقل معرفتهم تلك إلى أنحاء العالم. وظهرت أشكال أخرى من التبادل فيما بعدُ كتبادل الفضة والدين وتبادل الخيول كما هي الحال في تكساس Texas، علاوة على امتزاج الأجناس بفضل الاستيطان، بحيث امتزجت جيناتهم بجينات السكان المحليين وثقافتهم أيضاً.

وعن الأمراض التي جاء بها الأوروبيون، وبخاصة الحصبة والجدري، فقد حملت أكبر دمار للأمريكتين؛ فلم يستطع المحليون مقاومتها، وكان ذلك نتيجة التبادل الكولومبي للكائنات البيولوجية، التي تطورت في مختلف الجوانب خلال عشرين ألف سنة أو أكثر، عندما لم يكن هناك سوى اتصال طفيف بين أوراسيا والأمريكتين. ومع بداية عام 1520 تقريباً في المكسيك، وُجدت أقاويل لشهود عيان حول موت الآلاف بسبب الجدري. أما في الجزر، فمن الصعب تصنيف حالات الموت ما إذا كانت بسبب آثار الأوبئة أو الإجهاد من العمل أو المذابح الجماعية المتعمدة. لقد تلاشى السكان المحليون لجزر البهاما Bahamas، في حين هلك سكان كوبا Cuba الأصليون. فجرت الاستنكارات القوية لشبه محرقة كوبا، التي قام بها الواعظ الدومينيكي بارتولوم دو لاس كاساس Bartolome de Las Casas في المدينة، ثم في المحكمة الملكية بإسبانيا– وظهرت مناقشات معقدة وبداية كفاح طويل لتشكيل السياسات التي سوف تُسَكِّن الضمائر وتُنَوِّمها، وفي الوقت نفسه، ستحافظ على استكمال الغزو. وهكذا، مر عقد بعد الآخر حتى القرن التاسع عشر؛ حين وصلت الأوبئة إلى مجموعات السكان المحليين الجديدة المنعزلة، التي ليس لديها مناعة، وبدأت حلقة الرعب مرة أخرى. وفي أول قرن من الاختلاط تناقص عدد سكان الأمريكتين ليصبح أقل من عهد ما قبل الاختلاط بنسبة 10 بالمائة، وربما وصل إلى نسبة 3 بالمائة.

لم تضع مشاكل كولومبوس التي واجهها في الجزر حدّاً لاكتشافاته، ففي رحلته الثالثة من عام 1498 حتى 1500 أدرك كولومبوس أن الماء العذب الموجود بعيداً عن مصب نهر أورينوكو Orinoco River لا بد أنه يأتي من نهر كبير أعلى مرتفعات اليابسة: «أعتقد أن هذه القارة عظيمة جدّاً حتى تظل غير معروفة إلى الآن.. ويؤيد كلامي هذا أقاويل الكثير

من هنود الكاريب Carib Indians التي سمعتها في السابق والتي كانت تفيد بوجود بر رئيسي في الجنوب، يوجد تحته ذهب كثير». وفي رحلته الرابعة وصل إلى ساحل أمريكا الوسطى، ووجد هناك قارة، لكنها لم تكن قارة آسيا. وفي عام 1517 بعدما هدأت مراحل غزو كوبا، وصلت بعثة استكشافية لشبه جزيرة يوكاتان Yucatan Peninsula، ودهش المستكشفون حين رأوا المباني الحجرية الضخمة، والمحاربين في دروعهم المبطنة بالقطن، مرتدين حُلى ذهبية. كان هؤلاء هم شعب المايا Maya، فلم يعد همهم بناء الأهرامات الضخمة، ولكن أصبحت مهمتهم هي الحفاظ على جزء كبير من أقدم حضارات الأمريكتين وأرقاها.

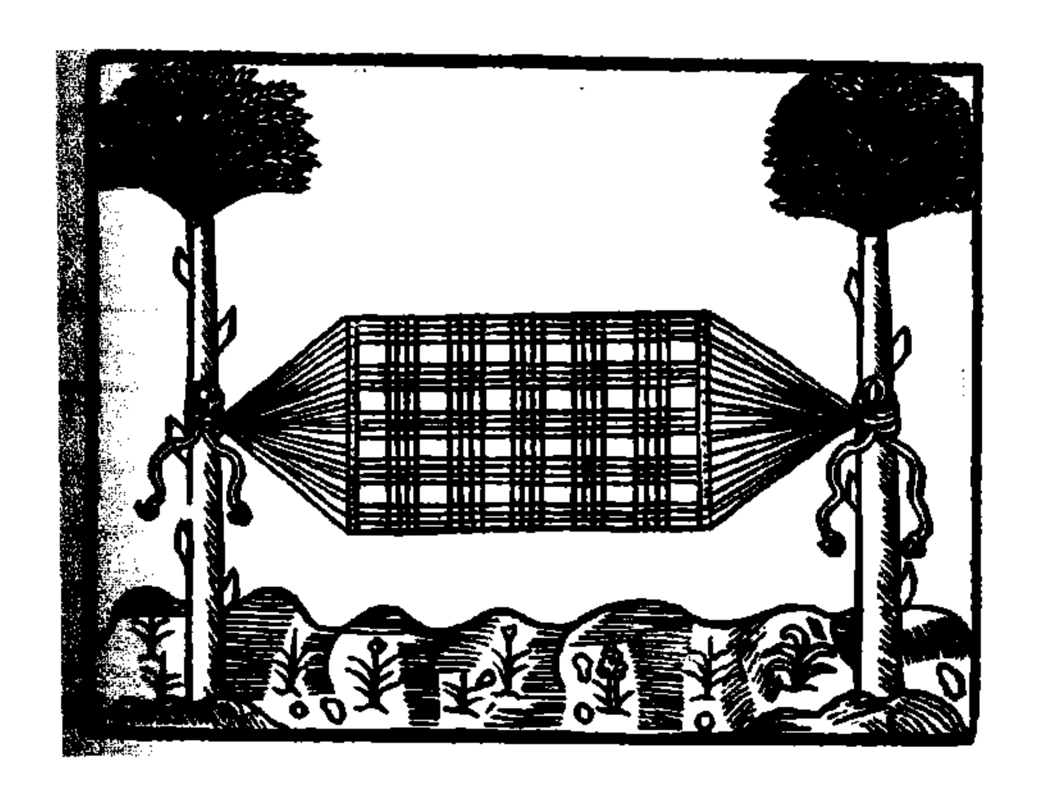
لم يهتم الإسبان بدراسة الحضارات الأخرى، لكنهم اعتقدوا أن تلك الأعمال الحجرية ترمز إلى إمبراطورية ثرية في مكان ما داخل هذا المكان. وعلى كل، فقد رأوا الذهب. وعند لقائهم الأول بمحاربي المايا، اعتقدوا أنه على الرغم من أنهم يبدون خطيرين وغريبين، فلن تكون لديهم أي فرصة إذا واجهوا بضع مئات من المحاربين الإسبان بدروعهم المعدنية وأسلحتهم النارية وخيولهم.

استمر الاختلاط بين الإسبان وشعب المايا، وكان أول حدث جوهري مهم على الأراضي الأمريكية هو تقابل الإسبان والأزتك Aztecs في الفترة بين 1519 و1521؛ فتلك كانت أعظم قصة في تاريخ البشرية عن التقاء مجموعتين لا ترى إحداهما الأخرى سوى ككائن غريب العقلية. هاب الإسبان حجم عاصمة الأزتك العظيمة تينوتشتيلتان Tenochtitlan وجمالها، وهي التي تحل مكسيكو سيتي Mexico City محلها اليوم، كما أنهم ارتعدوا من فكرة التضحيات البشرية التي آمن الأزتك بضرورتها، لتظل الشمس تدور دورتها اليومية عبر السماء. أما بالنسبة إلى الأزتك، فقد نظروا إلى السفن الإسبانية أنها جبال غريبة تسير على سطح البحر، وعدوا خيولهم نوعاً من الغزلان الغريبة الشكل، ودروعهم الحديدية أشياء خارقة للطبيعة لا يمكن اختراقها بواسطة أسهم الأزتك، وعدوا أسلحتهم النارية وحتى أقواسهم أسلحة مميتة عن بُعد. ربما لم ينظر الأزتك إلى الإسبان وفق أنهم آلهة كما تقول بعض النصوص القديمة، لكنهم اعتبروهم مصدر تهديد لهم، وأشخاصاً غامضين.

لقد كان شعب الأزتك آخر سلسلة الشعوب العظيمة وبناة المعابد في وادي المكسيك، وعندما شرعوا في السيطرة على المنطقة في منتصف القرن الخامس عشر، قاموا بإضافة رمز الطائر الطنان ليكون إلهاً جديداً ضمن آلهتهم القدامى، وقد عبده أفراد آخرون في الوادي. وكان الأزتك يقدمون أسرى الحروب فضلاً عن حروبهم الصغيرة مع حلفائهم المجاورين، كقرابين لآلهتهم على الأهرامات الضخمة.

كما كان ظهور هيرنان كورتيز Hernan Cortes وشهرته أحد نتائج إعادة غزو المسيحيين لإسبانيا بعد المسلمين، وسلبهم جزر الإنديز الغربية the West Indies، فقد كان مرتجلاً ذكياً لامعاً، وقائداً قاسياً عنيفاً. وعندما نزلت قواته التي تتضمن ستمائة رجل بالقرب من بلدة فيرا كروز الجديدة Vera Cruz في إبريل عام1519، قام كورتيز بتأسيس مجلس بلدية كما فعل غالباً في المناطق التي استولى عليها من المسلمين في إسبانيا؛ كي يعزز سلطته المستقلة. وسرعان ما شعر كورتيز بأن الاستياء من قوة الأزتك وإمبراطوريتهم سوف يساعده في الحصول على الكثير من الحلفاء من السكان الأمريكيين الأصليين. وفي أغسطس، خاض رجاله معارك صغيرة مع شعب تلاكسكالا Tlaxcala الذين انضموا فيما بعد إلى صفوفه. وبينما استمر تقدمه داخل أراضي الأزتك، سعى رجالهم إلى مقاومته، لكنهم اكتشفوا أنهم لا يستطيعون فعل أي شيء في مواجهة الدروع الحديدية والأسلحة النارية والرماحين الذين يمتطون الخيول. وهكذا عندما وصل كورتيز ورجاله إلى تينوتشتيتلان في نوفمبر من هذا العام، قام بمقابلة زعيم الأزتك موكتيزوما Moctezuma الذي كان على أتم استعداد لمعاملتهم كضيوف خطرين، وأمر بأن يقدَّم إليهم الطعام والمأوى؛ إذ لم يكن مستعداً لدخول معركة في أرض مكشوفة؛ فلو استطاع حشد أكثر من عشرة آلاف رجل ليواجهوا رجال كورتيز الستمائة، أو إذا قتل رجاله كل محارب إسباني، فعندها سوف يقتل الكثير من رجال الأزتك Aztec مما سيؤدي إلى انهيار سلطته، وسوف يمهد ذلك الطريق لأعدائه كي يشنوا الهجمات.

عندما وصلت دفعة جديدة من السفن والجنود الإسبان إلى فيرا كروز في إبريل عام1520، كان يبدو أنهم أرسلوا لإعادة كورتيز تحت السيطرة، ولكن عندها قام كورتيز باعتقال موكتيزوما في عاصمته، ثم خرج في مسيرة إلى الساحل، وأقنع الكتيبة الجديدة



نشر التاريخ الإسباني لجزر الإنديز الغربية *West Indies* عام 1535، ووُجد فيه شكل الأرجوحة الشبكية التي لم يعرفها الأوروبيون قبل مجيئهم لجزر الكاريبي وأمريكا الجنوبية. وكان التعليق على هذا النص يقول: «إنه سرير جيد ونظيف» *(Son buenas camasy limpias)* مكتبة الكونجرس *(Library of Congress)*.

بأنه مسيطر على الموقف، وهكذا انضمت الكتيبة الجديدة إلى قواته العسكرية. عندئذ حاول الأزتك نصب فخ لهذه القوة الضخمة بعدما سمحوا لها بالدخول، ولكن في «ليلة الحزن «the Noche Triste – نهايةَ شهر يونيو– حارب الجيش الإسباني ليخرج من بلدة الأزتك، وعادوا إلى الساحل وقتلوا موكتيزوما. وهكذا انضم إلى الإسبان حلفاء آخرون من الأمريكيين الأصليين، ولاسيما من شعب تيكسكوكو Texcoco، ومع ازدياد الأعداد وتفوقها في التكنولوجيا العسكرية خاضوا حرباً لاستكمال نصرهم واحتلالهم لتينوتشتيتلان في أغسطس 1521. وقام الإسبان بهدم القصور والأهرامات العريقة ليقيموا أساسات مدينة إسبانيا، التي أصبحت اليوم ميكسيكو سيتيMexico City.

فيما بعد كتب أحد جنود كورتيز، يُدعى بيرنيل دياز ديل كاستيلو Bernel Diaz del

Castillo، قائلاً:

«عندما شهدنا تشييد العديد من المدن والقرى في الماء، وبناء مدن عظيمة أخرى على اليابسة، كنا مبهورين».

ويقول كذلك: «إن ذلك كان يشبه السحر الذي ذكر في أساطير الأماديس Legend of Amadis وهي قصص عن الفروسية كانت مشهورة للغاية آنذاك، وذلك يرجع إلى بنائهم الأبراج الكبيرة والمباني التي تنبثق من الماء. كل هذه العجائب التي شاهدتها آنذاك حُطمت وضاعت اليوم، ولم يبقَ منها شيء».

لم يتخاذل الجنود الإسبان الآخرون عن أن يحذوا حذو كورتيز، فقد قام فرانشيسكو بيزارو Francisco Pizarro باستكشاف ساحل المحيط الهادئ في جنوب بنما، وعاد إلى إسبانيا ومعه الدليل على وجود مملكة ثرية هناك؛ كما أنه حصل على موافقة الملك بأنه سوف يحكم أي مكان يحتله، وانضم إليه العديد من إخوته مثل المنظم البارع الذي يُدعى دييجو دي ألماجرو Diego de Almagro. عندما نزل بيزارو على ساحل بيرو الحديثة modern Peru عام 1532 خرج في مسيرة إلى الجبال ومعه أقل من مائتي رجل.

أما عن إمبراطورية الإنكا the Inca Empire، التي قام بيزارو بغزوها، فقد ازدهرت بعد مائتي عام من الغزو وكانت آخر إمبراطوريات الإنديز الفريدة في بيئتها واقتصادها. فقد كان لها مصدر غذائي عالي القيمة، وأفضل من أي مصدر آخر في العالم؛ حيث مثلت هذه المنطقة موطناً للبطاطس، التي تعد أعظم هدية منحتها أمريكا إلى أوراسيا في عصر التبادل التجاري الكولومبي. كما أنتج السكان الأصليون الكثير من مختلف أشكال الخضراوات، وتقنيات تجفيفها عن طريق تجميدها في الهواء البارد، وهكذا يستطيعون توفير مورد غذائي يُعتمد عليه على مدار العام. من ناحية أخرى كان لشعب الأنديان Andean موارد أخرى مثل: أصواف حيوانات اللاما، والألبكة الناعمة الفاخرة، ومحاصيل الغذاء المنخفضة الجودة، حتى سمك الساحل المالح والمجفف. وأمنت المجتمعات المحلية نفسها من مخزون هذه السلع عن طريق إرسال أفراد للعمل والعيش في كل منطقة، بداية من البحر حتى أعالي الجبال.

تعلمت النخبة الحاكمة كيفية تحويل هذا النظام لمصلحتها الخاصة؛ حين طالبت كل

مجتمع بإرسال أفراده للعمل من أجلهم، وفي الوقت نفسه كانت تقتفي أثر السلع والأفراد من خلال نظام الكويبو Quipu وهو عبارة عن خيوط معقودة يتم من خلالها تسجيل أعداد المؤن بعد أن يتم جمعها، أو عدد الأفراد الموجودين بمجموعة العمل. وقام الإنكا بالتوسع في الأعمال الخاصة بالإمبراطوريات القديمة، وعندها امتد حكمهم لمناطق أبعد، فمهدوا طرقاً من القوالب الحجرية، وأقاموا حاميات عسكرية في مخافر الحصون؛ مما تطلب ترك العمال لبيوتهم لأيام طويلة من أجل إنجاز هذه الأعمال. ولم يكن هذا بالشيء الجليل في مواجهة ما تحمله الناس من رعب عندما كانوا يُضطرون إلى تقديم الأسرى للأزتك كقرابين، لكنهم أبغضوا مثل هذه الأفعال؛ لذلك فضل بعض الناس البقاء محايدين، في حين انضم بعضهم الآخر إلى الإسبان.

واعتاد الرعية أن يكونوا جزءاً من إمبراطورية؛ فقد ساعدت عادة إخضاعهم لسلطة مركزية ونظام طرق وحاميات عسكرية في توسع الإسبان وانتشارهم. ومازلنا إلى يومنا هذا نشهد عظمة الأعمال الحجرية لمعابد الشمس وأسلاف الإنكا في كوزكو Cuzco بيرو Peru التي كانت تمثل عاصمة الإنكا. أما المقدار الأكبر من الأعمال الذهبية والفضية والنحاسية الرائعة التي زينت زخارفها المعابد والقصور التي أبهرت الإسبان طويلاً، فقد اختفت منذ زمن.

تقدم بيزارو جيشه الضئيل داخل المدينة. وبطريقة ما، استطاع ترتيب لقاء شخصي مع زعيم الإنكا أتاهوالبا Atahualpa في ساحة المدينة، وعندها استخدم الجنود الإسبان أسلحتهم النارية في نصب فخ مدمر؛ حيث قتلوا عدة آلاف من جنود الإنكا واعتقلوا أتاهوالبا الذي حاول شراء حريته من آسريه الطماعين عن طريق إعطائهم ذهباً يكفي لملء الغرفة التي كان يقف فيها من الأرض حتى أذرعه الممدودة إلى أعلى، وملأ الغرفتين المجاورتين بالفضة بالطريقة نفسها. وافق بيزارو وقدم الإنكا له الذهب والفضة، لكن بيزارو قتل أتاهولبا بعدها. وهكذا، فسرعان ما تسلم الإسبان الإمبراطورية، ولكن تشكلت مقاومة من1536 قوى عسكرية بقيادة أخ الزعيم المقتول، واستطاعت بصعوبة طردهم خارج المدينة.

وبحلول منتصف الأربعينيات من القرن السادس عشر، امتدت سلطة الإسبان من

الإكوادور الحديثة modern Ecuador حتى وسط تشيلي central Chile، ولكن كيف كانت سلطة الإسبان؟ لقد تجاهل بيزارو بيدرو دي ألماجرو عند تقسيم الغنائم، وعندها تمرد عليه ألماجرو فتم قتله، ثم قام ابن ألماجرو باغتيال بيزارو؛ وحينئذ حاول أخو فرانشيسكو بيزارو تسلم السلطة، ولكن كان الجانبان متعبين من القتال. وبحلول عام1548 قام المحامون والمسؤولون الذين أرسلوا من إسبانيا بالسيطرة على الموقف.

وفي عام 1580 أو1600 كان لمثل هذه الملاحم من الطمع والمذابح والشقاء نتائج مفاجئة؛ حيث عاش عدد لا بأس به من الجنود الإسبان حياة مريحة ضمن أملاكهم في المستعمرات، في حين عاد آخرون بثرواتهم إلى إسبانيا. أما عن المستعمرين الكبار فلم يستغلوا غنائمهم لتأسيس سلطة مستقلة. وفي جبال الانديز Andes قامت عائلة بيزارو وأعداؤهم بالقضاء على بعضهم بصورة نهائية.

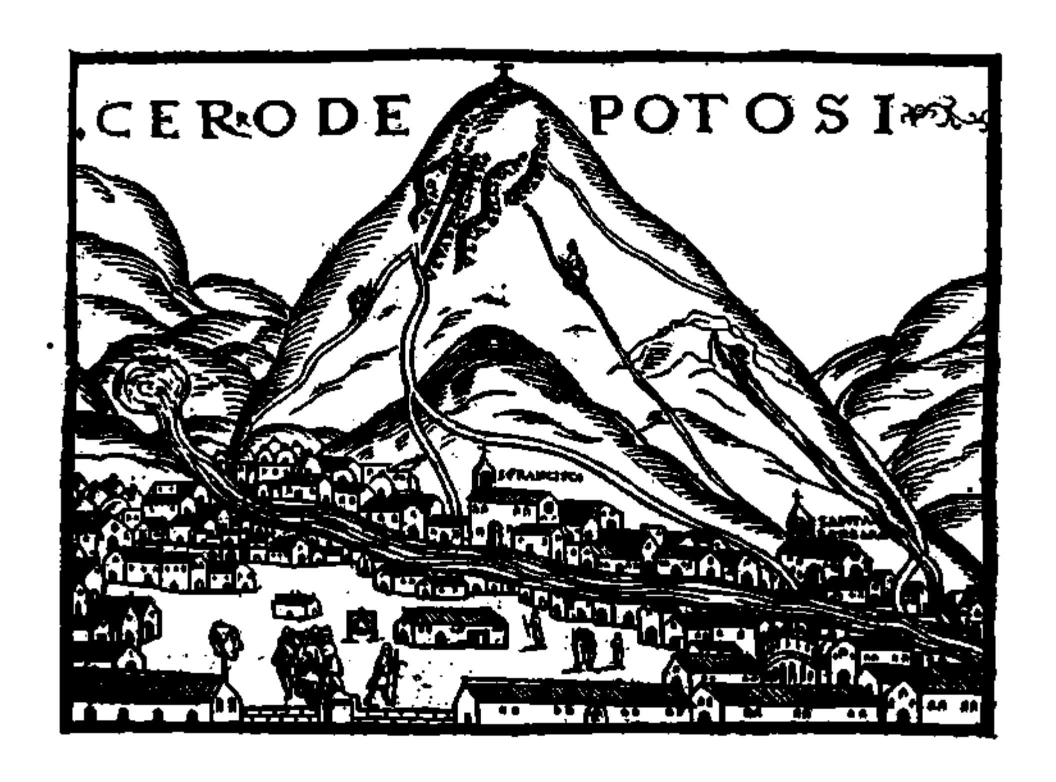
ومن ناحية أخرى عاد كورتيز إلى إسبانيا، وحصل على الدعم الملكي ضد أعدائه، لكنه قرر الاكتفاء بممتلكاته الشاسعة من الأراضي وسلطته السياسية المحدودة. أصبحت ميكسيكو سيتي وليما موطن الصفوة، الذين عادة ما يكونون من صفوة نبلاء إسبانيا ممن عاشوا في بذخ مهول، وامتلكوا سلطات إدارية واسعة. ولأهمية وجود استقرار أكبر لسيطرة إسبانيا على تلك الممالك الشاسعة، شرعوا في الفترة من 1513 وما بعدها، في تشييد مدن ميكسيكو سيتي Mexico City وليما Lima وتسع عواصم إقليمية. أما الأودينكياس Audiencias فهي محاكم قضائية اتخذت مهام إدارية كبيرة تدريجيّاً، وفي أغلب الوقت كانت ترسل قضاة منفردين في جولات تفتيشية وجولات مقاضاة في مناطق منعزلة. كان القضاة من المحامين الذين تدربوا في الجامعات بإسبانيا، وكانوا يأخذون من وقتهم ليبذلوه في مواجهة الضغوط المحلية، لكنهم أسسوا تدريجيّاً هياكل سلطوية ليستطيع السكان المحليون الاحتكام إليها في حل نزاعاتهم بعضهم ضد بعض. لقد كان من النادر حدوث أعمال عنف واسعة النطاق في المناطق الخاضعة لحكم الإسبان وإدارتهم في الفترة بين 1550 و1700.

حصل ملوك إسبانيا على ما أرادوه من الأمريكيين وهو كميات مهولة من الفضة، وكميات أصغر من الذهب لتعزيز مجهوداتهم في السيطرة على سياسات أوروبا والقضاء

على الخطر البروتستانتي. وكان من أبرز المناجم «جبل الفضة «mountain of Silver الذي كان في بوتوسي Potosi في بوليفيا الحديثة modern Bolivia ؛ حيث كانت تتدفق منه بحلول عام 1600 كميات من الفضة لم يسبق لها مثيل، ولكن ظهرت مناجم في مرتفعات المكسيك لتتساوى في النهاية مع إنتاج مناجم بوتوسي، بل لتتفوق عليها أيضاً. إن التضخم المالي العام الذي صاحب النمو التجاري وسبَّب مشكلة في الاقتصاد الحكومي لأوروبا في أواخر القرن السادس عشر- نتج بصورة ما عن تدفق الفضة، وتحسن أنظمة الائتمان والأنظمة المصرفية. أصبح تدفق الفضة أقل ثباتاً وفاعلية في منتصف القرن السابع عشر. وتدفقت كميات كبيرة نسبيّاً من الفضة عبر أوروبا إلى آسيا وبخاصة الصين من أجل شراء الحرير والدهان والخزف الصيني، في حين جمع ملوك إسبانيا ضريبة قدرها خُمس الفضة المستخرجة من مناجم ممالكهم الأمريكية.

ربما يكون تدفق الفضة سبباً في عرقلة استجابة إسبانيا للتغييرات التي حدثت آنذاك؛ فقد جعلت الحكام يشعرون أنهم ليسوا في حاجة إلى جعل حكوماتهم أكثر كفاءة، أو جعل اقتصادهم أكثر إنتاجية، وهم قادرون على شق طريقهم عن طريق دفع الكثير للحصول على جيوش هائلة، وتقديم رشوة للحكام والنبلاء. من ناحية أخرى أخفقت كل مساعي إسبانيا ومحاولاتها غزو إنجلترا عام 1588، وقمع التمرد في هولندا، ومساعدة حكام الكاثوليك ضد البروتستانت في ألمانيا في الفترة ما بين الثمانينيات من القرن السادس عشر حتى 1648. أما عن الفضة التي وصلت إلى أيدي الجنود الإسبان، فقد ذهب معظمها إلى مكان آخر في أوروبا أو آسيا لدفع تكاليف السلع الفاخرة المصدرة، وساعدت بصورة ضئيلة في الزراعة الإسبانية أو المنتجات الحرفية. وبحلول عام 1650 أصبحت إسبانيا رجل أوروبا العليل؛ فقد أصبحت حكومتها ضعيفة وفقيرة، وابتُليت باللصوص.

وفي الأمريكتين، كانت هناك عدة اختلافات إقليمية بين الفتح الإسباني والمقاومة المحلية. أما في جنوب ما يعرف الآن باسم شيلي Chile، فاستطاع الشعب الأراوكاني Araucanian هزيمة تلك الفتوحات الإسبانية مرة تلو أخرى، ومن ثم نجح في الحفاظ على استقلاله حتى بداية القرن التاسع عشر.



«قطع الرجال مسالكهم عبر الطرق المرتفعة الشديدة الانحدار، أعلى الجبل الغني بالفضة، الذي تلوح من أعلاه الكنائس، ومعامل تكرير بوتوسي *Potosi* للفضة. وقد كان تدفق الفضة عبر هذه المناطق المرتفعة ومن المكسيك فيما بعد هو ما ربط بين آسيا وأوروبا وإفريقيا والأمريكتين. مكتبة ليلي، جامعة إنديانا- بلومنجتون».

وعلى الحدود الشمالية للإمبراطورية الإسبانية، ثارت شعوب بويبلو Pueblo التي كانت تسكن ما يعرف الآن باسم نيو ميكسيكو New Mexico، وقامت بطرد الإسبان عام 1680، غير أن الغزاة عادوا مرة أخرى في بداية القرن الثامن عشر. في المناطق الرئيسية التي أقيمت فيها الهياكل الكاملة للشعوب- الإنديز ومنطقة المكسيك المرتفعة the Andes and highland Mexico- تسببت الأمراض والتمزق السياسي وأعمال السلب والنهب في فتح المجال أمام درجة قليلة ومنخفضة من حالة السلم والراحة. وقد كان السكان الأصليون يتمتعون بمواريث تقليدية للمناصب والخدمة وتوزيع البضائع التي لم يكن من الممكن جمعها معاً مرة أخرى بعد انتشار الأوبئة والتخلص من شعوب الأزتك Aztec الأسمى وحكام الإنكا Inca Rulers. اعترف الإسبان بالرؤساء المحليين الذين بدؤوا

في اتخاذ نفس طريقة الحياة الخاصة بملاك الأراضي الصغار من الإسبان، التي تضمنت استخدام لقب «دون Don» قبل الاسم.

وكان يمكن للمستوطنين الإسبان أن يحصلوا من الملك على منح أراض وحقوق للعمال الذين كانت لهم أصول أمريكية. ولم تكن هذه المنح قابلة للتوريث من الناحية الفنية، بيد أنها كانت تشكل مع أملاك الكبار من الرؤساء أسس عالم الملكيات المكسيكية «هاسييندا Hacienda»، التي غالباً ما كانت تتمثل في مزارع الماشية. وبالإضافة إلى مبالغ الإيجارات والخدمات التي يدين بها القرويون للرؤساء وملاك الأراضي، رفعت الدولة بعض الدعاوى على العاملين، وبخاصة في الإنديز Andes حيث كان يتمثل نمط عمل الإنكا القدامى Old Inca الذي كان يتم خارج المستعمرات السكانية في أعباء ثقيلة من العمل الجبري، تسمى ميتا mita وبخاصة في مناجم بوتوسي Potosi وهي بوليفيا Bolivia حالياً. أما في المدن ومناجم المكسيك والإنديز Andes بصورة كبيرة، فقد ابتعد الأمريكيون الأصليون عن مواطنهم بالقرى، وقاموا بأداء العمل مقابل أجور.

ومنذ البداية اعتنق الأمريكيون الأصليون الديانة الكاثوليكية؛ إذ وجدوا فيها الدليل على وجود قوة عليا تتمثل في الإله المسيحي، غير أن ذلك لم يكن ليعني أنهم تخلوا عن آلهتهم القديمة. في بعض الأحيان كانوا يعدون القديس المسيحي شبيهاً بآلهتهم القديمة، كما كانوا يؤدون الصلوات والشعائر لكليهما في الوقت نفسه. وقد صارع القساوسة المبشرون هذه المعتقدات، لكنهم في واقع الأمر شكلوا عمق الكاثوليكية الأمريكية الإسبانية ولونها، وهي المعتقدات التي توجد بصورة حية حالياً. وقد كان لدى الناس شعور خاص بالإعجاب تجاه السيدة مريم العذراء، مما جعلهم يعبدونها، وأصبحت تمثل بالنسبة إليهم الإلهة الأم.

ومنذ بداياتهم، كان هناك قدر كبير من اختلاط الأعراق في المستعمرات الإسبانية؛ حيث حملت النساء الأمريكيات الأصل بأطفال الرجال الإسبان. وقد كان العبيد الأفارقة يشكلون أكبر مجموعة من السكان في الجزر وساحل ما يعرف الآن بكولومبيا Colombia وفي المدن الكبرى. لم تفنَ اللغات الأمريكية الأصلية، فلايزال بعضها مستخدماً حالياً، لكن الأشخاص الذين تختلف خلفياتهم القومية والثقافية كانوا يتحدثون بين بعضهم

باللغة الإسبانية. وقد أصبح مجلس المدينة، وهو مؤسسة نشأت عن أوروبا واستغلها كورتيز Cortes منذ البداية، حصناً للهوية والاستمرارية المحلية.

في نهاية القرن السابع عشر، أصبح لدينا لمحة عن مناطق الثراء والغموض أيضاً في هذه الثقافة المختلطة أو «الأمريكية من أصل أوروبي» من حياة إحدى شاعرات اللغة الإسبانية سور جوانا أينيس دو لا كروز Sor Juana Ines de la Cruz التي ولدت على حافة مجتمع يتحدث الإسبانية بالقرب من وادي المكسيك العظيم Great Valley of Mexico؛ وقد كانت شغوفة بالكتب وماهرة. وكان من الممكن أن تحصل على زيجة رفيعة المقام من بين النخبة الاستعمارية، إلا أنها أصبحت خاضعة تماماً لإرادة زوجها واحتياجاته. وبعد أن أصبحت راهبة منعزلة قررت أن تكرس معظم وقتها لقراءاتها المكثفة والمتسعة، وكتابة حوارات ذكية أيضاً مع عدد من الزوار الذين كانوا يزورون ديرها. وعندما روت القصة الكلاسيكية الإغريقية مرة أخرى، التي تحكي عن الإله نبتون الذي حول إحدى الجزر العائمة إلى جزيرة ثابتة، قارنتها بتينوشتيتلان Tenochtitlan التي بنيت في الأساس فوق «مجموعة جزر صغيرة عبارة عن أعشاب عائمة بواسطة شخص همجي جاهل وأعمى»3؛ وقد كانت دائماً موضع شك في عيون السلطات الكنسية التقليدية. وفي عام 1694 تم إخضاعها جبريّاً في النهاية لتسليم مكتبتها وموادها العلمية، والتوقف عن الكتابة. وخلال فترة الوباء الذي انتشر عام 1695 كانت تعتني بأخواتها من الراهبات رعاية خاصة، ومن ثم انتقل لها المرض، وتوفيت.

وبينما كان الإسبان يُغِيرون على مناطق رئيسية شمال أمريكا وجنوبها، كان البرتغاليون يبحرون حول إفريقيا وعبر المحيط الهندي، وقد وضعوا أرجلهم على أمريكا الجنوبية. ولطالما حاول كولمبوس Columbus أن يجهز مشروعه للسفر غرباً في رحلة إلى بلد البهارات الهند، وصولاً إلى ملك البرتغال، قبل أن يحول مساره إلى إسبانيا. وقد كان البرتغاليون يهتمون كثيراً باستخدام الطرق البحرية للوصول إلى المناطق الثرية بآسيا، لكنهم اعتقدوا أن أفضل هذه الطرق كان عبر طريق رأس الرجاء الصالح. وقد تشاركت البرتغال مع خبرة إسبانيا في حكم المسلمين، ثم إعادة الفتح المسيحي، بيد أنها أنهت اعتناقها لسيادة السياسية المسيحية في وقت مبكر أكثر عام 1249. وبين عامي 1450

و1700، أرسلت هذه البلدة الصغيرة من أوروبا سفناً وأشخاصاً إلى عدة أماكن مدهشة في الخارج. وقد استطاع المبشرون البرتغاليون إقناع ملك الكونغو Congo باعتناق المسيحية؛ حين أرسلوا رسائل وبعثات إلى أخيه الملك في لشبونة.

وقد كانت اللغة المتحدث بها في الموانئ على سواحل الهند وسريلانكا المعاصرة وماليزيا وإندونيسيا هي اللغة البرتغالية وحتى في الساحل الجنوبي للصين. وقد تحول نطاق شاسع على الساحل الشرقي لأمريكا الجنوبية إلى مركز ضخم لإنتاج السكر. وبحلول عام1700 كانت قد أصبحت المنطقة الرئيسية لدعم الملكية البرتغالية بمجموعة متنوعة من مصادر الذهب والماس، ولايزال البرازيليون يتحدثون البرتغالية حتى يومنا الحالي.

وقد كان للجغرافيا علاقة كبيرة بهذا التوجه الدرامي الكبير إلى خارج البرتغال، فقد أبحر صيادوها بعيداً إلى الأطلنطي بحثاً عن سمك القد الذي ظل طبقاً رئيسيّاً في الطعام البرتغالي؛ وبحلول عام 1500 وصولاً إلى الصيد على الضفاف العظمى لنيوفاوندلاند. وقد كان الصليبيون الذين يمرون عبر جبل طارق للوصول إلى الساحل الشرقي للبحر المتوسط لمهاجمة المسلمين– يتوقفون للانضمام إلى غارات البرتغاليين على آخر أملاك المسلمين في جنوب البلدة، كما استقر بعضهم في هذه المنطقة وتزوجوا من صفوة السكان المحليين. وقد جلب التجار الإيطاليون البضائع والمنتجات إلى لشبونة مع اكتسابهم بعض السلوكيات من تجارتهم مع الشعوب المسلمة التي سكنت منطقة البحر المتوسط، وكان بين هذه البضائع الذهب الإفريقي والعاج وبعض العبيد الأفارقة. وبحلول عام 1450، بدأ الإيطاليون، وبخاصة الوافدون من ميناء جنوة العظيم والتجار الوافدون من المناطق المجاورة لشبه جزيرة أيبيريا Iberian Peninsula والكاتالانيون Catalans والكاستيليون Castilians والبرتغاليون Portuguese– في الاستقرار والصراع على منطقة جزر الكناري Canary وماديرا Madeira الموجودتين على الساحل الإفريقي، كما أبحر البرتغاليون في مياه الأطلنطي ليطؤوا بأرجلهم لأول مرة منطقة الأزوريس Azores، التي لم تكن مأهولة من قبل بالسكان. بالنسبة إلى البرتغال التي مرت بحكم سلسلة من الملوك بعد عام 1385، كانت كل هذه الأحداث مرتبطة –بقوة– بالدفاع عن استقلالها عن بقية شبه الجزيرة، ولاسيما الكاستيل Castile.

ولقد فاز أبناء الملك بأول تكريم عظيم لهم، وتم تقليدهم فرساناً عندما استطاعوا فتح منطقة سيوتا Ceuta الموجودة على ساحل المغرب عام 1415، كما ساعدوا على حماية التجار الإيطاليين المبحرين، من البحر المتوسط وإليه، من القراصنة المسلمين. وقد شكلوا بذلك قاعدة للقراصنة المسيحيين ليمكنوهم من الوصول مباشرة إلى البضائع التجارية القادمة عبر الصحراء، لكن الحافز إلى قتال المسلمين كان منتشراً في الأرجاء كافة، وكان قريباً جدّاً من هذه المنطقة. وقد باءت محاولات وجهود البرتغاليين للاستيلاء على ميناء طنجة عام 1437 بالفشل الذريع. وقد علقت البرتغال في صراعات بغيضة متقطعة في المغرب على الأقل حتى عام1577 حين توفي الملك سباستيان في معركة هناك، وقد أدى ذلك إلى أزمة سياسية، وستين عاماً(1640–1580) من السيادة الإسبانية للبرتغال.

ومنذ زهاء عام 1441 حتى وفاته عام 1460، كان المروج الأساسي والقائد لاكتشافات البرتغال للسواحل الإفريقية هو الأمير هنري Prince Henry، وهو أحد المديرين الذين تم تقليدهم فرساناً بعد فتح سيوتا Ceuta عام 1415. وقد كان يلقب بالـ«البحّار»، على الرغم من أنه لم يُبحر قط أبعد من طنجة Tangier جنوباً على الساحل الإفريقي، وقد نشأت مجموعة كبيرة من الأساطير حول نقاء اهتماماته العلمية في الاستكشافات. كما كان من الشخصيات المميزة في عصره وموقعه، مفتخراً دائماً بأسر المسلمين واستعبادهم، وكان دائم البحث عن الأرباح التجارية لدعمه في الرحلة التالية.

أقام رجاله منطقة تجارية على جزيرة أرجوين Arguin التي تقع في أقصى شمال ساحل دولة موريتانيا Mauritania الحالية زهاء عام 1440. وفي عام 1444، وصل الأمير هنري نفسه Prince Henry إلى جنوب البرتغال عند ميناء لاجوس Lagos لمشاهدة أكثر من مائتي عبد تم شراؤهم أو أسرهم في بعض الفتوحات على الساحل الإفريقي. وكان بعضهم من الأفارقة شديدي سواد البشرة الذين يقطنون المنطقة شبه الصحراوية، أما بعضهم الآخر فقد كان من ذوي البشرة الأفتح، الوافدين من الصحاري والجزر. وحين رأوا السجناء مقيدين بالحبال ويتم الاتجار بهم في الشوارع، أحدثوا شغباً كبيراً جداً؛ في حين أشادوا بالفضائل العظيمة للأمير. أما بالنسبة إلى بقية العبيد، فقد قام القباطنة بتدبر أمرهم لعرضهم في مزاد بالمدينة، فأحرز كل قبطان أرباحاً طائلة. وحين وصل رجال هنري

إلى مصب نهر السنغال زهاء عام 1448، قرروا في بعض الأوقات التعامل بصورة ودية مع الملوك الأقوياء من شعوب الولفو Wolfo الذين يسكنون على بُعد أميال من النهر، ووجدوا أنه يتوجب عليهم التوقف عن أخذ العبيد في غاراتهم العنيفة؛ ذلك أنهم كانوا يضطرون في هذه الأثناء إلى مواجهة محاربين أكثر عدة وأكثر تسلحاً، وهم الذين لم يترددوا في الهجوم على السفن البرتغالية التي لم تكن سوى زوارق ضخمة مصنوعة من جذوع الأشجار. وقد عرف البرتغاليون تجارة القوافل القديمة عبر الصحراء وصولاً إلى البحر المتوسط، وقاموا بشراء الذهب من مكان ما جنوباً والوصول به إلى الصحراء، بيد أنهم لم يكن في استطاعتهم العثور على الكثير من هذا الذهب.

ولقد جلبت تجارة الصحراء أيضاً أعداداً قليلة من العبيد، الذين كان يتحصل عليهم غالباً مقايضةً بالخيول التي لم تكن تستطيع البقاء كثيراً في جو إفريقيا الاستوائي. وقد حالف البرتغاليين الحظ في هذه التجارة كثيراً، فقاموا بجلب الخيول إلى الموانئ التي تحيط بأنهار السنغال Senegal وجامبيا Gambia، وأخذوا مقابلها مئات العبيد سنوياً إلى البرتغال. وفي ستينيات القرن الخامس عشر وسبعينياته، توغل البرتغاليون أكثر فأكثر نحو غرب الساحل الإفريقي، وشنوا حرباً صغيرة، كانت أولى الحروب الأوروبية الاستعمارية التي تحدث خارج أوروبا ضد الإسبان؛ في محاولة للاستيلاء على حصة من البضائع التجارية.

وقد أتيحت لهم في هذا الوقت عدة إمكانات أخرى حين تحولت اكتشافاتهم للساحل نحو الشرق، فربما كانوا في طريقهم إلى فتح المحيط الهندي؟ وقد كانت هناك أساطير تدور حول الملك المسيحي الذي يوجد في مكان ما شرقاً، ويُدعى بريستر جون Prester John، الذي كان حليفاً جيداً مناهضاً للإسلام. وفي بعض مناطق الدولة التي تعرف الآن باسم نيجيريا، زار البرتغاليون بعض الحكام الذين كانوا يحكمون مدناً مهمة محاطة بأسوار، وكان الحرفيون فيها يقومون بصنع منتجات رائعة من البرونز؛ إلا أنهم لم يكونوا مثل بريستر جون Prester John. وتم إرسال بعثة برتغالية إلى جنوب القاهرة، وقد أقامت علاقات وصلات مع الحكام المسيحيين بأثيوبيا، لكنهم لم يحصلوا على أي نتائج من هذه العلاقات على مدى سنوات. وقد تحقق النجاح الدائم بعد ذلك عام 1481 و1482 عند تأسيس قلعة تجارية برتغالية دائمة على ساحل دولة غانا Ghana حالياً، التي لاتزال

موجودة حتى الآن؛ وهي (القلعة) التي تعرف باسم قلعة المينا Elmina Castle، وهو اسم مقتبس عن ساو جورج ديل مينا، الذي يعني جورج قديس المنجم. وقد شكلت هذا «المنجم» حقول الذهب الموجودة بدولة أشانتي Ashanti شمالاً، التي تم الحصول منها على كميات كبيرة من الذهب ليتم عرضها في المركز التجاري الجديد.

ومع استمرار الاستكشافات، تحول الاهتمام مرة أخرى نحو جنوب الساحل الإفريقي، وأقام البرتغاليون صلات وعلاقات مذهلة مع ملوك الكونغو Congo، كما عاد العديد من مواطني الكونغو Congolese، الذين تم اقتيادهم نحو لشبونة إلى الكونغو مرة أخرى عام 1487، وقد كانوا آنذاك متحدثين بالبرتغالية ويعتنقون المسيحية. أرسل البلاط الملكي البرتغالي بعثات تبشيرية، كما اعتنق أحد المحاربين من أجل الخلافة الملكية الديانة الكاثوليكية، وربما ساعده بعض البرتغاليين في هزيمة منافسيه، وأن يصبح ملكاً زهاء عام 1506. ويبدو أنه هو وبعض من اعتنقوا المسيحية كانوا قد شعروا أن البرتغاليين كان لديهم بعض مصادر القوى غير المعروفة في السابق، التي شاهدوها حين قامت إحدى البعثات التبشيرية بتحطيم ضريح ديني قديم؛ حيث كان البناؤون البرتغاليون يبنون حوله بيوتاً حجرية صلبة، ولم يخافوا إطلاق الجنود للنيران. وعلى مدار حكم دوم أفونسو Dom Afonso ؛ ملك الكونغو المسيحي الذي استمر نحو أربعين عاماً، أرسل العديد من الخطابات وتبادلها مع ملوك البرتغال. وقد عين البابا أحد أبناء أفونسو الذي تعلم في أوروبا أسقفاً للكونغو. ويبدو أن البلاط الملكي البرتغالي قد اتخذ هذه العلاقة على محمل الجد، وأرسل العديد من الناصحين والبنائين والحرفيين والعديد من المبشرين أيضاً إلى الكونغو.

ولكن حتى قبل وفاة دوم أفونسوDom Afonso عام 1545 كانت هناك بعض الوقائع والحقائق الشرسة التي تقلل من قدر هذا الحلم باعتناق المسيحية دون إكراه، والتحول الثقافي التام. وقد أصبحت جزيرة ساو توم Sao Tome التي تقع شمال مصب نهر الكونغو مركزاً لزراعة السكر البرتغالي وتصنيعه منذ البداية، وقد استعين بأعداد كبيرة من العبيد في هذه الصناعة. وبدأ البرتغاليون المقيمون بالكونغو في تجارة العبيد، على الرغم من الاعتقاد بأن للملك تحكماً كاملاً في التجارة. وبعد وفاة أفونسو، شارك شعب سار توم

Sao Tome في الحروب الأهلية بالكونغو. وانتشرت تجارة الرقيق والغارات في البلدة، مما قلل من شأن وحدة المملكة، التي سقطت تماماً في ستينيات القرن السابع عشر بعد إحدى الحروب مع البرتغاليين، التي كان السبب فيها تدخلهم في الحروب المدنية الكونغولية.

انفتح العالم بين عامي 1487 و1498 أمام البرتغاليين والإسبان، وتصرفوا كما لو كان مِلكهم. وفي عام1481، وصلت السفن التي يقودها بارتولوميو دياز(Bartolomeu Dias) إلى الرؤوس الجنوبية لإفريقيا، ورأت المحيط المفتوح ممتداً بعيداً في اتجاه الشرق. وقد فعل كولومبوس هذا من قبل Columbus فعبر المحيط الأطلنطي، وعلى الرغم من أنه لم يكن على ثقة، فيما يتعلق بالموقع الذي كان فيه، فمن الواضح أنه قد وجد شيئاً مهمّاً. أعلن البابا عن وجود خط تقسيم يمر شمالاً وجنوباً حول الأرض، قاسماً إياها بين نصفي الكرة الإسباني والبرتغالي؛ حيث وقعت المملكتان على معاهدة لتحويل الخط الفاصل أبعد قليلاً تجاه الغرب، بحيث تحصل البرتغال على جزر الأزورThe Azores.

في أعقاب ذلك، بدأ فاسكو دا جاما Vasco Da Gama رحلته بأربع سفن ودار حول إفريقيا، فصارت البرتغال الآن في عالم جديد؛ عالم ملاحي مسلم منظم على نحو جيد ومزدهر. فمن موزمبيق الحديثة حتى كينيا الحديثة، وجدوا سلسلة من المدن البيضاء الرائعة التي ازدهرت بها ثقافة المسلم الإفريقي المتحدث بالـ«سواحيلي»؛ حيث سافر التجار المسلمون ذهاباً وإياباً بانتظام لمئات السنوات. الجدير بالذكر أنهم تمكنوا من الحصول على نصيحة جيدة بشأن تتبع الرياح الموسمية العابرة للهند. وبعد ذلك، توجهوا إلى شاطئ كوزيكود Kozhikode– التي كانت تُنطق فيما مضى كاليكت Calicut، وهي عاصمة لولاية هندوسية صغيرة، تحتوي على مجموعة ضخمة من التجار المسلمين من كل مكان حول المحيط الهندي. عندئذ بوغت المسلمون وتنبهوا إلى خطر وصول «الفرنجة» أو «الفرنكيين» كما أطلق المسلمون على الأشخاص القادمين إلى شرقي البحر الأبيض المتوسط كغزاة صليبيين.

قال أحدهم لرجال دا جاما Da Gama: «ما الذي أتى بكم إلى هنا بحق الجحيم؟».

فأجابه: «لقد أتينا بحثاً عن المسيحيين والتوابل». كان العالم حول رجال دا جاما Da Gama غريباً جدّاً بالنسبة إليهم؛ حيث يبدو أنهم ظنوا المعابد الهندوسية الأولى التي

دخلوها مسيحية، فالمسلمون لا يقدسون الصور؛ لذلك أخذوا أي شخص لديه صور إلى مكان للعبادة، فالمسلم هو النوع الوحيد الذي عرفوه من غير المسيحيين. ورسموا العديد والعديد من القديسين على حوائط الكنسية، مع أكاليل، وقد كان رسمهم مختلفاً؛ لأن أسنانهم كانت كبيرة جدّاً بحيث كانت خارج الفم مسافة بوصة كاملة، ولدى كل قديس أربعة أذرع أو خمسة. اتسم سلوك التجار المسلمين المحليين بالعداء، مثلما كان من المتوقع، كما كانت الهدايا التي أحضرها البرتغاليون واضحة السخف في مقابل القاعة الفخمة المرصعة بالجواهر التي يحتلها الحاكم المحلي. واستكمالاً لهذا المشهد، سُحِبت بعض السيوف وأطلِق عدد قليل من الأعيرة النارية، بيد أن الأمر مر– على الرغم من ذلك– دون أن يترتب عليه وقوع كارثة ما.

وبمجرد أن أعلن فاسكو دا جاما Vasco Da Gama عزمه العودة إلى لشبونة Lisbon، علم البرتغاليون أنهم بصدد شيء كبير، فأرسلوا كل عام سفناً أكثر. وفي عام1500 تحولت العلاقات في كوزيكود Kozhikode إلى حرب مفتوحة؛ فقد أطلق مدفع من على إحدى السفن نيرانه إلى داخل المدينة، ولاقى البرتغاليون قدراً أكبر من ذلك بكثير من حسن الضيافة من جانب أحد الحكام المحليين المنافسين في كوشين Cochin، التي تقع على بعد بضعة أميال أسفل الساحل؛ حيث تم السماح لهم ببناء محطة تجارية محصنة.

سهلت المنافسات بين الحكام المحليين قيامهم بتحالف مع واحد ضد الآخر، في كل مكان حول المحيط الهندي. وبحلول عام 1505 تقريباً، كانت البدايات لاستراتيجية ضخمة لتعطيل تجارة التجار المسلمين في التوابل والبضائع الأخرى من الهند إلى البحر الأحمر والخليج العربي. وكان من جراء ذلك أن بذلت السلطات المسلمة أقصى جهودها للأخذ بالثأر، لكن كان لا بد لهم من البدء من سواحل مهجورة؛ حيث ندُر الخشب والطعام. وفيما بين عامي 1507–1508، ألحق أسطول مصري الهزيمة بالأسطول البرتغالي، بيد أنه أبيد بعد ذلك في ديو Diu شمال غرب مومباي الحديثة Mumbai. هذا، وقد أجبرت المدن السواحيلية للشاطئ الإفريقي الشرقي على قبول هيمنة البرتغال. وواصل بعض البرتغاليين مغامراتهم الهمجية في اتجاه الداخل؛ حيث أعلن عن وجود مناجم الذهب، وحدث تزاوج فيما بعد لآخرين، وكان من نتاج ذلك أن وضعوا جذوراً بطول

نهر الزامبيزي Zambezi، وبناء على ذلك صارت موزمبيق Mozambique مستعمرة برتغالية حتى أواخر القرن العشرين.

هاجم البرتغاليون محطات الوقوف في الخليج العربي، وطرق تجارة البحر الأحمر، وأدى ذلك إلى نتائج مختلفة؛ حيث استولوا على جزيرة سوقطرا Socotra من اليمن Yemen، لكنهم اكتشفوا أنها غير قابلة للإقامة بها بسبب نقص المياه. يأتي هذا في الوقت الذي فشل فيه هجوم على مدينة عدن Aden في بلاد اليمن، واستولوا على مضيف هرمز Hurmuz بمدخل الخليج العربي. وبعد ذلك، قاموا بوضع قواعد أكثر متانة من عام 1509 حتى عام 1515، وتوسعوا في اتجاه الشرق تحت قيادة الحاكم اللامع والقاسي– في الوقت ذاته– أفونسو دي ألبوكورك Afonso de Albuquerque في الساحل الغربي للهند، الذي استفاد من حالة الشقاق والضعف السائدة بين الممالك الإسلامية لهزيمة المقاطعة الساحلية جوا Goa، التي ظلت مركز قوة البرتغال في الهند حتى القرن العشرين. ولأغراض السيطرة على تجارة التوابل في مناطق الإنتاج شرقي إندونيسيا Indonesia أو في مضيق ضيق يصل بينها وبين الهند، قام بإرسال حملة استولت على سلطنة ملقا المسلمة Melaka عام1511. وفضلاً عن هذا، قام بإرسال حملات أخرى قامت بتأسيس قواعد عسكرية متقدمة في جزر التوابل، لكنها لم تحكم السيطرة عليها قط بشكل تام، وقامت بالقليل فيما عدا القتل والسرقة وتكوين العداءات.

وفي أوائل عام1518، حصلت البرتغال على موطئ قدم راسخة على الجزيرة التي نطلق عليها الآن سيريلانكا –Sri Lanka سميت سابقاً سيلان Ceylon– واستمرت في تعزيز وجودها على الساحل الغربي من الهند، من ديو إلى جوا إلى كوشين. وفي أعقاب غزو مدينة جوا، قام ألبوكويرك Albuquerque بتشجيع رجاله على الزواج من أرامل من لقوا مصرعم من رجال الحامية الإسلامية، وقد نتساءل عن موقف السيدات من معاملتهم لهن كجزء من غنيمة المنتصرين الغزاة. إن تصرف ألبوكويرك Albuquerque غالباً ما يُعد علامة على الموقف البرتغالي اللطيف نسبياً نحو المزج العنصري، وكانت النتيجة على طول ذلك الساحل وفي سيريلانكا أن نشأ عدد كبير من السكان الـ «إندو–برتغاليين»، يتجذرون في تراثهم العرقي ويدينون بالمذهب الكاثوليكي، مازجين بين التراث والثقافة والعادات على

نحو فذ وفريد. وعلاوة على ذلك، لايزال هناك أشخاص من أصحاب الأسماء البارزة من أمثال سوزا Souza ودا سيلفا Da Silva في تلك المناطق. وقد كان أساس استمرار سلطة البرتغاليين وتأثيرهم في المنطقة هو الدعم الفاعل لمثل تلك المنظمات الأوروبية مثل: نقابات التجار والصناع، والجمعيات الدينية، ومجالس المدينة بما في ذلك المقاومة الناجحة لهجمات المسلمين المضادة.

أرسلت الإمبراطورية العثمانية أسطولاً ضخماً إلى الهند عام 1535، وحاصرت ديو Diu التي نجت بصعوبة. وعلى الرغم من هذا، لم توجد أي هجمة إسلامية مضادة مطردة. ومن سواحل الهند، قد تكون الأخشاب والطعام متاحة على نحو أكثر سهولة مقارنة بطول السواحل القاحلة في اتجاه الشمال؛ حيث لم يوجد أي فعل برتغالي مضاد، فيما عدا بعض القراصنة المتواضعين. طالب البرتغاليون بحقهم في فرض سيطرتهم على أشكال التجارة البحرية كافة، التي تغادر الهند، بل وصل بهم الأمر إلى حد مصادرة حمولة أي سفينة لا تحمل إذن الإبحار البرتغالي، الذي قد لا يتم منحه إلى العدو المسلم. كانت الهجمات البرتغالية مصدر إزعاج للموانئ وسفن التجارة المارة في اتجاه البحر الأحمر والخليج العربي، لكن لم يتم دعم التعليق المنهجي من خلال نظام تصاريح الإبحار؛ إذ تمكن التجار المسلمون من رشوة القادة البرتغاليين لبيع الإذن، أو الدفع لربان مركب كي يسمح للسفينة بالمرور بحُرّية عندما لا يكون لديها إذن. وبمجرد أن صار الحكام المغول Mughal متحكمين في جزء من الساحل، بدا أن العلاقة الجيدة معهم تتطلب منحهم بعض التصاريح، وبخاصة للسفن التي تحمل الحجاج إلى مكة. وقد أظهرت السجلات الفينيقية للتجارة في شرقي البحر الأبيض المتوسط أن تدفق البضائع الآسيوية بدأ بالعودة إلى طبيعته بعد زهاء عام 1550.

وصلت هيئة من الممثلين البرتغال إلى الصين في أوائل عام 1517، لكنها لم تحرز شيئاً. بلغ الأمر أن وصل تجار البرتغال في الأربعينيات إلى اليابان للمرة الأولى؛ حيث أدت التدابير في عام1557 مع المسؤولين المحليين إلى إقامة مركز تجاري في مكاو Macau، بالقرب من هونغ كونغ الحديثة Hong Kong. أما اليابانيون فقد قاموا باستيراد كميات ضخمة من الحرير الصيني، الذي لم يتمكنوا بعد من مجاراة جودته، ودفعوا لهم الكثير مع

الإنتاج المتزايد للذهب والفضة والنحاس من مناجمهم الخاصة. يأتي هذا في الوقت الذي ظلت فيه القرصنة اليابانية- لمدة طويلة- تشكل مصدر تهديد للساحل الصيني؛ لذلك لم تكن السفن اليابانية موضع ترحيب هناك، وقد حصلت البرتغال على نصيب ضخم من أرباح تلك التجارة.

وبوصول شركة هولندا وشرق الهند للمحيط الهندي بعد عام 1600، تقلص الوجود البرتغالي إلى مراكز ضئيلة صغيرة، وهي المراكز التي احتفظوا بها حتى القرن العشرين متمثلة في جوا Goa وأماكن قريبة، مثل مكاو Macau وشرق تيمور Timor. يأتي هذا في الوقت الذي رحلوا فيه عن جزر التوابل بحلول عام 1620، وأخذ الهولنديون ملقا عام 1641، وسقطت المحطات التجارية في سيريلانكا وعلى الساحل الجنوبي الغربي للهند بحلول عام 1664.

أبحرت السفن البرتغالية من لشبونة إلى جوا وما وراءها، ناهضة بأعباء الشحن وقواعد الميناء وبعض الدعم المادي لأكثر اللقاءات الثقافية غرابة في العالم الحديث المبكر، وهي الإرساليات التبشيرية المسيحية إلى حضارات آسيا.

سافر أتباع يسوع بموافقة من ملوك البرتغال، وإلى حد ما كانوا تحت سيطرتهم، لكن ليس جميعهم برتغاليين، بل إن كثيراً منهم إيطاليون، وأعضاء من بعثة الصين، ومنهم الألمان والبولنديون والمحليون مما يطلق عليها الآن بلجيكا Belgium.

وقد جمعوا في كل لقاءاتهم الخصائص الآسيوية لمجتمع يسوع منذ تأسيسه على يد إغناطيوس لويولا Ignatius Loyola وزملائه في ثلاثينيات القرن السادس عشر. كما كانت هناك جهود مبذولة للتأثير في حياة ومعتقدات الطبيعة العليا عن طريق التواصل المباشر، وتعليم أبنائهم، والتعاطف الخاص مع شجاعة الجندي الأرستقراطي وولائه، والاقتناع بأن العلوم والمعرفة، وبخاصة دراسة الرومان والإغريق القدامى، قد تدعم المعتقد والتعليم المسيحيين وتحسنهما.

وتعد إحدى أكثر اللقاءات تأثيراً تلك التي حدثت في اليابان؛ حين قام الأسياد الإقليميون أحياناً -في بحثهم عن الأرباح التجارية- بمصادقة الإرساليات التي أتت مع التجار. لقد وجد أتباع المسيح في أعراف الساموراي عن الشرف والأمانة في العرف



عرض أتباع يسوع ومبشرون رومان كاثوليك آخرون أسس الإنجيل المسيحي في الصين، ولديهم عمال طباعة صينيون ينسخون الصور من الكتب الأوروبية. ويوضح ذلك الرسم الخشبي إغواء المسيح في البرية. الموسوعة العالمية، باريس *Paris*، شينوا، *Chinois 6750*.

الاجتماعي ما يتساوى على الأقل مع ذلك الذي لديهم، وشعروا غالباً -كالأطفال حين يتعلمون- بكيفية تقبلهم اجتماعيّاً، وواجهوا مجتمعاً لا تعمل به الأعراف الأخلاقية جيداً، وكان بعض الناس من كل الطبقات مستعدين للقيام بالتزام جذري لشيء جديد. كما حفزت الرغبة في إحضار أرباح التجارة البرتغالية لموانئهم بعضاً من الديمو daimyo الأسياد الإقليميين والساموراي على الدخول في المسيحية. وعلاوة على ذلك، فقد اعتنق بعض الحرفيين والتجار والمزارعين الطوائف البوذية المتطرفة، التي تضم العوام معاً لرفض سلطة الساموراي. ونتيجة لهذا، أصبح الآلاف من اليابانيين يدينون بالمذهب الكاثوليكي. أما بالنسبة إلى حكامهم فقد انقسموا- على ما يبدو- إلى نوعين من التهديد السياسي، وهما على النحو الآتي: تهديد إقليمي في إطار الديمو المسيحي، وآخر محلي ضد سلطة الساموراي بالكامل.

تعلم أتباع يسوع اللغة الصعبة، وأنشؤوا صحيفة مطبوعة، وكيّفوا الفن المسيحي على الأذواق اليابانية، وفتحوا معهداً لتعليم قساوسة المستقبل اليابانيين؛ حيث تعلموا تفسير دينهم أنه لم يكن مجرد شكل آخر للبوذية، واستخدموا بعضاً من البلاغة الأخلاقية للتقاليد الصينية التي أثرت طويلاً في اليابان، لكنهم لم يضطروا إلى تعديل أسلوبهم في التعليم لمقاومة نظام معتقد محلي مسيطر واحد؛ لأنه لم يعد لمثل ذلك النظام وجود في ذلك الوقت. في بداية عام 1592، قامت السلطات التي كانت تنشئ أنواعاً جديدة من النظام السياسي باتخاذ تدابير ضد الإرساليات، وحولتها إلى مصادر تهديد لذلك النظام. منذ عام 1612 فصاعداً، كان الاضطهاد شاملاً بشكل وحشي؛ فقد مات العديد من المبشرين وآلاف اليابانيين من أجل عقيدتهم، وأحياناً تحت وطأة التعذيب الشديد. وبحلول عام 1640 لم يتبق سوى بقايا صغيرة من اليابانيين الكاثوليك المخفيين، وتم نفي البرتغاليين إلى خارج اليابان. كان من نتاج هذا أن أثبت الشهداء أن التعليم الكاثوليكي قد سقط في أرض خصبة في اليابان، وأن أتباع يسوع قد يدركون تماماً ما كانوا يفعلونه.

تمركز بعض من أتباع يسوع الذين أرسوا سياسة أساسية لجهود اليابان في مكاو Macau، وقد أثرت تجاربهم اليابانية في أسلوبهم في الصين؛ حيث أثارت القيود المفروضة على التواصل مع الأجانب والعقيدة الكونفوشيوسية العريقة مجموعة مختلفة من التحديات.

كانت الصفوة الرسمية للدراسة التقليدية تهيمن على الحكومة، وتحظى بالثقة في قيمها الأساسية، ومع ذلك بدا الأمر– بالنسبة إلى العديد من الصينيين المفكرين في عام 1600 تقريباً– كأن الإنفاق المسرف والفساد الحكومي قد انتهكا التثقيف الضميري والخدمة العامة في مركز العقيدة الكونفشوسية. إن الالتزام الإيثاري الذي حث أتباع يسوع على السفر بعيداً عن وطنهم– قد أثر في هؤلاء الصينيين، كما كان الأمر بالنسبة إلى معرفتهم القوية والمفيدة بعلم الفلك والجغرافيا وغيرها مما شابَها من العلوم الكثيرة.

ولقد احترم أتباع يسوع، وبخاصة الإيطالي اللامع ماثيو ريتشي Matteo Ricci، السعي الأخلاقي للدارسين، وتنازعوا حول كون التعاليم المسيحية تدعم التعاليم الكونفشوسية في الواقع وتكملها، وقد ساعدت في مقاومة الاتجاه نحو عدم المسؤولية التي نشأت من البوذية. ولقد أمضوا وقتاً طويلاً في تعلم اللغة الصينية، وأثاروا اهتماماً بين الدارسين الصينيين حول خرائطهم الخاصة بالعالم ومهاراتهم الفلكية. وبدراستهم للنصوص الكلاسيكية الصينية، بدأ أتباع يسوع في النقاش حول أن الحكماء القدامى قد علموا حقيقة الإله، إلا أن تلك المعرفة فقدت لاحقاً بسبب التأثير البوذي. من هنا، صار أتباع يسوع –في كل ذلك– تلاميذ لبعض المسؤولين الباحثين المميزين، وصار العديد منهم فيما بعد مسيحيين. وعندما أصبح الباحث الرئيسي شو جوانكي Xu Guangqi مسؤولاً رفيع المستوى في أواخر العشرينيات من القرن السابع عشر، قام بفتح الطريق لأتباع يسوع لعرض مهاراتهم في الأرصاد الفلكية بالقاعة الإمبراطورية؛ حيث كانت معايرة التقويم السنوي بمثابة وظيفة مهمة للحكومة. عُرفت الطرق الخاصة بأتباع يسوع أنها أكثر دقة من تلك المستخدمة بالفعل، ومن ثلاثينيات القرن السابع عشر حتى ما بعد عام 1700 تم تعيين أتباع يسوع في المجلس الإمبراطوري لعلم الفلك. وقد منحهم مركزهم في المحكمة غطاء سياسياً للإرساليات والتحولات في المقاطعات، ومع ذلك لم تمنح المسيحية التسامح بشكل رسمي حتى عام 1692.

إن المسؤولين من الباحثين أمثال شو جوانكي Xu Guangqi لم يكونوا ليتحولوا إلى ديانة لا تسمح لهم بأداء الاحترام التقليدي الواجب لأسلافهم. واضطر الدارسون الطموحون إلى حضور احتفالات سنوية لتكريم الحكيم الكبير كونفوشيوس Confucius. كان أتباع

يسوع على اقتناع تام بأن الشكل المعدل للاحتفالات السلفية، وحضور الاحتفالات الكونفوشيوسية في مجملها، ليست أجزاء من الديانة غير المسيحية؛ وبناء عليه أمكن السماح بها للمتحولين. وتمكن المسيحيون الصينيون من ربط المسيح بكونفوشيوس بطريقة مشابهة لربط أتباع يسوع بين المسيح وإرثهم من الفلسفة الأخلاقية لليونانيين والإغريق. وقد ألقى رأي ما بظلاله بين البعثات التبشيرية، ورفض بعضهم تماماً تجهيزات أتباع المسيح.

استمر أتباع يسوع في الدراسة والكتابة عن الصين، وفي عام 1687 تم نشر ترجمة رائعة لبعض النصوص الكونفوشيوسية الرئيسية في فرنسا، كأنها نصب تذكاري في التبادل المتزايد بين الثقافات العظيمة للعالم الحديث المبكر.

وهنالك مثال ثالث رائع على لقاء أتباع يسوع بالثقافات الآسيوية، هو عمل روبرتو دي نوبيلي Roberto de Nobili في جنوب الهند، بداية من عام 1612 حتى 1656. تأثر نوبيلي كثيراً ببعض من المعلمين المتعلمين والروحيين في فرع الهندوسية التي تركز على عبادة الإله فيشنو Vishnu ؛ لأن قلة من رجال الدين الكاثوليك والبروتستانت المقيمين في الهند في أوائل القرنين السادس عشر والسابع عشر قد احترموا سلطة ووحدة أفق الرجال الهندوس المقدسين، حتى بعد أن علموا أن محتوى عقائدهم لا قيمة له. تعلم نوبيلي اللغة التأملية الصعبة جدّاً، ونظم مقدمات تأملية للعقيدة المسيحية، وقصائد غنائية طويلة بالمواضيع المسيحية. وبدأ هو وأتباعه بارتداء الزي الذي يرتديه رجال الدين الهندوس. إن العديد من الكاثوليك الآخرين في الهند ارتعدوا من ذلك، وأحيل الجدل في النهاية إلى روما. لم يبدُ أن نوبيلي قد مهد للتقدم تجاه مجتمع كاثوليكي ذاتي الدعم في الهند، لكن استجابته إلى أسلوب غريب للحياة الروحية ظلت جزءاً مؤثراً للترابط المبكر الحديث.

إن ظروف عمل الإرسالية بدا أنها كانت مفضلة في إمبراطورية المغول Mughal في شمال الهند؛ حيث أحب الإمبراطور المسلم الكبير أكبر Akbar الاستماع إلى مناظرات بين المعلمين من ديانات متنوعة، وكان ميالاً بشكل خاص لمنح المسيحية احتراماً عند الاستماع بسبب ذكر مريم أم عيسى في الإسلام. أما الفنانون والحرفيون فقد عملوا لدى أتباع يسوع لأغراض إنتاج بعض اللوحات الدينية الرائعة، مرسومة بناء على كل من

التقاليد الهندية والأوروبية، ومشاهد عن ميلاد السيد المسيح: «في القاعة، قرد يضخ المياه من عينيه وفمه، وفوقه طائر يغني أغاني غير معروفة.. وكرة للعالم مسنودة على ظهري فيلين.. وحول الطفل المقدس في الكوخ كانت أقوال لرسل تنبؤوا بقدوم الإله للعالم».

لكن لم يكسب أتباع يسوع متحولين كثيرين، وفي أواخر القرن السابع عشر تحول المغول نحو الإسلام.

إن عمل النقاش الثقافي والبعثة التبشيرية تطور في السياقات المختلفة جداً للمجتمعات الحدودية ذات العمل الزراعي والسخرة، وذلك حول جنوب المحيط الأطلسي. لقد انتهى وضع خط العرض الذي يفصل بين نصفي الكرة الأرضية إلى إسباني وبرتغالي في المحيط الأطلسي؛ إذ وضعت خريطة للساحل الأمريكي الجنوبي، تاركة جزءاً أكبر من تلك القارة، نتج عنه الانتفاخ الشرقي للبرازيل الحديثة، على الجانب البرتغالي من الخط. ولعقود عدة لم تستقر البرتغال.

اشتروا من الشعوب الأمريكية بعض جذوع الأشجار الضخمة، التي تنتج شراباً رائعاً للعين الحمراء، وأطلقوا على الخشب اسم الخشب البرازيلي؛ لأن لونه ذكر الناس بالفحم الأحمر الساخن، أو البرازوس Brazos في البرتغال. عادت السفن البرتغالية من الإنديز Indies متأرجحة بعيداً إلى داخل جنوب المحيط الأطلسي، وتوقفت أحياناً بالساحل البرازيلي؛ حيث احتفظت البرتغال هناك بعدد قليل من السفن والجنود لحماية السفن القادمة من المحيط الهندي من القراصنة الفرنسيين. واعتباراً من أربعينيات القرن السادس عشر فصاعداً، كانت هناك جهود ضخمة تهدف إلى بناء حكومة استعمارية، وكان ذلك في صورة استجابة جزئية للنمو المتزايد لزراعة قصب السكر، الذي يتم جلبه من جزر على الساحل بقارة إفريقيا. إن حصاد قصب السكر وتجميعه تطلبا عملاً بلا توقف في جو شديد الحرارة بصورة وحشية. وفي الجزر الإفريقية تلك، كان يتم العمل فعلاً بالسخرة الإفريقية؛ حيث استعبدت البرتغال أعداداً ضخمة من الهنود البرازيليين، لكن الأمراض الجديدة قلصت عدد سكانهم الضئيل بالفعل. وقد جُلب العبيد الأفارقة سريعاً إلى البرازيل. وبحلول العشرينيات من القرن السابع عشر، كان كل العبيد العاملين في المزارع من إفريقيا تقريباً. على الجانب الآخر، كان المحصول الآخر الذي يحقق

مكسباً سريعاً هو التبغ؛ وقد بيع بعضه في التجارة غربي إفريقيا مع شراب الروم الذي كان يعد منتجاً ثانويّاً لصناعة السكر. وصار العبيد قيمين خبراء في عملية تكرير السكر، ونجارين مهرة، وحدادين، وفرساناً.

إن العمل في مزرعة سكر في وقت الحصاد كان أمراً وحشيّاً؛ حيث يتم فرض الانضباط بالقوة بواسطة السوط، والسجن، وصب شحم الخنزير الساخن أو الشمع الساخن على الجلد، أو قطع الآذان والأنوف؛ حتى إن بعض العبيد اضطروا إلى الانتحار. لكن بعض العبيد تمكنوا من الإبقاء على موسيقاهم الإفريقية وديانتهم؛ وهما تعدان الآن جزءين مهمين من الثقافة البرازيلية. نما عدد كبير من سكان الإرث العرقي المختلط، ونتاج العلاقات- الإجبارية غالباً - التي تمت بين الرجال البيض والإماء. وتمكن بعض العبيد من ناحية أخرى من الهرب لتكوين مستعمرات ذاتية خلف البلدة، وقد تمكنت إحداها من النجاة من الهجمات البرتغالية لفترة امتدت لتصل إلى زهاء مائة عام.

بدأت الهجمات الهولندية على المقتنيات البرتغالية حول جنوب المحيط الأطلسي في عشرينيات القرن السابع عشر؛ حين استولوا على الميناء Elmina على الساحل الحديث لغاناGhana عام 1637، وموانئ أنجولا الحديثة Angola عام 1641. وبحلول الثلاثينيات من القرن السابع عشر، أحكموا قبضتهم أكثر على المقاطعة الغنية بنمو السكر بطول الساحل الشمالي الشرقي للبرازيل الحديثة. فيما بين عامي 1637 و1644، كان حاكم منطقة الفتح الهولندية تلك هو خوان موريشيوس فان ناساو سيجين Joan Maurits van Nassau Siegen، الذي كان قريباً بشكل شبه وراثي من الزعماء العسكريين للجمهورية الهولندية. وقد صار واحداً من أكثر الحكام الاستعماريين دهاء في العصور الحديثة المبكرة؛ إذ اهتم كثيراً بتجميع المعلومات حول المنطقة، واستشارة القيادة البرتغالية التي مكثت لمحاولة الاستفادة القصوى من الموقف؛ حتى إن اجتماعاً غير رسمي كان يعقد. وعلى الرغم من هذا، فبعد استدعائه شنت حرب عصابات عن طريق المتعاطفين البرتغال؛ فقد كان معظمهم هنوداً أو أفارقة ثقافة وتراثاً، وقاموا بطرد الهولنديين بحلول عام 1654.

يعد السكر بمثابة محصول ساحلي لأسباب المناخ والنقل. ولم تقم البرتغال حتى زهاء 1620 بلمس مساحات الأراضي الشاسعة للبرازيل الحديثة. في العشرينيات والثلاثينيات من القرن

السابع عشر، كانت هناك العديد من البعثات داخل الأدغال الشاسعة، وحدثت تصادمات مع شعوب أمريكا الأصليين الهنود من حوض نهر الأمازون، ولكن ظل التواصل ضعيفاً. والضربة الحقيقة الداخلية أتت من بعيد إلى الجنوب، في منطقة ساوبولو الحديثة Sao Paulo.

وأطلق على قوات المغامرين الذين أعدوا تلك البعثات الطويلة اسم «باندياراتنس Bandeirantes»، وذلك بسبب أعلام باندیارس Bandeiras التي كانوا يرفعونها. كان أغلبهم من نسب مختلط من البرتغاليين والهنود، وغالباً ما تحدثوا اللغة الهندية لا البرتغالية. إن أصولهم متعددة الثقافات، وجرأتهم في فتح المناطق الداخلية، ودورهم الرئيسي في أواخر القرن السابع عشر في اكتشاف المصادر الكبيرة للذهب والماس التي حولت البرازيل بعد عام 1700- قد جعلت لرموز الباندياراتنس Bandeirantes بريقاً وأهمية هائلين للبرازيليين المعاصرين، الذين عادة ما نسوا أن عملهم الأساسي في سنواتهم الأولى كان أخذ العبيد الهنود.

إن الباندياراتنس Bandeirantes ومالكي المزرعة الذين أمدوهم بالعبيد قد تمت معارضتهم منذ أواخر القرن السادس عشر عن طريق الإرساليات اليسوعية، التي تعلمت اللغات المحلية، وعملت جاهدة على إعادة استقرار الهنود في مستوطنات كبيرة؛ حيث يمكن حمايتهم من الباندياراتنس Bandeirantes، وتعلموا أن يصيروا مسيحيين أفضل. كان أكثر أتباع يسوع تأثيراً هو أنطونيو فيرا Antonio Vieira، الذي زعم عثوره في العهد القديم «التوراة» على نبوءات حول إمبراطورية مسيحية في الأمازون، من شأنها فتح الطريق إلى الاتصال العالمي للمسيحية، بشرط تعلم المبشرين اللغات الهندية، والسماح لهم بحماية المتحولين من الباندياراتنس Bandeirantes. ومازالت رؤيته تعد جزءاً من الميراث الأخلاقي للبرازيل المتعددة الأعراق اليوم.

إن التقسيم الإسباني- البرتغالي للعالم، والغموض الذي اكتنف مكان الخط بالفعل، تسببا في إحدى العواقب الأخرى عند منتصف الطريق حول العالم من الخط الأطلنطي، فقد أصبحت الرحلات الإسبانية حول المحيط الهادي أطول الرحلات الملاحية المنتظمة للعالم المبكر الحديث، محدثة بذلك مجموعة قوية من الروابط الاقتصادية بين المنجمين في جبال الإنديز Andes، والسكان الأصليين، والمستوطنين الأوروبيين في ركن من أركان

جنوب شرق آسيا البحري، والتجار، وأصحاب الحرف، والقرويين في كنف الاقتصاد المزدهر بالصين. بدأ كل ذلك مع الرحلة الأولى حول العالم، التي يقودها فيرديناند ماجلان Ferdinand Magellan، وهو بحّار برتغالي خدم التاج الإسباني.

شقت سفن ماجلان Magellan طريقها عبر المضايق الرائعة، التي تحمل اسمه الآن في القمة الجنوبية من جنوب أمريكا، وقامت بالرحلة الهائلة بعيداً عن الأنظار عبر جنوب المحيط الهادي. لقي ماجلان حتفه في معركة مع السكان الأصليين في جزيرة كيبو Cebu في الفلبين الحديثة Philippines عام 1521، وقام ضباطه في نهاية الأمر بإحضار بعض الناجين إلى إسبانيا. وبوصول النفوذ الإسباني عبر قناة بنما Isthmus of Panama نزولاً إلى الساحل الغربي لجنوب أمريكا، أرسلت عدة رحلات أخرى للاستكشاف عبر المحيط الهادي.

في الجزر التي أطلق عليها الإسبان اسم الفلبين Philippine على اسم ملكهم فيليب الثاني Philip II، وصل توسع التجارة الإسلامية إلى الجزر الجنوبية، وبخاصة ميندانا‌و Mindanao وسولو Sulu، باستثناء الجزر الشمالية. وعندما صارت الاكتشافات الإسبانية أكثر انتظاماً في الستينيات من القرن السادس عشر، وجدوا تجاراً صينيين حول سيبو Cebu وإلويلو Iloilo، وعثروا في المرفأ الرائع لخليج مانيلا Manila Bay على حاكم محلي وقلة من الصينيين. وبناء على ذلك، فقد قاموا عام 1571 بمهاجمة الحاكم المحلي وتأسيس حكمهم الخاص. أما في العام التالي، فنجت المستعمرة الجديدة بصعوبة من هجوم شنه القراصنة الصينيون. وعلى الرغم من أن العداء الإسباني– الصيني قد تكرر مرات عدة، فإن الجانبين أدركا سريعاً أن كل واحد منهما قدم فرصة هائلة للجانب الآخر حتى يتمكن من التواصل.

وفي أواخر القرن السادس عشر، كانت الصين تمر بمرحلة من النمو النشيط لتجارة وإنتاج بضائعها من السلع الحرفية، بما فيها من الحرير، والبورسلين، والورنيش. وحتى عام 1350 أو1400 كان لديها نظام معقد للعملة الورقية التي تستخدم في الصفقات الكبيرة وتجارة المسافات الطويلة، لكن ذلك الأمر انهار بسبب سوء الإدارة. دُفع الآن مقابل الصفقات الكبيرة الحجم بالفضة، لكن الإمدادات كانت أقل ملاءمة؛ إذ إن التجارة تنمو. لذلك أمكن لأي شخص يستطيع الدفع بالفضة في مقابل البضائع الصينية– أن يكسب فائدة إضافية على عملة المعاملات التجارية. إن الفضة الآتية من مناجم بوتوسي Potosi، وجبال الإنديز Andes،

وأخيراً المكسيك، كان يُفترض أن تُدفع مقابل بضائع من إسبانيا، وتُستخدم كعائد ضريبي لدعم الجيوش الإسبانية في أوروبا. وعلى الرغم من ذلك، كانت الأرباح الخاصة باستخدامها لشراء البضائع الصينية جذابة جدّاً، وصار كل من الحرير والبورسلين من سمات الاستهلاك المترف لقاعات الوالي في مدينة المكسيك Mexico وليما Lima. وقد قيل إن الأفارقة العبيد كانوا يرتدون ملابس من الحرير الصيني في منازل ليما العريقة.

منذ ثمانينيات القرن السادس عشر حتى عام 1815، كان يتم تحميل جالون مانيلا Manila Galleon أو اثنين مع الفضة المبحرة كل عام من مانيلا إلى أكابولكو Acapulco على الساحل الغربي للمكسيك. ومع وجود رياح استوائية معتدلة، فإن الرحلة المتجهة غرباً تسير في خط مستقيم، وتطلبت العودة إلى أكابولكو التفافاً طويلاً إلى الشمال لالتقاط الرياح السائدة، وترك جزر هاواي، ورؤية الساحل الذي يطلق عليه الآن كاليفورنياCalifornia وباجا كاليفورنيا Baja California بشكل عرضي؛ وكانت تلك هي أطول الرحلات المنتظمة بعيداً عن الأنظار للعصور المبكرة الحديثة.

عُدّتَ مانيلا Manila نقطة التقاء لا غنى عنها وضرورية، لكنها سلبية بشكل كبير؛ فقد كان التجار الصينيون يحضرون بضائعهم ويأخذون الفضة. وقد بُذِلت جهود ضئيلة في سبيل تطوير المناطق الزراعية الغنية بالقرب من مانيلا حتى بعد عام 1700. ووصل الأمر إلى أن المجتمع الصيني المقيم قد فاق عدد الإسبان بكثير، وسيطر على كل أنواع التجارة. تحولت قلة من الصينيين إلى الكاثوليكية، ومنذ عام 1600 حرص الإسبان دائماً على تعيين واحد من المتحولين باعتباره «قائداً» لأهل بلدته. إن التشديد المستمر على جمع الضرائب والأمور التجارية أدى إلى اضطرابات عنيفة ومذابح للصينيين في عام 1603 وعام 1639، لكن دائماً ما يتذكر كل من الصينيين والإسبان –بسرعة– احتياج كل منهما للآخر.

من وجهة النظر الرسمية الإسبانية، كانت الفلبين Philippines عالماً كاثوليكيّاً، وبدت المغالاة في الإبقاء على المستعمرة أمراً مبرراً بشكل كبير بواسطة عملها في تحويل الوثنيين. وقد كانت عملية التواصل مع الشعوب الإسلامية في مينداناو وسولو دائماً ما تتسم بالعدائية. وكانت أوامر حملات التبشير الجيزويت Jesuit، والفرانسيسكان Franciscan، والدومينيكان Dominican، والأوجستينيان Augustinian هي إرسال العديد من القساوسة. وكانت

ولاياتهم الكبرى في موقع مهم جداً للوجود الإسباني خارج مانيلا وجزر أخرى. وقامت الفلبين Filipinos أحياناً بإغضاب الآباء القساوسة عبر نكاتهم وألعاب التخمين الخاصة بهم، ولكن على المدى الطويل وجدوا أشياء في الكاثوليكية ذات معنى فيما يتعلق بميراثهم الثقافي: كالعرابيين، والماء المقدس، والمسرحية والاحتفال؛ وصاروا الشعب الكاثوليكي الروماني الوحيد في آسيا.

إن جامعة سانتو توماس Santo Tomas بمانيلا مازالت جامعة أساسية حتى اليوم، فقد تم إنشاؤها عن طريق معهد اللاهوت الدومينيكي عام 1611، قبل زهاء خمسة وعشرين عاماً من وجود جامعة هارفارد بأمريكا الشمالية. شعر الدومينيكان بمسؤولية خاصة تجاه جهود تحويل الصينيين إلى المسيحية؛ فقد وجدوا أن بعضاً منهم عنيد في معتقداته غير المسيحية وممارساته، في حين يسأل العديد منهم أسئلة جيدة وبعضهم صار مسيحيّاً متحمساً. قام بعض هؤلاء الدومينيكان بحمل جهودهم داخل الصين نفسها، مؤسسين هناك مجتمعات تحولية في جزء من مقاطعة فوجيFujian، التي نجت من الاضطهاد وجهود تحكم الحكومة. إن الجالونات المانيلية قد تعد من ذاكرة بعيدة، لكن الروابط الثقافية القوية التي صنعتها عاشت.

إن كولومبوس وفاسكوا دا جاما قد يقومان فجأة بتحويل عالم من القرون الوسطى إلى عالم حديث، لكنهما كانا متحفزين لعمليات كبرى ربطت القارات، وأحضرت الفضة والتوابل والسكر إلى أوروبا، وفتحت عالماً وسط النهب والوحشية؛ فاستطاع أتباع يسوع الإيطاليون والدارسون الصينيون الاستفادة من بعضهم.

الفصل الثالث

إحياء الأساليب القديمة
1570 - 1530

لم يشعر الكثير من الناس، في الفترة ما بين 1450 و1700، بالرضا عن الوضع الديني والأخلاقي حولهم، إلا أنه لم يكن منهم من يرغب غالباً في إحداث قطيعة جذرية مع التقاليد؛ إذ إنهم كانوا يتطلعون إلى الآلهة القديمة والحكماء القدامى. أراد الأوروبيون إقامة نهضة تتمثل في إعادة إحياء المذاهب النبيلة القديمة التي كانت موجودة في اليونان وروما آنذاك. كما لم تكن رغبتهم الانفصال عن المسيحية، وإنما أرادوا التطهير والإصلاح الديني. كان الآسيويون يسعون وراء رؤية شخصية عن الإله كريشنا Krishna أو عن أي طريقة صحيحة تجعل منهم حكماء، وأشخاصاً يتسمون بأفضل المثل الأخلاقية؛ مثل المعلم القديم كونفوشيوس Confucius والملوك الحكماء الذين كان يجلهم.

لم تكن هذه الادعاءات مجرد ساتر من الدخان يهدف إلى إخفاء التجديد عن أوصياء الأرثوذكسية أو ضروباً من التضليل اتبعها المجددون. فبمجرد توارث أي تقليد، يفقد كل منهم أصالته ويصبح أمراً اعتيادياً، ويتساهل مع ممارسات لطالما حاربها من قبل، ويصبح بشكل ما أو بآخر قائماً ومريحاً. وخصوصاً عندما تكون تلك العواطف والرؤى قد تم توارثها وحفظها في صورة مكتوبة، فهناك دائماً أناس يقرؤون بعناية تلك السجلات الخاصة بالرؤية الأصلية أو الإلهام، ولا يمكنهم أبداً أن يتخطوا تلك الفجوة الموجودة بين النقاء الأصلي وما اعتادوه في الوقت الحالي. العودة إلى رسالة الإنجيل! يمكن إيجاد طريقة الملوك الحكماء اليوم! يجب على كل مسلم حقيقي ترك تلك الممارسات الوثنية! إلا أن أي تراث عظيم هو نتاج خيوط متشابكة من العمليات المستمرة والتفاعلات، وليس نتيجة وحدة صغيرة، ومن يقوم بالإحياء أحياناً ما يعيد نسجهم بخيوط تجمع بين الطرق القديمة والممارسات والتفسيرات الجديدة محدثاً بذلك نسيجاً جديداً تذهل حداثته الصانع نفسه.

في أوروبا القرنين الخامس عشر والسادس عشر، كانت تلك العواطف إزاء العالم القديم قد تفاعلت بما يثير الاضطرابات بدرجة كبيرة، مع إعادة تشكيل المسيحية وإحيائها؛ فعلى سبيل المثال: كل من تلك الرسوم العظيمة الخاصة بالنهضة تقدم أمثلة من المشاهد الإنجيلية ومشاهد من الأساطير أو التاريخ اليوناني الروماني، التي تم تقديمها بالتقنيات والأشكال العظيمة ذاتها. وقد أسهم الناس في جميع أنحاء الغرب الأوروبي في هذه التغييرات، إلا أنهم دائماً ما كانوا يتطلعون إلى إيطاليا، لتقدم لهم الريادة والأمثلة العظيمة، فعلى سبيل المثال أمعن النظر في وجود الكثير من الخلفيات الإيطالية في مسرحيات شكسبير.

ومنذ القرن الثالث عشر، كان العلماء الإيطاليون يدعون إلى مزيد من الدراسة للرواد القدامى العظام في اللاتينية، وبذل المزيد من الجهد لكتابة اللغة اللاتينية كما كانوا يفعلون، بدلاً من اللغة اللاتينية الخاصة بالقرون الوسطى التي كانت لغة الكتابة الرسمية في القرون الأخيرة. وكانت دراسة اللغة اللاتينية القديمة وكتابة الخطابات والمقالات بذلك الأسلوب القديم قد أدت إلى مجالات مهنية صاحبتها الشهرة الدراسية والسياسية والأدبية.

في عام 1400، كان القليل من المفكرين هم من يستطيعون قراءة اللغة اليونانية. وكان من بين الفوائد الخاصة بحصار القسطنطينية وسقوطها أن الدارسين اليونانيين اللاجئين زاد اهتمامهم، وقاموا بتعليم لغتهم وثقافتهم، وخصوصاً في إيطاليا. وبحلول عام 1460 جلب راهب إيطالي إلى فلورنسا مخطوطة لمجموعة من النصوص ترجمت للتو إلى اللغة اللاتينية، وتعرف باسم هيرميتيك كوربوس Hermetic Corpus. وكان إله النصوص هو الإله هيرميس Hermes؛ إله الكتابة والرسائل، وكان يدعى ميركيوري Mercury باللغة اللاتينية؛ لكن هذه النصوص والتعاليم التي انتشرت حولهم قد منحتها تاريخاً أطول في الحكمة الإنسانية. وكان هيرميس Hermes عند اليونانيين هو تحوت Thoth؛ إله الكتابة المصري، وربما كان موسى Moses أيضاً.

وكان من بين تلك التعاليم الحكيمة: «أن العالم دائماً عبارة عن مخلوق حي، وليس ثمة شيء في هذا الكون فان. إذ إن كل جزء يحيا منفرداً... دائماً ما يكون حياً، وفي عالم واحد دائماً، ويظل مخلوقاً حياً، فلا يوجد في العالم مكان للموت». تم حلول الأرواح لتتجسد مرة أخرى في ظل قوانين آلهة مختلفة معتمدة على طبيعتها الخاصة، فالإنسان

نفسه كان إلهاً، خلقه الرب الخالق ليتأمل ويخدم الكون المخلوق. كان من المعتقد أن كل هذا يتماشى مع المسيحية، وهو ما يظهرها على أنها جزء من حكمة قديمة، ويمكن أن ترى صورة للإله هيرميس Hermes موجودة في كاتدرائية في سيناء.

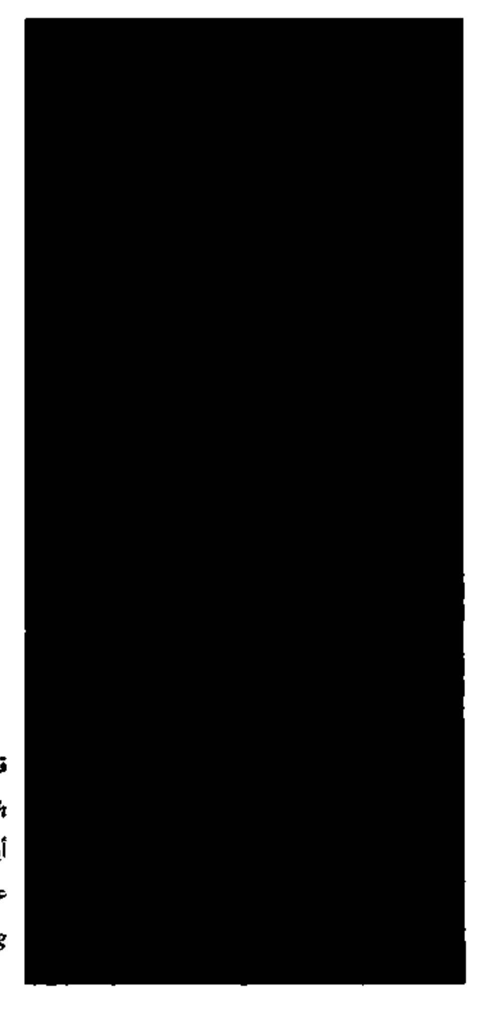
وكان المقصود من التعاليم الحكيمة اختيار قلة معينة من الرجال الأذكياء والروحانيين، ولم تكن من أجل العامة. جعلت هذه التعاليم الأمر ممكناً للكثير من المفكرين أن يكونوا مهتمين بجميع أنواع الأفكار الخاصة بالطبيعة، حتى علم التنجيم (وهو معرفة مصائر الناس من خلال النجوم) والخيمياء (وهي دراسة كيفية تحويل جميع المعادن إلى ذهب)، في الوقت نفسه الذي كانوا يصرون فيه على كونهم مسيحيين صالحين. وكانت شخصية بروسبيرو Prospero – الذي كان إيطاليّاً– من عصر النهضة في مسرحية العاصفة لشكسبير، تشخيص إنجليزي رائع لنمط معروف في لندن التي رسمها شكسبير. هناك أيضاً يوهانس كيبلر وتايكو براهي Johannes Kepler & Tycho Brahe، وهما المساهمان الأساسيان في علم الفلك الحديث. لقد شاركا بشكل كبير في علم التنجيم، وحتى نيوتن Newton كان مهتمّاً بالخيمياء. وكان الإسراف في أنماط المعاني التي كان رجال النهضة مهتمين بها، واهتمامهم الأكبر بوجود أدلة على تلك المعاني– قد قاما بالمزيد من أجل فتح الطريق أمام العلوم، أكثر مما فعلته تلك الآراء التي سبقت العلوم الأخرى، وكانت سبباً في تضليلهم.

في الحقيقة، قد يكون من الصعب جداً تقدير حماسة المفكرين في الدراسة، والمحافظة على النصوص القديمة وتفسيرها، سواء كانت من الفيدا أو من الكلاسيكيات الصينية، أو نقاشات أفلاطون، أو الإنجيل؛ بيد أن المعمار في عصر النهضة يقدم مساراً واضحاً لفهم العاطفة تجاه روما واليونان القديمة. ففي فلورنسا، بجوار صخب الدراجات النارية السريعة، ترى واجهات القصور العظيمة التي بنتها العائلات التي كانت تقطن هذه المدينة في أربعينيات القرن الخامس عشر، حيث ترى تلك القطع الحجرية الخاصة بالطوابق العليا مزينة بالأعمدة المنتظمة بدقة وفقاً للنظام الروماني.

إن التطابق بين مدينة فلورنسا وروما القديمة كان متجذراً في التعبيرات والمؤسسات الخاصة بالمدينة والمواطنة، التي بدت كأنها قادمة مباشرة من روما القديمة. كانت فلورنسا

في أربعينيات القرن الخامس عشر فخورة جدّاً بكيانها السياسي المشترك بشكل واسع، وكانت قد نجت من هجمات شنتها دول أكثر قوة منها وكانت في أوج قوتها. وكان انتصار داوود David على جالوت Goliath قصة إنجيلية مفضلة. وكان موضوع داوود هو أول ما حمل فن النهضة على الاحتفاء بشكل مذهل بالجسد البشري على شكل تمثال من البرونز لداوود صنعه دوناتيلو.

طلبت هذا التمثال عائلة مديتشي Medici العظيمة في أربعينيات القرن الخامس عشر، وكان أول تمثال لرجل يقف عارياً تماماً. وكان ثمة طلب آخر لعائلة مديتشي، وهو لوحة



قصة العهد القديم لانتصار داوود *David* على جالوت *Goliath* التي احتفل بها دوناتيلو في هذا التمثال، وهكذا أيضاً جمال الجسد البشري. وكان هذا التمثال قد طلبته عائلة مديتشي *Medici* وهم حكام فلورنسا. إريتش لبسينج *Erich Lessing*، آرت سورس، نيويورك.

«مولد فينوس» التي رسمها ساندرو بوتيتشيلي Sandro Botticelli، والتي أكملها بعد عام 1482. توضح هذه اللوحة شيئاً من المنطق الذي تمكنت به الأسطورة اليونانية من نقل شيء له الدلالة نفسها لعالم حي ومليء بالأعاجيب. ففي لوحته تبدو فينوس العارية واقفة على الشاطئ فوق صدفة بحرية، ويوضح بوتيتشيلي هنا أنه وعلى أعلى المستويات لم يكن ثمة توافق بين عاطفة الجسد وأكثر الايحاءات روحية لدينا.

كانت حكومة مدينة فلورنسا والكنيسة والاتحادات والعائلات الكبيرة قد أنفقت بسخاء على الكنائس الجميلة والقصور، والقاعات الخاصة بالاتحادات، والرسوم والمنحوتات الجميلة، مثل صورة العذراء المباركة وهي ترفع يدها في دهشة خفيفة وإذعان بريء لأخبار الملاك المذهلة. إن تلك الأعمال الرائعة لمناظر البلدة والمناظر الطبيعية والأزياء والأعراق البشرية والأصول الحية وغيرها تبرز مشهد مولد المسيح ومشاهد إنجيلية أخرى. لقد كانت إيطاليا في عصر النهضة متداخلة بصورة عميقة مع جيرانها من الشرق، فالعناصر الموجودة في لوحة جيوفاني Giovanni وجينتل بيليني Gentile Bellini مثل العمائم ومعمار الكنيسة البيزنطية، والزرافة، تحيي لوحة للقديس مارك Mark وهو يعظ في الإسكندرية. فلقد عمل البيلينيون لأعوام طويلة في البلاط العثماني، وزينت العديد من الأعمدة الكلاسيكية والأقواس التي صممها مهندسون معماريون إيطاليون الواجهات الموجودة في إسطنبول.

لم تكن هذه الطرق الوحيدة التي من خلالها كان هؤلاء البارعون من عصر النهضة متصلين بعالم من التجارة، والسياسة التي غالباً ما كانت قاسية، وإنما اتجه الكثير من الشباب إلى الأكاديميات لتعلم اللغة اللاتينية ليس فقط بدافع حبهم للحضارة القديمة، ولكن لأن إجادة اللاتينية تؤهلهم أيضاً لتبوؤ منصب سكرتير رجل عظيم أو منصب حكومي. إن خلط المهنة بالفكر لم يكن أمراً مستبعداً على هؤلاء الذين جعلوا من الشباب المتعلمين بصورة تقليدية حكاماً على الهند البريطانية في القرن التاسع عشر، أو جعلوا من جامعة هارفارد أو ييل نقطة انطلاق إلى نيويورك، أو بداية لشركة محاماة في عصرنا الحالي.

يمكن أن نرى في أحد المفكرين الايطاليين المميزين، كنيكولو مكيافيلي Niccolo Machiavelli، الذي كان يكتب في أوائل القرن السادس عشر، شيئاً يبدو أقرب إلى

كونه بداية التفكير العلمي الاجتماعي. فقد كان كتابه «*الأمير*» وثيقة سياسية واضحة وصريحة بشكل قاسٍ عن الأحوال الخاصة بالنجاح والإخفاق السياسيين في إيطاليا إبان ذلك العصر؛ إذ يقول في كتابه إن الكذب والخيانة قد يكونان ضروريين من أجل البقاء السياسي. لكنه كان يصف هذا الأمر في كتابه «*الأمير*» بشكل عارض، بينما في كتابه الأكثر ثراءً والأطول: «المطارحات»، نموذج مدهش للمعرفة العميقة باليونان وروما القديمة تدل على طريقة تفكيره. فلم تكن روما بالنسبة إليه مجرد نموذج مثالي نبيل، وإنما عالم موحش وقاسٍ كعالمه تماماً. وقد كانت نقاشات مكيافيلي عن روما القديمة عبارة عن استدعاءات للماضي البعيد وفق أنه غريب ومعقد مثل لوحة بوتيتشيلي «*مولد العذراء*».

يود الكثيرون –ممن تأثروا بإعجاب النهضة بالجمال البشري– الاعتقاد بأن هذه التغييرات قد ساعدت على تحرير المرأة من السلطة الذكورية وكراهية النساء في العصور الوسطى. والأدلة على ذلك متناثرة ومتداخلة، فكان يعرف عن البندقية، تلك المدينة الثرية والعالمية، وجود «المومسات الأمينات» المتمرسات اللاتي كن يدعمن أنفسهن عبر إقامة العلاقات الجنسية، طويلة المدى وقصيرته، وكن في بعض الأحيان أيضاً يتلقين الترحاب كمشاركات في أرفع الصالونات الأدبية. غير أن التدقيق عن قرب يظهر أن الزوجات والبنات في البندقية كن يخضعن لسيطرة محكمة ويمكن النظر إلى المومسات كأدوات مرحب بها في مجتمع رفيع يسوده الذكور، وأنهن وسائل للترفيه الجنسي للشباب الأرستقراطي الذين نادراً ما رأوا فتيات صغاراً من طبقتهم نفسها.

إن الدافع لتشكيل تراث عظيم وإحيائه يمكن أن يظهر بشكل مختلف إذا ما كان هذا التراث دينياً، أو ذا عاطفة تجاه حقيقة تتجاوز حدود الإمكانات البشرية أو المعرفة أو الوفاة. في أوائل القرن السادس عشر، وفي بلاد البنغال الغنية والمزدحمة بالسكان، التي انقسمت في يومنا هذا بين بنجلاديش وولاية البنغال الغربية الهندية، كان هناك مدرس ديني يسمى سري كريشنا Sri Krishna، وهو الذي أرسى قواعد العاطفة والإخلاص تجاه الإله الهندوسي فيشنو Vishnu، وخصوصاً في أثناء ظهوره بصورة الإله كريشنا. وكان يتم التعبير عن هذا الإخلاص عبر الغناء والرقص الوجداني، الذي كان من الممكن أن يشارك فيه جميع الهندوس دون الإشارة إلى أكثر الأماكن المتأثرة بحاجز الطائفة أو

الجنس.

هناك العديد من الحواجز في التقاليد الهندوسية، فهناك جماعات تتزوج من بين أفرادها وتتجنب أي أشكال من التواصل مع أي من المجموعات الأخرى، وهي التي تطورت وزادت تفاصيلها أكثر على مر القرون. إن التفسير الخاص بتلك النصوص المقدسة وممارسة الاحتفالات الواردة فيها أصبحت أهم الواجبات الأساسية للبراهمة، وهم الطبقة الكهنوتية العليا. كان الناس يعتقدون أن تراكم الأفعال الجيدة أو السيئة يحدد الطائفة التي سيولد بها الشخص، وفي الوقت ذاته كان هؤلاء ممن على بصيرة وعاطفة أعمق يسعون إلى الهرب من العجلة الوحشية لإعادة الميلاد وإنقاذ الآخرين منها. وكانت الهندوسية قد أسفرت عن صدور أعمال فلسفية من أكثر الأمور شرحاً وتطوراً، وخيال مليء بالصور التي لا تضاهى عن الآلهة الموجودة بالمعابد التي أجازت تنصيب ملك للهندوس، بالإضافة إلى الكثير من سلاسل القصص والرويات عن حروب الآلهة والشياطين والمحاربين الأرستقراطيين.

كان أحد أجزاء تلك السلاسل من الروايات التي تتحدث عن بهاجفاد جيتا Bhagavad Gita الرائع، والتي تصف أحد المحاربين الأرستقراطيين الذي كان مرتعباً من فكرة أن من الممكن أن يقوم بقتل أقاربه أو معلميه القدامى في أي من معاركه التالية، بيد أن قائد عجلته الحربية علمه أهمية وضرورة قيامه بأداء واجباته تجاه المجتمع دون أنانية. وبعد ذلك قام قائد العجلة الحربية الخاصة به بالكشف عن شخصيته على أنه الإله كريشنا العظيم، وبهذا تصبح الجيتا Gita من أوائل النصوص التي تفتح إمكانية النزاع الشخصي البسيط والمباشر، مع الإخلاص للإله كعقيدة وممارسات دينية قوية مثل تلك الاحتفالات المنصوص عليها في النصوص الهندوسية القديمة أو نبذ الحياة الدنيا.

إن التركيز على بهاكتي Bhakti، إخلاصاً أو تنازعاً، يبدو للمرة الأولى كأنه قد أصبح جزءاً من الهندوسية في جنوب الهند في القرن الحادي عشر، وغدا واحداً من الاتجاهات الرئيسية في الشمال بعد عام 1400. إن نصوص بهاكتي عبارة عن قصائد وأغانٍ عاطفية بشكل قوي، مكتوبة بأي من اللغات العامية لا باللغة السنسكريتية التقليدية. ومن ثَمّ كان من الممكن فهمها، وأمكن مشاركة المشاعر والتعبير عنها من قبل عامة الناس، وليس فقط

من جانب الكهنة البراهمة. لم تقدم محاولات الكهنة البراهمة المتعلمين لتجميع النصوص وتحريرها وتنظيم مدلولاتها الفلسفية، إلا القليل للعامة من الناس.

وعلاوة على ذلك، كان الحكام في الشمال، بما في ذلك البنغال، من المسلمين. لم يكن هناك أي حكام من الهندوس حتى ينفقوا ببذخ على بناء المعابد، أو دعم الكهنة البراهمة واحتفالات الفيدا Vedic. لقد كان الغناء والرقص البسيط الخاص بالبهاكتي Bhakti ذا قبول كبير في هذا الموقف. ولذا، لم يكن من السهل الوصول إلى أي من الآلهة بعد ذلك، أو لم يكن ثمة أكثر انفتاحاً بالنسبة إلى البهاكتي أكثر من الإله كريشنا. وبالنسبة إلى تابعي بهاكتي، كانت عملية التكرار المستمر لأسماء الآلهة تجعل الفرد في حضرة الإله على الفور؛ «هاري كريشنا.. هاري كريشنا.. كريشنا، كريشنا، كريشنا.. هاري، هاري» (احضر كريشنا، احضر كريشنا.. كريشنا، كريشنا، كريشنا.. احضر، احضر). قد يردد التابع الحقيقي اسم الإله آلاف المرات يومياً. وأي شخص يمكنه المشاركة، فليس الكهنة البراهمة أو الأمية أو عدم تحدث اللغة السنسكريتية عوائق أمام أحد، إلا أنه وفي الفهم الخاص لدى أتباع بهاكتي، لم يكن ثمة شيء جديد في تلك الأشكال من الإخلاص والتبعية. لقد ذُكر كريشنا في النصوص القديمة، وكذلك الإحساس بالارتياح عند تواصل البشر مع السماء، وخصوصاً عبر مناداة أسماء الآلهة.

يُعد كريشنا أحد مظاهر الإله العظيم فيشنو Vishnu، وكان أتباعه غالباً ما يسمون فايسنافا Vaisnavas، أي عبدة فيشنو. وكانت الصورة الجوهرية في هذا الإخلاص الشخصي متركزة في العاطفة، ولم تكن الشابات من النساء يقدرن على مقاومة صورة كريشنا راعي البقر أو صوت قيثارته. وكن يهربن مرتجفات من الرغبة في اقتراف الذنب، أو يهربن من أزواجهن لممارسة الحب معه بعيداً في الغابات. وكانت تلك الصور الشهيرة لكريشنا ومحبوبته رادها Radha تظهرهما وهما متشابكان تماماً لدرجة أن أحداً ما لا يمكنه معرفة أين يبدأ جسد أحدهما وأين ينتهي. وغالباً ما كان يتم تمثيل كريشنا بجلد لونه أزرق داكن أو أخضر فيروزي، متشابكاً مع رادها ذات الجسد الذهبي اللون.

كان فيسفامبهارا Visvambhara، الذي اعتنق الاسم الديني كريشنا كايتانيا Krishna Caitanya (من يعرف الناس بكريشنا)، قد ولد في عام 1486 في أحد منازل الكهنة البراهمة

في قرية بنغالية ذات عادات تعليمية دينية صارمة. كانت هناك بعض القصص التي تروى عن ذلك الوضع الصعب الذي عاشه الكهنة تحت الحكم الإسلامي، إلا أنه في شبابه كان ذلك الشاب الذكي، ووالداه مرتاحان لشغفه بالكتب التعليمية باللغة السنسكريتية، وهو ما يعد بدايات الإعداد للعمل مدرساً بالمدرسة. وعندما كان في العشرين من عمره ذهب إلى مدينة الحج الأعظم في جايا Gaya، حتى يؤدي المراسم الخاصة بجنازة والده. وهناك حدث شيء ما، جعله ينخرط في البكاء طوال حياته إذا ما حاول أن يفسره.

فهناك، عندما عاد إلى قريته ومسقط رأسه، بدأ يقود أصدقاءه في أمسيات غناء ورقص باسم كريشنا، وهو ما تحول سريعاً من مجرد حفلات في القرى إلى مواكب تجوب الشوارع. وكان الكهنة البراهمة الموجودون قد رأوا خطراً على حياتهم الدينية في تلك اللحظة، وأشاروا إلى الحكام المسلمين ومخاطرهم على تلك اللقاءات التي كانت غير منظمة وخارج نطاق السيطرة؛ لكن كيتانيا Caitanya كان قد تجادل بهدوء مع أحد الحكام المسلمين الذي أصبح بعد ذلك من المخلصين لكريشنا. لم تكن الهندوسية ديانة تبشيرية من قبل، ولم يكن ثمة طريق واضح من أجل تحويل هؤلاء من غير الهندوس إلى الهندوسية، فكانت تلك القصص تمثل خطوة رئيسية تجاه مفهوم الهندوسية مقارنة بالديانات ذات الانتشار العالمي مثل المسيحية والإسلام والبوذية.

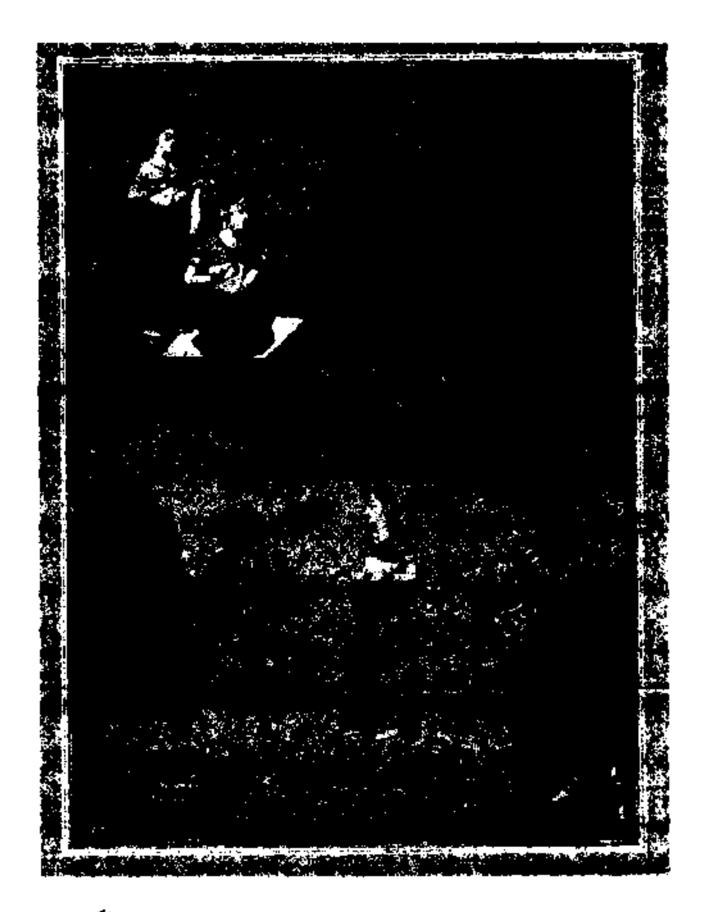
وحتى يستطيع كيتانيا القيام بنشر رسالته، ويخفف التوتر في مدينته ولو قليلاً، قام كيتانيا بأخذ نذور ساناسين sannayasin، وهو أحد الزاهدين المتجولين، يسافر بأقل المتاع ووسائل الراحة من معبد إلى آخر، ومن مكان مقدس إلى آخر من جنوب الهند حتى أقاصي الغرب والشمال. وقد كان هذا ولايزال دوراً مبجلاً للهندوسية، قام به بعضهم بعد انتهائهم من تربية أولادهم وتزويد عائلاتهم بما يحتاجون إليه. إن جميع الساناسينيين هم سعاة وحجاج، وكان كيتانيا أيضاً مبشراً لممارساته ورؤاه الدينية المخلصة.

لدينا قدر كبير من الأساطير الدينية، والقليل من المعلومات التي يمكن الاعتماد عليها بشأن هذه الرحلة، التي استمرت منذ عام 1508 حتى عام 1510. وعلى الرغم من أن كيتانيا Caitanya كان غير قادر على تحدث جميع اللغات المحلية، فإنه كان قادراً على تبادل وجهات النظر مع كهنة المعابد باللغة السنسكريتية. وكان قد بدأ رحلته في بوري،

بالقرب من الساحل الشرقي الذي يقع جنوب غرب البنغال، واستقر هناك في نهاية الرحلة. وبحلول ذلك الوقت كان قد رافقه وتبعه هؤلاء المخلصون المنضبطون الذين لم ينظروا إليه أنه مجرد معلم عظيم، وإنما أنه الرب كريشنا العظيم ذاته، الذي تجسد في صورة بشرية حتى يجلب إليهم جو عبادة بسيط وسهل. وفي آخر تلك المنعطفات التي كانت تميز تعاليمه عن تلك التي يتم تلقينها في مدارس فياسنافا Viasnava Schools، كان أقرب التابعين المخلصين له قد رآه يظهر التمثال الذهبي اللون لمحبوبة كريشنا رادها، ومنذ ذلك الحين كان حنينها المعذب لكريشنا قد تملك كيتانيا بشكل كامل، وأصبح أكثر قداسة وبعداً عن العامة من الناس.

تدعي بالطبع جميع الديانات حصولها على بعض القدرات التي تتخطى قدرات تفكير البشر: «اقرؤوا القرآن، فهو آخر كلام الله»، «آمنوا بالمسيح، الابن الوحيد للرب»، «انتبهوا إلى عقل بوذا الواحد، الذي تشاركونه جميعاً». وهكذا فإن جميع الديانات لها أشياء لا تتطابق البتة مع التي يراها الآخرون. وكان الفياسنافا Vaisnava من البنغال مصرّاً على أن البشر والحقائق اللاهوتية عبارة عن شيئين متوازيين ومتداخلين. بالنسبة إلى بعضهم، كان الاحتفال بالآلهة من خلال الرقص والغناء، وتلك الصور الباهرة بالمعابد، والرؤية الموسمية للإله كريشنا بين الفتيات– شيئاً كافياً. لم يكن كيتانيا Caitanya من البشر العاديين، إذ بدا تواقاً إلى قضاء وقته بالكامل مع إلهه، فعندما أيقظه أحد أتباعه من أحد تلك الأحلام الجميلة التي يحلمها بكريشنا، صرخ مؤنباً له وتمنى لو تمكن من العودة إلى الحلم مرة أخرى. لقد هام منطلقاً على صفحة الماء من أجل مطاردة رؤيا كريشنا، وأنقذوه بصعوبة من الغرق. وفي الأعوام الثلاث عشرة الأخيرة، كانت تجري حراسته من جانب أتباعه، وكانت أكثر المرات شوقاً بالنسبة إليه هي أحسن حالاته العقلية. وكان تابعوه قد فسروا الأمر لأنفسهم أن الإله كريشنا العظيم أراد أن يتجسد في أفضل أشكال الإخلاص الديني، وحتى يقوم بذلك بشكل صحيح لم يتجسد فقط في شخص كيتانيا Caitanya، وإنما وصل إليهم تشوقه إلى رادها.

إن تلك التفاصيل اللاهوتية هي أقل أهمية من تلك الممارسات المقبولة عالمياً– كالغناء والرقص، والإنشاد بأسماء الآلهة– وكل تلك القصائد لاتزال موجودة في البنغال حتى



الإله كريشنا يتحدث مع صديقة محبوبته رادها. صور حية نشرت الإخلاص العاطفي لكريشنا بين الهندوس من جميع الفئات. معرض فرير *Freer* للفن. مؤسسة سميثسونيان *Smithsonian*، واشنطن العاصمة: شراء *F1991.2*.

يومنا هذا، وفي القرن العشرين انتشرت حول العالم باسم مجتمع كريشنا– أتباع «هاري كريشنا». إن تلك الصور الخاصة بكريشنا ونشوة كيتانيا Caitanya بالتمثال الذهبي موجودة على مواقع الإنترنت في أيامنا هذه. ويعني هذا أن كيتانيا Caitanya لم يقدم إلى بلاد البنغال الفقيرة والوضيعة أكثر من الغناء والرقص. قد يقول بعضهم إن هذا شيء كافٍ، عندما يكون مصحوباً بالمشاعر والعاطفة كما هو مذكور في الأنشودة التالية التي غناها كايتانيا: «دع أرض جسدي تختلط بالأرض التي يمشي عليها محبوبي. دع نار جسدي تكون تلك المرآة التي تعكس وجهه. دع ماء جسدي يختلط بالماء الذي يسبح فيه. دع هواء جسدي يلف جسده المرهف».

وبحلول عام 1500، كان في العالم الهندي معلم ديني عظيم آخر، كان أكثر اختلاطاً بالمجتمع. إنه ناناك Nanak، الذي أصبح أول زعيم ديني للديانة السيخية، نشأ في الهند الشمالية، وكان قد تربى على طريقة جيوش المغول Mughal. لقد نشأ هندوسياً، وكان أقل حبّاً للمطالعة من كيتانيا. وكان الإسلام من حوله في كل مكان، كمصدر للرؤى الدينية، بالإضافة إلى الغزو والاضطهاد. وبدا أنه قد بُهر بروح المساواة بين المسلمين أكثر من الهندوس في أي مكان. وفي عام 1496، كان قد حصل على خبرة دينية جعلته يدعي أنه ليس هناك ما يسمى بالإسلام أو الهندوسية. وبينما كان يسافر مع أتباعه في ربوع الهند الشمالية، تجاهلوا جميع القيود الخاصة بالاختلاط الاجتماعي مع الجماعات الطائفية، وفضلوا البقاء مع القلة القليلة من الأصدقاء في طائفتهم على أن يكون لهم داعمون من الصفوة. لقد كانت القوانين الخاصة بمشاركة الطعام مع الآخرين حاسمة في المجتمعات الطائفية، إلا أن ناناك كان يتحدى تلك القوانين بشكل مباشر. لقد قام بتنظيم مآدب خيرية للطعام، مفتوحة لكل جائع. وبقي اجتماع السيخ على الطعام سمة خاصة بتعاليمهم.

وعلى الرغم من أن العديد من الهندوس من أمثال كيتانيا آمنوا بأن عليهم أن ينسحبوا من حياتهم الدنيوية، حتى يكرسوا أنفسهم للمطالب العاطفية الروحية، فإن السيخ؛ أتباع ناناك، كانوا مؤمنين بأن الحياة العادية الخاصة بالعمل والعائلة هي الشكل الأفضل للحياة الدينية. وكانت تلك التعاليم والأناشيد الخاصة بالزعيم الديني ناناك مليئة بالصور البسيطة المرسومة من حياة الناس العادية والاحتفالات التي كانت تميز مراحل حياتهم. ألف العديد من زعماء الدين العظام، الذين أتوا من بعده، القصائد والأغاني التي تم تأليفها بلغة بسيطة، مستخدمين كلاً من المصطلحات الإسلامية والهندوسية. لقد كانت جميع تعاليمهم مليئة بالنقد الحاد للحكام المسلمين الفاسدين، وزيف رجال الدين من الهندوس.

و كان جوبيند سينغ Gobind Singh، الذي كان آخر زعماء الدين في أواخر القرن السابع عشر، قد علم تابعيه قائلاً: «اجعل الحكمة الإلهية الزعيم الديني والنور لروحك»، ليس في ملاجئ الغابات، وإنما في الحياة المليئة بالعمل. في ذلك الوقت، كان التعصب الإسلامي لدى الإمبراطور المغولي أورانجزب Aurangzeb والإحياء الهندوسي يضيقان

المساحة على هؤلاء «الذين لم يكونوا هندوساً أو مسلمين»، وكان جوبيند سينغ قد أكد لتابعيه أنه من القانوني أن يستلوا سيوفهم. وبحلول عام 1690، كان السيخ يحاربون حروباً كاملة ضد قوات المغول. لقد تبقى منهم بعض أفضل المحاربين الهنود، وكذا أفضل رجال الأعمال، وكانت لديهم أنواع مختلفة من الزعماء الدينيين. وفي أواخر حياته، زهاء عام 1600، قام جوبيند سينغ بأخذ مجموعة من تلك الأغاني والتعاليم الدينية الخاصة بهم، وجمعها في كتاب جرانث granth وادعى أن هذا الكتاب سيكون المعلم للسيخ بعد ذلك؛ وهو بالفعل كذلك، حتى الآن.

كانت تلك التقاليد الصينية الثلاثة الكبيرة، وهي الكونفوشيوسية والبوذية والداوية، قد أوضحت أشكالاً كبيرة من القدرة على الإصلاح والتجديد. فالرؤى وأداء الحج كانت لها أماكن خاصة بالنسبة إلى الداوية الأصلية، وخصوصاً في البوذية، التي جاءت ومعها أصولها الهندية الغنية بالصور والأفكار بشكل مذهل. وبعض القراء الذين قد يكون لديهم خلفية عن العادات الكونفوشيوسية لم يتوقعوا أن توجد بها الكثير من الأفكار والرؤى. من الممكن أن تبدو بمظهر الغث، والشَّكّي، والتطلعي، والمتعلق بالضمير في مطاردة الحكومات الفاضلة؛ إلا أن وو يوبي Wu Yubi (من الممكن أن يكون أفضل زعيم كونفوشيوسي حي عام 1450) كان خيالياً.

كان لدى وو الكثير من الأحلام التي زاره فيها كونفوشيوس نفسه، والملك وين Wen من سلالة الزهو Zhou منذ بداية الألفية. وكانت زوجة وو نفسه قد راودها في المنام أن كونفوشيوس قد جاء على بابها وأرسل إليها خادماً ليسألها عما إذا كان وو بالمنزل. ويزيد عن ذلك، أن وو يوبي كان على عكس كونفوشيوس وأتباع الكونفوشيوسية نفسها، غير مهتم بالعمل كموظف حكومي أكثر من أي عضو آخر؛ لكن وو كان كونفوشيوسيّاً حقّاً في حياته وأحلامه. وكان كونفوشيوس نفسه قد حلم بدوق زهو Zhou (أخي الملك وين، والبطل المعروف لدى الصين القديمة). لقد كان تفاؤل كونفوشيوس العميق بشأن احتمالات العقل البشري غير منفصلة عن قناعته بأن البشر العاديين قد أنتجوا نظاماً اجتماعياً ممتازاً في أيام الملك وين ودوق زهو. كان كونفوشيوس يحلم بأن يجد حاكماً يستعمله، إلا أنه لم يكن يرغب في خدمة الحكم الفاسد أو غير الشرعي. ففي تلك الأوقات

المظلمة، كانت أفضل الطرق من أجل الحفاظ على كرامة الإنسان هي أن تتابع في طريقك أحلام الماضي؛ حيث كانت الاستقامة الأخلاقية والتناغم الاجتماعي أمرين حقيقيين على الأرض، وأن تعلم الأطفال كيف يعيشون ليخدموا الحكام الأفاضل. لذا، كانت الأحلام والانسحاب من حياة العامة أجزاء من صورة كونفوشيوس ذاته.

لقد كانت تلك السلالة الغريبة والواضحة من أسرة يوان المغولية Yuan قد انحدرت من الصين في عام 1368، وبذلك تم الإعلان عن ظهور سلالة صينية أخرى جديدة لمنج. هناك العديد من الأسباب بأن لدى الكونفوشيوسيين الآن العديد من الأفكار التي أصبحت مفهومة أكثر من تلك التي كانت موجودة لديهم منذ أكثر من قرن، وربما أكثر. وعلى مدار عقود، كان المصلحون الثقافيون للمدرسة التي كان يسميها الصينيون داكسو Daoxue (dao shweh)؛ مدرسة الطريق- وهم من نطلق عليهم الكونفوشيوسيين الجدد، يدعون إلى محو آثار البوذية. لقد سعى الكونفوشيوسيون الجدد إلى تطبيق معايير حياة الأسرة والمجتمع التي اعتقدوا أنها مشتقة من الكلاسيكيات الصينية، التي قدمت مثالاً عن صورة المجتمع المثالي في أيام الملك وين ودوق زوهو. وكانوا قد وعظوا الحكام وكبار الوزراء حتى يبقوا على تلك الصورة المحدودة غير المحاربة، وغير الطامعة في الحكم.

في أوائل عهد مينج Ming بدا الكونفوشيوسيون الجدد كأنهم انتصروا بإنشائهم لتجمعاتهم ومؤسساتهم الجديدة، واستخدام ترجماتهم الخاصة للكلاسيكيات في الامتحانات الخاصة بهم، التي كانت الطريق الوحيد الذي يمكنهم من خلاله خدمة الإمبراطورية البيروقراطية. لقد كان الإمبراطور المؤسس مينج محارباً قاسياً، وكان يعلم أنه في حاجة إلى هؤلاء العلماء من الكونفوشيوسيين الجدد، إذا أراد حفظ السلام في أرجاء الإمبراطورية الكبيرة التي كونها؛ إلا أن ما كانوا يتظاهرون به من استقلال للحكم والأفعال الأخلاقية لم يكن ذا فائدة بالنسبة إليه.

اعتلى ابنه العرش بعد الإطاحة بحفيد الإمبراطور المؤسس في حرب أهلية. لقد كان إرسال الإمبراطور الغاصب لأساطيله العظيمة في المحيط الهندي- أحد استخداماته لمسؤولياته السياسية الكبرى للمخصيين في القصر، الذين أصر الكونفوشيوسيون على أن يتم توظيفهم في القصر لرعاية النساء هناك. وكان وو يوبي، بكل أفكاره الكونفوشيوسية

الجديدة، قد أتى إلى العاصمة أول مرة في عام انتصار الغاصب. لقد كان أمراً انتحارياً القيام بانتقاد الغاصب بكلام مكتوب على الورق، إلا أنه كانت هناك تلميحات بأن وو وأصدقاءه الجدد لم يقوموا بخدمة حاكم غير شرعي مثله.

كان الكونفوشيوسيون الجدد قد علموا أنه من خلال الحياة المليئة بالدراسة وتنمية النفس، يمكن لكل منا أن يقوم بتطوير بوادر الخير البشري الموجودة لديه، حتى نصبح حكماء وذوي نزعة أخلاقية ممتازة كما كان كونفوشيوس ومؤسسو زوهو. لا يمكن لأحد البحث عن هدف أفضل من الحكمة. لقد كانت عملية السعي وراء هذا الهدف عبر الدراسة والتأمل، وتعليم الطلاب الذين أصبحوا من التابعين، وبناء أفكارهم ومتطلباتهم على الحكمة– كل هذا كان مرحلة شائعة في حياة أي منهم خارج العمل؛ بل لقد ذهب وو يوبي إلى أبعد من ذلك بعدم القيام بالمرور بهذه الامتحانات من أجل الحصول على الوظيفة. لقد كانت تعاليمه متمركزة حول اكتشاف العقل البشري غير المنقسم، الذي يعتقد الكونفوشيوسيون أنه أساس السلوك الأخلاقي. أما بالنسبة إلى وو، فقد كان يركز على الجدية الأخلاقية، وكان يرى أنها المفتاح الرئيسي لهذا الاكتشاف، والأكثر من ذلك غرابة من أجل الاستيقاظ صباحاً، والعمل كمزارع لنفسه وتلاميذه في سبيل مساعدة نفسه في تحقيق تلك الجدية.

في أواخر أربعينيات القرن الخامس عشر، تقلد معظم مثقفي الكونفوشيوسية Confucian المناصب، إلا أن العديد منهم استمر فقط فترة وجيزة فيها، بما في ذلك أتباع وو يوبي Wu Yubi الذي ركز اهتمامه على العقل والجدية، ومن هؤلاء الأتباع لوو ليانج Lou Liang، وقد زاره في أواخر حياته شخص غريب، وكان شاباً ضخماً، وهو ابن مسؤول رفيع المستوى صار اسمه فيما بعدُ وانج يانج مينج Wang Yangming. شرح لوو Lou لوانج Wang علم «الاستقصاء عن الأشياء» وهو دراسة النصوص والوقائع المقدمة من قبل الكونفوشيوسيين الجدد، مما فتح الطريق أمامه للوصول إلى الحكمة. وبدت هذه المقابلة الوجيزة بمثابة الشرارة التي أشعلت الحريق. بدأ وانج الشاب بحثه المضني باختبار قوته في مراقبة الطبيعة ومعرفة النصوص، مدركاً أنه قد لا تكون هناك نهاية لعلم «الاستقصاء عن الأشياء». وبدأ بممارسة التأمل واكتشف أنه لم يستطع التوقف عن التفكير

بوالديه، وأدرك أن هذه الأفكار ما هي إلا جزء من بنائه العقلي. نجح وانج في الاختبارات، وعمل في وظائف مكتبية روتينية، فكره هذا الروتين، ثم انخرط في مواجهات سياسية كبيرة.

وفي عام 1505، اعتلى عرش الإمبراطورية إمبراطور شاب كان أبله للغاية، ووقع في أيدي بعض خصيان القصر الملكي الفاسدين المتعطشين للنفوذ. وعندما قام المسؤولون بالاحتجاج على هيمنة الخصيان على البلاط الملكي، ضربوا بشكل علني، ونفوا إلى مكان بعيد قرب الحدود، واغتيل بعضهم الآخر في الطريق، ومات البقية للإصابة بمرض الملاريا. لم يتطلب منصب وانج البسيط أن يُبدي رأيه في شيء، لكن معتقداته الكونفوشيوسية جعلته يبدي رأيه. وكنتيجة لهذا تم ضربه، وأرسل للعمل في مكتب البريد جنوب غربي المنطقة التي تنتشر بها الملاريا. وصار وانج شخصاً كفؤاً وشجاعاً في وجه هذا الخطر المحدق، فكان يساعد العمال في أعمال الزراعة وتقطيع الأخشاب، وكان يقوم بالغناء أيضاً، كي يجعل الخدم يحتفظون بروح معنوية عالية. ومثل العديد من الصينيين، أحضر معه كفنه الخاص، ليكون متأكداً من أن كل شيء سوف يسير بشكل سليم، وكان في المساء يقوم بممارسة التأمل، ويضع الكفن أمامه.

أدت هذه التجربة ذات العواقب السياسية القاسية، التي تبعتها ليال من المواجهة الحرفية مع الموت، إلى التقدم الخارق لوانج يانج مينج في فهم الألغاز المخيفة لتراث الكونفوشيوسيين الجدد. وبهذا كانت الطريق إلى الحكمة الكاملة عبر الدراسة، وتهذيب الذات. هل ينتهي هذا يوماً؟ وكيف يمكن أن نتصرف بطريقة تجعلنا ندرك الأخلاق الجيدة داخلنا؟ وهو يرى أن «العشرة آلاف صفة اكتملت داخله». كانت هذه هي العناصر الأساسية في عقل وانج فعلاً، التي أمكن تعزيزها بالدراسة. كما توصل وانج أيضاً إلى أن «المعرفة والسلوك أمر واحد»، فالعقل قادر على التمييز بين الخير والشر، والاستجابة إليهما بطريقة مناسبة. على سبيل المثال، عندما نشتم رائحة سيئة، فإننا نبتعد عنها، ذلك إن لم نمنع اعتباراتنا الأنانية الخاصة بالسلامة المهنية والشخصية من التدخل.

وفي عام 1510، توفي أكثر الخصيان نفوذاً في البلاط الملكي، وكان الإمبراطور الأبله وقتذاك مايزال على عرش الإمبراطورية، وبدأت وظيفة وانج السياسية تنتعش؛ إذ سافر

في جميع أنحاء العالم، وقام بإلقاء محاضرات تحدث فيها عن أفكاره الجديدة في مجالس بها أعداد كبيرة من الدارسين. كان وانج ناجحاً جدّاً في ابتكار أفكار لإعادة السلام للمناطق التي بها اضطرابات بسبب اللصوص والثوار. وتعامل وانج بشكل حاسم تجاه الثورة الخطيرة التي قام بها أحد أمراء القصر الإمبراطوري. ومنذ عام 1521 حتى عام 1527 لم يعمل في منصبه؛ لأنه كان منشغلاً بإلقاء المحاضرات والكتابة، وتوفي في 1529 عندما كان عائداً من بعثة لقمع ثورة قبلية في الجنوب الغربي. احتشد حوله الطلاب في سنوات تقاعده، وأدت أفكاره الشخصية إلى حدوث تغييرات جذرية. وقد علم طلابه أن أساس التكوين الفكري يمكن أن يتم إدراكه فقط عبر بذل مجهود أخلاقي متواصل، لكن هذا الأساس ليس له علاقة بالخير أو الشر، بل بحرية الإرادة التي ندرك بها الخير أو الشر، وكيف نستجيب لهما بشكل مناسب.

أثرت محاضرات وانج Wang وكتاباته وسجلات محاوراته المنشورة بشكل عميق في المستمعين والقراء، فقد قال وانج:

«لا يوجد شيء لا يحتوي التعلم فيه على الفعل، فعندما نتعلم تكون لدينا شكوك واستفسارات عما نتعلمه، ويعد هذا نوعاً من أنواع الفعل. لذلك يجب أن تستغل رغبات الناس بشكل جيد، مثلاً عندما يقوم الناس بتعليم أطفالهم أن يستفيدوا من رغبتهم في التحرك وإحداث ضجيج– عبر جعلهم يتغنون ويتمرنون على المشي والانحناء الخاص بالاحتفالات؛ أو مثل النباتات عندما تبدأ في النمو، فإذا كان لديها الحرية في النمو، فإنها ستنمو بسهولة، ولكن إذا تم التدخل بها أو ثنيها، فإنها قد تذبل وتفنى». وقد تعلم بعض الطلاب كيف يرون الخير العميق داخل الإنسان الذي ينتظر أن ينمو داخل كل الناس. وقد سأل وانج Wang أحد الطلاب: «ماذا رأيت عندما كنت تتمشى؟»، فأجاب الطالب: «رأيت جميع الأشخاص في الشارع حكماء».4

استند بعض أتباع وانج يانج مينج Wang على ما تعلموه منه، بأنه لا يوجد في التكوين الأساسي لعقولنا خير أو شر ليبيحوا أي سلوك معاد للمجتمع، أو غير متوافق مع الأعراف والتقاليد يخطر في عقولهم. ورد آخرون على إصراره أن المعرفة والفعل يصبحان شيئاً واحداً إذا أصبحا مرتبطين أكثر بالمشاركة السياسية، أو إذا تعاملا مع المشكلات العملية.

كان انتشار كلا الاتجاهين واضحاً في الصين التي كانت تمر بكارثة أخلاقية وسياسية بعد عام 1600عندما أصبحت محاطة بالفساد، وأصيب البلاط الملكي بحالة من الجمود، وامتلأت المدينة بالدارسين الذين أغوتهم المعيشة الراقية في المدن التجارية الكبرى.

ومن ردود الأفعال المثيرة التي حدثت، والتي بدا أنها تراجعت بحلول عام 1600، انتشار الوعظ برسالة وانج الأخلاقية بين المستمعين في المناطق الحضرية الكبيرة وأيضاً بين الناس العاديين من غير أهل العلم. ولكن كانت هناك إحدى الشخصيات التي تعد مفتاح هذا النشاط، وهي وانج جين Wang Gen الذي حظي بالتعليم، وانتمى إلى عائلة فقيرة تعمل بالتجارة، وقام بزيارة الأضرحة الكونفوشيوسية العظيمة في مدينة تشي وفو Qufu. ولقد أدرك وانج أن كونفوشيوس كان مجرد رجل، وأن الحكمة الكاملة أمر متاح لنا جميعاً. وفي عام 1504 رأى حلماً، أن السموات تنشق وتسقط، ورأى نفسه ينهض ويقوم بإعادة ما سقط إلى مكانه، وقام الناس المنتشرون في المكان بتحيته وهم يشعرون بالسعادة والامتنان. وقرر وانج أنه إذا أراد أن يكون مثل الحكماء القدامى، يتوجب عليه أن يرتدي ملابس مثل التي كان يرتديها الحكماء، فطلب الملابس الخاصة بوانج يانج مينج العظيم، واتبع إرشاداته بصرامة. وفي النهاية أعلن أنه تابع له، وكانت تعاليمه قريبة من تعاليم وانج في العديد من النقاط، إلا أنها ركزت بصورة أكبر على الرفاهة الجسدية للناس العاديين. وقد جذبت هذه التعاليم بشدة العديد من الناس العاديين، وبعضهم كرس حياته لنشر هذه التعاليم، وقام بعمل اجتماعات مع أعداد كبيرة من الريفيين بعد موسم الحصاد، وألقى محاضرات أخلاقية، والغناء الجماعي. ويبدو أن شعبية الكونفوشيوسية وصلت إلى ذروتها في زهاء الخمسينيات من منتصف القرن الخامس عشر، وتراجعت بعد الاضطرابات التي حدثت عام 1600.

كان مارتن لوثر Martin Luther ووانج يانج مينج Wang Yangming متعاصرين، وحاول كل منهما تطهير تعاليم عظيمة وإحياءها، ولا يمكن أن يكون هذان الاثنان قد تعرفا إلى بعضهما، ومن الصعب تخيل وجود أمر مشترك بينهما. فقد كانت تعاليم وانج تركز على التفاؤل تجاه الطبيعة الإنسانية التي يمكن أن نصبح عليها في هذا العالم، في حين ركزت تعاليم مارتن لوثر Martin Luther المسيحية على آثام الطبيعة البشرية وضرورة الخلاص

الإلهي. ولقد بذلت حركة التحرير الأوروبي المعقدة، التي نطلق عليها حركة الإصلاح البروتستانتي، الكثير لإجراء عمليات تغيير تتعدى حدود النطاق الديني. وعزز وجود العديد من الاختلافات الدينية واللغوية والثقافية المختلفة في أوروبا من جعلها دولة ذات نظام متعدد المراكز؛ حيث وقعت العديد من الحروب الدينية، استخدمت فيها أساليب قمع مروعة، مما جعل العديد من الناس على المحك بسبب معتقداتهم، ودارت عجلة الحرب والعنف، مما أرشد بعض الأشخاص الحكماء جداً –في النهاية– إلى أساسيات التسامح الديني. وأصبحت الاختلافات الدينية والثقافية متصلة ببعضها بصورة واضحة، مما أدى إلى بزوغ بوادر سياسات شبه ديمقراطية، ومن ثَمّ وجود قيم وممارسات جديدة بدأت تظهر بالمدن التجارية الكبيرة الجديدة. وفي ظل هذا الانقلاب والتغيير العظيم كان هناك نداء للعودة إلى الأسس المسيحية المفقودة.

امتلأت عظات الواعظين بانتقاد هذا العالم الزائف، وقبول الخلاص الذي يقدمه يسوع المسيح في قلب المسيحية. وقد تسبّب هذا في تشكيل حركات الإصلاح والإحياء المتنوعة المتعارضة والمتناقضة في بعض الأحيان في القرن الرابع عشر. فبالنسبة إلى بعضهم، أثار المجتمع الحضري التجاري، المتسم بالإنفاق الحر والملابس الفاخرة، والمصرح فيه بممارسة الجنس، الغضب؛ مما دعا إلى التوبة. وقد رأى العديد من المفكرين السياسيين ورجال الكنيسة أن الفساد في كنيسة الروم الكاثوليك هو لب المشكلة، ولكن مع هذا تمنى العديد من الناس أن يكون الحل حدوث إصلاح مناسب في الكنيسة الكاثوليكية.

ومن منظور تاريخي عالمي كانت كنيسة الروم الكاثوليك أكثر معهد ديني مميز، وكان بها القليل من القوة الملكية أو العسكرية، لكنها ركزت بشكل كبير على البيروقراطية، وحافظت على نظام قانوني لتوحيد التعاليم والطقوس وكي تؤثر في المؤمنين. وقامت بالحروب الصليبية ضد العثمانيين، وقسمت العالم بين إسبانيا والبرتغال، وتصدت للنظريات الناشئة عن البعثات التبشيرية الجديدة القادمة من الثقافات غير المسيحية، وأسهمت في الاستقطاب السياسي في دولة بعد أخرى. وفي وقت آخر بين عامي 1000 و1400 كان من المعقول أن تخضع كنيسة الروم الكاثوليك لأباطرة روما المقدسة مثل الكنيسة اليونانية التي كانت تتبع البيزنطيين، أو كان من الممكن أن تتحول الكنيسة إلى

حكومة دينية يمكن أن تعين أو تعزل الأباطرة والملوك واللوردات الصغار. لم ينته أي من هذه المشاريع تماماً في القرن الرابع عشر، ولكن الواقع كان عبارة عن مجموعة من الوعود الفوضوية الساخرة بحيث يكون للملوك الحق في إعطاء أسماء للأساقفة في مملكتهم، وتتم الموافقة على تجميع مستحقات الكنيسة طالما أنهم سوف يحصلون على نسبة منها. تطورت وحدة أوروبا السياسية عبرالعديد من الإصلاحات، وبخاصة فيما يتعلق بالتوريث والانتخابات الملكية والجمهورية الأرستقراطية. وقد كان من المحتمل ألا تسير الأمور على هذا الشكل لولا أن كنيسة الروم الكاثوليك وإمبراطور روما المقدسة قد قضيا على بعضهما. احتكرت الكنيسة الوصول إلى الأسرار المقدسة، وهددت بالحرمان الكنسي. وهكذا يموت الإنسان دون احتمالية الخلاص بشكل نظري، وكان هذا حقيقياً بشكل كافٍ، لكنه أدى ربما إلى نتائج عكسية حين استخدم بشكل فاعل لتحقيق الأهداف السياسية العالمية للوصول للبابوية، أو قمع التغييرات الدينية القوية كما حدث مع الراهب الألماني الغامض مارتن لوثر Martin Luther.

وقد بدأ والد مارتن لوثر Martin Luther بالعمل في مناجم النحاس، ونجح في تأسيس عمل ناجح في مجال صهر النحاس. ووفرت المدرسة والجامعة طريق الوصول إلى مهن النخبة من الناس لشاب صغير موهوب من عائلة رغيدة، لكن أفرادها ليسوا من أصحاب مهن النخبة. كان لوثر يكره أرسطو والإكويني عندما كان في المرحلة الجامعية، وكان يكره نظريات القرون الوسطى كذلك، وبدا هذا أمراً غير اعتيادي في زمنه. كان يعتزم دراسة القانون، بيد أن عاصفة رعدية حدثت عندما كان في العراء، فبكى وصاح قائلاً: «إذا ظللت حيّاً فسوف أصبح راهباً». وعندما أصبح قسيساً واحتفل بأول قداس قام به، كان والده مذعوراً؛ إذ فكر في أن ابنه ضاع وكانت الدنيا أمامه مفتوحة على مصراعيها. وقال له أبوه عن العاصفة الرعدية: «خذ في اعتبارك أنها ليست أرواحاً شريرة»5. ولم تكن مواهبه مختفية داخل جدران الدير، فقد ألقى محاضرات عبقرية عن المزامير والعهد الجديد.

وبين عامي 1510 و1511 ذهب لوثر إلى روما لأداء بعض الأعمال التي أمر بها، وراعه انحطاط الأخلاق والانتهازية والترف في المقر البابوي. وفي عام 1517 أثار لوثر سؤالاً

قوياً عن بيع صكوك الغفران. فقد خاف الروم الكاثوليك في القرن الخامس عشر من اللعنة الأبدية بسبب خطاياهم (ومن لا يخاف من أمر مماثل؟). فقد جعلهم هذا يعترفون بخطاياهم للكهنة، ويتم إعلامهم أي نوع من الصلوات والصدقات يحتاجون إلى القيام بها كي يتوبوا ويُغفر لهم. وخلال القرون الماضية أعلن البابوات أن أي شخص يقدم تبرعات يحصل على «الغفران» تلقائيّاً، ويحصل على التوبة بالطريقة التي يحددها الكاهن للشخص. ويمكن أن ينقل الغفران هذه الميزة المكتسبة للروح المعذبة في الآخرة، لكنها ليست ملعونة. ولقد انتقد هذا النوع من الاستغلال بشدة، وضرورة الحاجة إلى دخول الأخلاق والروح في دائرة قصيرة ليتم تجديدهما. وكان من غير الممكن مقاومة إغراء الأرباح المالية التي تحققت للبابوية وللحكام الذين حصلوا على جزء من هذه التبرعات كل حسب منطقته. كان يُعتزم منذ بداية عام 1515 أن يكون بيع صكوك الغفران من أجل التبرع لبناء كنيسة القديس بطرس في روما، ومازالت هذه الكنيسة حتى اليوم تثير مشاعر الشك لدى الزوار لعلاقتها بالإذلال المسيحي.

في عام 1517 أرسل لوثر إلى الأسقف الذي يتبعه خمساً وتسعين أطروحة تستفسر عن عدم وجود أي دليل في العهد الجديد يدعم بيع صكوك الغفران. لم يقتصر أثر هذه الأطروحات على الكنيسة فقط، وإنما انتشرت بسرعة، وتسربت بشكل ما، ربما عن طريق لوثر Luther نفسه، أو قد يكون الأمر الأكثر احتمالاً أن يكون قد سربها أحد الأشخاص في الأسقفية، وتمت ترجمتها من اللغة اللاتينية التي كتب بها لوثر إلى اللغة الألمانية، وطبعت وانتشرت في مدينه تلو الأخرى. وقد استطاع لوثر أن يضع يديه على نقطة حساسة ليس بسبب الغضب المسيحي من الاستغلال التجاري للأعمال الأخلاقية وحسب، وإنما بسبب الغضب الألماني إزاء ابتزاز البابوية للأموال أيضاً. تعاظم تأثير لوثر للغاية بسبب الصحافة المطبوعة منذ البداية، وبسرعة أصبح ماهراً جداً في استخدامها. كان الصينيون يقومون بطباعة الكتب لأربعمائة عام. وينسب لجوهان جوتنبرج Johann في عام 1463 تطوير أساليب الطباعة، واستخدام طابعات متحركة في أوروبا. ومما لا شك فيه أن لهذا تأثيرات هائلة أسهمت في بداية الاستقطاب والحشد الذي قام به لوثر في البداية. وقد كتب لوثر بنفسه عن الطباعة قائلاً إنها «أفضل نعمة من الله وأعظمها؛ إذ

أمكن من خلالها جعل تعاليم الإنجيل تمضي قدماً».6

ما إن طبعت اعتراضات لوثر هذه، حتى اضطر أنصار السياسة البابوية إلى الرد عليها. لكنهم كانوا يميلون إلى عدم الرد بصورة كبيرة على ما طرحه لوثر من العهد الجديد، وعوضاً عن ذلك عملوا على إبراز مواطن القوة التي وصلت إليها الكنيسة فيما يتعلق بتطوير التقاليد وتأكيد سلطة البابا كمفسر موثوق به أمام الناس. وفيما بين عامي 1517 و1521 وقعت موجات عديدة من الانتقادات والانتقادات المضادة على الصفحات المطبوعة، وعقد لوثر مناظرتين رائعتين وجهاً لوجه مع ممثلي البابوية. (ذهب لوثر في المناظرة الثانية سيراً على الأقدام من ويتنبرج Wittenberg إلى أوجزبرج Augsburg ثم عاد مرة أخرى لويتنبرج، وهي رحلة بلغ طولها ذهاباً وإياباً 600 ميل تقريباً.) ولم تكن اللغة المتبعة في ذلك راقية. ازداد استقطاب المدافعين عن البابوية وناقديها باستمرار داخل الكنيسة وخارجها. ولم يستطع المدافعون عن البابوية إدراك أن بالإمكان الحفاظ على وحدة موثوق بها بين التعاليم والأسرار المقدسة، دون السلطة المتراكمة لتعاليم الكنيسة والسلطة النهائية للبابا الحالي.

ولكن لوثر Luther أصر على أن المسيحي الجيد يمكن أن يجد السلطة التي يحتاج إليها في آيات العهد الجديد الواضحة، وبخاصة في الأمور التي تتعلق بالمآسي الحياتية والموت وقيامة المسيح يسوع. فلا توجد حاجة لتسلسل الكهنة بهذا الشكل المتدرج، ولا توجد حاجة لوجود وسطاء. وقد قال لوثر إن المسيحيين الحقيقيين يمثلون الكهنوت بالنسبة إلى كل المؤمنين. وقد استخلص لوثر Luther حقيقة علاقة الله بالإنسان في العهد الجديد، ففي العهد الجديد يقول الإنجيل: «أَمَّا الْبَارُّ فَبِالإِيمَانِ يَحْيَا» (رومية 1:17). وكان لوثر يخشى ألا يمكن للإنسان الضعيف أن تُغفر خطاياه بشكل يؤهله ليستحق رحمة الله، وكانت النقطة الأساسية في غفران الخطايا، الذي هو هبة الله للإنسان في الحياة والموت وقيامة ابنه، أن هذا الأمر دون سواه –مما يقوم به البشر– يجعل للاستقامة معنى، وهو يجعل حصول الإنسان على مغفرة الخطايا أمراً ممكناً. لقد امتلأ العالم بأعمال الشر حتى في كنيسة روما، والطريقة الوحيدة للتغلب على هذه القوى الشريرة يأتي عبر الهبة الإلهية.

في عام 1521، مثل لوثر Luther أمام الإمبراطور تشارلز والمجالس الإمبراطورية في روما المقدسة، ورفض أن يتراجع عن أي من آرائه، وقال: «لن أتراجع وأقول أمراً آخر».7 وفي طريق عودته إلى ويتنبرج تم أسره من جانب قوات صديقة، وإعادته إلى قلعة وارت بيرج متخفياً؛ حيث عمل باجتهاد في الترجمة الألمانية للعهد الجديد. وطبقاً للقصص التقليدية، أن الشيطان قد رمى الجوز على السلالم، ورمى هو المحبرة في وجه الشيطان. وعندما قام الأمير في ويتنبرج بحمايته في نهاية العام، بدأ كفاحه الطويل في خلق مجتمع مسيحي دون الهيكل القديم للكنيسة الرومانية. وقد قام بكتابة العديد من المؤلفات، ونشر كل ما قام بكتابته في أرجاء أوروبا، لكنه كان مستاء بسبب الاستنتاجات التي استخلصها الناس من هجومه على السلطة الرومانية، وإصراره على أن كل مسيحي يجب أن يقرأ العهد الجديد. وحتى السكان في القرى كانوا يؤكدون حق اختيار قساوستهم بشروطهم الخاصة، وأعلن سكان قرية ويندلستين Wendelstein في بيان للكاهن: «لن نعترف بك أسقفاً في الكنيسة، ولكن سنعتبرك خادماً للمجتمع. وبموجب هذا، نأمرك بنشر الإنجيل، ونشر كلمة الله بأسلوب واضح وصريح وصادق»8. وفي عام 1525، عندما ثار الفلاحون ضد الطغاة، اتخذ لوثر الجانب المعترف به قانونياً، ويبدو أنه لم يتزعزع خوفاً من الوحشية التي انتهجت في قمع المتظاهرين. وتزوج لوثر، لكن ليس بشكل سريع كما كان يفعل بعض الكهنة السابقون، وبدا سعيداً إلى حد ما.

وبحلول عام 1546 توفي لوثر Luther، لكن العديد من الحكام المحليين دعموا تعاليمه في أماكن كثيرة في ألمانيا والدنمارك والسويد. وهناك آخرون ممن انشقوا عن روما بشكل أكبر مثل الأنابابتيست؛ وهم القائلون بتجديد المعمودية، رفضوا تعميد الأطفال. وهناك آخرون ممن فعلوا أكثر من هذا كأتباع جون كالفين الذين قاموا بتغييرات في أساليب العبادة القديمة، وطوروا نمطاً جديداً من الحكومة الكنسية التي تعطي سلطة للعلمانيين مثل سلطة رجال الدين. وذهب لوثر إلى ما هو أبعد من هذا.

واتجه مارتن لوثر Martin Luther إلى إنكار التدرج الكنسي في الرُّتب، وأصر على أن كل إنسان مسيحي كاهن، وقال بأن طريق الخلاص يتم عبر الإيمان بالله ورحمته، لكن الكنائس التي اتبعت تعاليمه ظل فيها أساقفة، وكانت تحترم السلطات غير الكنسية.



رُسم وجه مارتن لوثر *Martin Luther* بشكله الصارم في العديد من المرات على أغلفة مؤلفاته، وهذه الصورة توجد في العديد من المنازل البروتستانتية، وكذلك توجد في مكتبة الكونجرس.

وسعى جون كالفين Calvin وأتباعه إلى اتجاه أكثر بعداً، وأصر على أنه يجب على المسيحيين أن يكونوا متساوين، وتكون في أيديهم السلطة الربانية، ويقوموا باختيار القساوسة والحكام المدنيين.

ومنذ بداية عام 1540، أصبحت لديهم الفرصة كي يقوموا بتجربة هذه الأفكار في جنيف، وبخاصة في سويسرا الحديثة، وكان يحكم المدينة مجلس من القساوسة والعلمانيين، وتُطبق القواعد الدينية في السلوك بشكل قوي وعميق.

واستبدلت الطقوس والمراسم الكنسية التقليدية بدروس وعظ طويلة في الكنائس، وأصبحت الكنائس خالية من كل أشكال الزينة. وكان كالفين Calvin يناضل في دروسه وكتاباته بإحساس إنسان غير جدير بمواجهة الله القادر على كل شيء. لكنه لم يستطع تجنب الاستنتاج الذي يقول بأن الإنسان لا يمكنه أن يفعل شيئاً كي ينقذ نفسه، وأن هذا

كله يعتمد على نعمة الله وقدرته، بيد أن هذا لم يجعل كالفين Calvin وأتباعه يشعرون باليأس، فقد استمروا على تأكيد قيام الأشخاص بطلب نعمة الله في حياتهم والتركيز عليه.

كانت تأثيرات المذهب الكالفيني سياسيّاً واجتماعيّاً أكثر تطرفاً من التغييرات اللوثرية؛ مما اضطر الناس إلى حل مشاكلهم بأنفسهم، وتحولت إسكتلندا Scotland إلى المذهب الكالفيني، فقد دفع الإنجليز بالإصلاحات البروتستانتية إلى داخل الكنيسة الوطنية بإنجلترا وخارجها. فضلاً عن أن الشعبين البلجيكي والهولندي كانا قد بدءا في تدمير الصور في الكنائس، وتغيير ألوان زجاجها عام 1566، فكنائس هولندا الباقية من فترة العصور الوسطى تخلو حوائطها من الزينة وهي مختلفة تماماً عن الكنائس الكاثوليكية المتبقية. سعى الهولنديون إلى بناء مجتمع جديد تكون عناصره الأساسية فيضاً من الأخلاق الكالفينية، والبحث الذاتي في كل مكان. وكان يوجد إصرار دائم على ضرورة قيام كل المسيحيين بقراءة الإنجيل، واتخاذ قرارهم بأنفسهم؛ مما قد يُنتج مشاعر قوية تُشعر الخاطئ بمدى انعدام قيمته، وقوة تضحية المسيح المخلص، ومدى القوة المخيفة للشيطان الذي يعمل عن طريق السحرة. وبحلول عام 1700، توصل العديد من العامة والمفكرين الحكماء في هولندا إلى أن السبيل الوحيد لحل مشكلة الحروب الدينية والاضطهاد الذي لم يعد محتملاً هو من إيجاد طريقة لجعل الأشخاص من شتى المعتقدات يحترم بعضهم بعضاً، ويعيشون جنباً إلى جنب في سلام.

فمن السهل إفحام الناس الذين لا يتفقون مع المنطق الكالفيني أو الأسلوب اللوثري العنيف، لكن كالفين كان قساً متحفظاً ورؤوفاً في دروس الوعظ التي كان يلقيها، في حين يرى بعضهم أن أفضل كتابات لوثر الكثيرة هي الأجزاء التي تتحدث عن التواصل الروحي مع الله. ويعد هذا من أفضل المحاورات التي تتحدث عن الإنسان وصراعه مع قوى الشر. وورد هذا أيضاً في ترنيمته التي ماتزال تتلى حتى الآن، وتقول: «إلهنا حصن ثابت وراسخ. الرب قلعة ربانية، والشرير القديم مازال يسعى إلى إيقاعنا في الآثام. أعمال إلهنا عظيمة، وقوته جبارة، فهو محصن ضد الكراهية والقسوة، ولا يوجد في الأرض مثيل له».

استخدم لوثر كلمتي أعمال وقوة، وهو الأسلوب الشكلي الذي ابتكره كاردينال مشهور عام 1519، كان يرى أن البابا عدو للمسيح. ولسنوات عديدة ارتفعت الأصوات التي انتقدت الفساد والاستغلال داخل الكنيسة، وهذا ما دعا إليه لوثر قبل انفصاله عن كنيسة الروم الكاثوليك. أما بالنسبة إلى الكاثوليك، فقد بدت الحاجة إلى الكفاح من أجل البقاء أمراً ذا أهمية كبرى؛ فقد أصبحت هناك أماكن كثيرة في أوروبا ضائعة بين المذهب اللوثري والمذهب الكالفيني Calvin. ولم يبدأ هذا الكفاح حتى عام 1540، عندما قامت كنيسة الروم الكاثوليك بجهود إصلاحية؛ فقد قام مجلس ترنت– الذي كان ينعقد أحياناً بشكل منقطع منذ عام 1545 حتى عام 1563– بعمل خطط منهجية لإعادة تنظيم الإدارة الكنسية، ومنع الاستغلال، وتحسين التعليم الكهنوتي. كرس هذا المجلس معظم وقته ومجهوداته للإجابة عن الأسئلة العقائدية، وسعى إلى تحقيق الوحدة الإدارية رغم وجود التنوع، كما سعى إلى تجنب البدع اللوثرية والكالفينية.

اشتملت جهود الإصلاح والنهضة في كنيسة الروم الكاثوليك على مجال الرهبنة، وتأسيس مجتمعات وطوائف جديدة، وتنسيق تلك الجهود في مناطق كثيرة. وتوجد أمثلة على النهضة مثل الإسبانية العظيمة، والقديسة التقية تيريزا Teresa من أبيلا. وقد تمكنت من النهوض بالرهبنة الكارمالية، وأقامت العديد من الأديرة، واستطاعت أن تبتعد بذكاء عن الفكر العالمي السائد بأن النساء اللاتي يقمن بالمبادرة ويتحدثن عن الله كن ينظر إليهن بارتياب شديد.

ومن أكثر إصلاحات الكنيسة الكاثوليكية تميزاً، والتي كان لها حضور قوي ونشط في العالم حتى اليوم، إنشاء الجماعة اليسوعية أو الجيسويت، ومؤسسها هو القديس إغناطيوس لويولا Loyola، وكان بمثابة الجسر الآمن للشباب الإسبان النبلاء. كان لويولا من الحاشية، وعندما أصبحت لديه الفرصة ليشارك في حرب حقيقية، رأى رجله وهي تكسر بسبب قنابل مدافع الفرنسيين. لم يكن لديه خلال فترة نقاهته الطويلة في قلعة أسرته أي قصص حب يعيشها كما كان في البلاط؛ فتحول إغناطيوس Ignatius إلى قراءة الكتب الدينية، وبذلك تغيرت حياته. لم يكن متعلماً من قبل، فالتحق بصفوف التعليم وجلس على مقاعد الأطفال في المدرسة كي يتعلم اللغة اللاتينية بسرعة، وانطلق إلى روما، وكان

يأمل أن يجد طريقة كي ينضم إلى الحملة الصليبية في فلسطين. وفي بعض الأحيان كان يتسول ذلك، متحدثاً عن الله إلى أي شخص يحب الاستماع، واستمر يفعل هذا. درس إغناطيوس في الجامعات الإسبانية، ثم جامعة باريس، واجتذب في باريس القليل من الأتباع، بادئاً تعاليمه الخاصة بالممارسات الروحية.

أظهرت تعاليم لويولا Loyola القليل من الاهتمام بوجهات النظر الصوفية، لكنه ركز على التصورات الخاصة بالحياة والموت، وقيامة المسيح، والقرارات التي يأخذها كل شخص كاثوليكي تحت مظلة المسيح. وفي 1538، اعترف البابا بأتباع لويولا Loyola كطائفة جديدة؛ ذلك أن الجمعية اليسوعية تدين بالولاء للبابا، وكل من يأتي بعده، ومن ثم بدأت الجمعية اليسوعية تعمل بشكل صارم. وكانت هذه الجمعية تُعد مدرسة من أرقى مدارس الشباب، وبخاصة للأشخاص من الطبقة الراقية، وكانت تستخدم للاعتراف بالأمراء الكاثوليك؛ وبشكل عام كانت تعمل في الخطوط الأمامية، مصارعة كي تتمكن من استعادة روما أوروبا مرة أخرى، أو على الأقل ان تحاول إيقاف الانحراف نحو المذهب البروتستانتي. وكذا فقد قامت جمعية الجيسويت بحملات تبشيرية كبيرة. ونحن، الدارسين لبدايات العالم الحديث، مدينون لهؤلاء المراقبين المثقفين ذوي النظرة الثاقبة في الأمازون وصحراء سونورا وجنوب الهند وبكين وكيوتو وأماكن أخرى.

أضحت عمليات الإحياء وبعث التقاليد العظيمة في كل مكان، فعندما كان يقوم الناس بالحج إلى مكة، كانوا يعودون إلى بلادهم وهم يشعرون بالحماسة تجاه القيام بالشعائر الإسلامية. ولقد أضفى تركيز بوذيي التِّبت، على تناسخ أرواح «الرهبان المتنسكين» وحدوث ذلك أيضاً مع الحكام، صورة زاهية على التجديد المستمر في التعليم وقوة الدين. بدأ البوذيون التبتيون في الانتشار وسط المغول عندما كانوا يحكمون الصين. وفي عام 1570، قام أحد الرهبان البوذيين بإعلان تولي ألتان خان، السيد المغولي المسيطر في ذلك الوقت، وقال إنه تناسخ لجانكيز خان القوي. وفي المقابل، أنعم ألتان على الراهب البوذي باسم الدالي لاما، أي «المعلم المحيط الحكيم».

قامت مجموعة من اليهود المستوطنين في مدينة صفد، التي تطل على بحر الجليل، بتجديد إيمانهم عبر القيام بدراسات تركز على القابالا، وهو نوع من التأويل – ليس مختلفاً

بالكامل عن التأويل الصوفي لكنه صادم لبعض المسيحيين- اكتشف وجود معانٍ رقمية داخل النصوص المقدسة. وكان أشهر المعلمين في هذا المجال معلمهم الأكبر إسحاق لوريا، الذي طور نظرية عميقة عن ضياع كمال الخالق ومخلوقاته، بتشظي النور الإلهي في كل مكان، وتوجب على اليهودي الصالح أن يكون ملتزماً بالسعي وراء التيقون؛ أي ما يصلح ذلك الخلل الكوني، لأن وضع نهاية للمنفى -الذي لا يعاني منه اليهود فحسب وإنما كل الإنسانية جمعاء- يكون عبر العبادة والسلوك الأخلاقي. ويذكرنا هذا بحلم وانج عندما فكر في إعادة الأجزاء المتساقطة من السماء إلى مكانها الأصلي.

إن التغييرات والتجديدات التي حدثت لم تكن تتناسب مع الفترة الزمنية من 1530 إلى 1570. وبعض الشخصيات المعروفة كانت معاصرة لكولومبوس مثل (مكيافيلي Machiavelli، وسري كريشنا كيتانيا Caitanya، ووانج يانج مينج Wang، ومارتن لوثر Martin). وكل الاتجاهات التي كانت قبل 1450 أدت إلى حدوث تغييرات هائلة رائعة حتى عام 1530، وكان لها صدى كبير في العقول والقلوب، وكانت الفجوات كبيرة بين الثقافات؛ فلم يكن لدى مكيافيلي ولوثر أي شيء ليقولاه لكيتانيا Caitanya أو وانج Wang، وكذا لم يكن لدى كيتانيا شيء ليقوله لوانج Wang؛ ولكن من وجهة نظرنا قد نرى بعض التشابهات. وكل هذه الحركات كانت أساس تكوين المثقفين، وقد جعلتهم على دراية بالنصوص التقليدية، واستطاعوا الاعتماد على النسخ والتفاسير التي تم حفظها للعديد من الأجيال التي كرست حياتها للدراسة.

واستطاع كل واحد الاعتماد بسهولة على النصوص القديمة في مؤلفاته، لكنهم شعروا بيد الهلاك التي تسعى لدحض المنطق وسعة المعرفة، وتكافح تحرير الحقيقة، فركزوا على الخبرة والعاطفة، وكان ذلك لب ما قاموا بتسجيله. وأدى التحول للتجربة الشخصية إلى فتح الطريق، بدرجة كبيرة أو قليلة، والانتباه إلى الأدلة المحسوسة والأفكار الجديدة. والشخص العادي هو الذي يقوم بتكريس نفسه، دون أن يكون لديه سعة معرفة، أو يكون ذا مستوى رفيع، وقد كان مشاركاً بشكل كلي، إذ لم يكن في حاجة إلى الإذعان للأفكار الواردة له ممن هم أفضل منه. ساعدت الطباعة على نشر وجهات النظر الجديدة في أوروبا، وربما في الصين أيضاً. واستجاب الهندوس لدخول الإسلام في عالمهم

بأشكال مختلفة، وكان لوثر والتجار والمثقفون في فينيسيا وفلورنسا على وعي تام بازدياد النفوذ العثماني؛ فلم يشعر الصينيون في زمن وانج يانج مينج Wang بأي تهديد من جانب الإسلام، بل كانوا ما يزالون يقاومون تأثير الحكام المغوليين الذين حكموا مدة مائتي عام من قبل. عززت المدن والتجار والمجالس الشعبية هذه الحركات بأشكال مختلفة. أما الأمر الأكثر أهمية فهو إسهام هذه التحولات المذهلة عن طريق عمليات إحياء التراث القديم، وتذكير كل طالب للتاريخ بعدم إغفال الماضي، فهو نبع الحياة الجديدة للعقل والروح الإنسانية معاً.

الفصل الرابع

أشكال جديدة للقوة
1610 - 1570

في عام 1694 كتب السيد جوزياه تشايلد «Sir Josiah Child»؛ الشخصية المسيطرة في شركة الهند الشرقية الإنجليزية آنذاك، أن «التجارة تسهم بقدر كبير في السمعة الطيبة لحكومتنا، وقوتها، وثروتها، وفي الحفاظ على مكانتها[1]». ولقد أصبحت فكرة تضافر القوى بين الأرباح والقوة أمراً شائعاً اليوم، وهي الفكرة التي تتحدث عن إمكان بل وجوب زيادة الثروة الخاصة والأرباح وزيادة القوة القسرية للدولة في دعم الأرباح وتفاعلهما بصورة إيجابية. فالحكام الذين لا يعملون على نمو اقتصاديات بلدانهم يفقدون الشرعية بسرعة كأولئك الذين يقعون فريسة لإرهاب البلدان الأخرى. وتعتبر الاقتصادات القوية في حد ذاتها مصادر «للقوة اللينة» التي تتمثل في ما تقدمه من مساعدات، وتوسع تجاري، وتأثير ثقافي، كما أنها تدفع قيمة توفير القوة العسكرية.

لم تلق احتمالية ارتباط الأرباح بالقوة في عام 1450 شيوعاً، لكنها أصبحت مفهومة على نطاق واسع بحلول عام 1700. ظل الإنجليز، والفرنسيون، والإسبان، وغيرهم يتناقشون بشأن أفضل السياسات اللازمة لإنتاج ثروة خاصة، وتكوين قوة وطنية منذ أوائل 1500. وفي مرات عديدة من تاريخ الصين الطويل، سعى بعض رجال الدولة إلى «fuguo qiangbing» و(fu guoh chiahng bing)، أي الدولة الغنية والجيش القوي، لكن كان هذا بالتأكيد لتكون الثروة في خدمة القوة وليس العكس. تقاتلت كل من مدينة البندقية وجنوة عدة قرون قبل 1400 من أجل الهيمنةِ على التجارة المربحةِ في شرق البحر الأبيض المتوسط. وكانت إيطاليا في عصر النهضة تتمتع بأعلى درجة من التطور في أصول فن الحكم فيما يتعلق بالتحالفات الدبلوماسية المتغيرة، والسعي وراء الربح والسلطة معاً، وإمكانات استغلال الأماكن التي تم الاستيلاء عليها وحدودها. انتشر هذا الفن في حكم البلاد بهذه الطريقة إلى شمال أوروبا كنظام دولة قائم على القومية المتماسكة، وتبنت

الدول سياسات «مركنتيلية». وكانت هذه الأمور تمثل الإجراءات التي من المرجو أن تعزز من تآزر العلاقة بين الأرباح والقوة من خلال منح رجال الأعمال في البلاد احتكاراً لخط تجارة معين، أو الحق في إنتاج سلع معينة فاخرة.

بدا للساسة من «إمبراطوريات البارود، مثل العثمانية، والصفوية، والمغولية، أن الازدهار والربح التجاري من المحتمل أن يؤديا إلى عدم الاستقرار السياسي، وفقدان السلطة. وكانت هناك صعوبة واحدة تتمثل في أن العديد من التجار والصناع البارعين لم يكونوا مسلمين أو هندوساً في الإمبراطورية المغولية، أو من الأرمن في الصفوية، أو من الأرمن واليونانيين في العثمانية. ويمكن أن تعرض الضرائب المرتفعة -أيضاً- استقرار الإمبراطورية إلى خطر كبير جدّاً ومتنوع، ويمكن أن ينتزع الزعماء الإقليميون المنشقون ثروة جديدة.

واجهت الإمبراطورية الصينية تناقضات مماثلة باستراتيجيات مختلفة للحفاظ على الوحدة والاستقرار. أما اليابان فكان أمرها مختلفاً، فبدءاً من 1450 حولت نفسها إلى مجال حيوي من المجالات المتنافسة بشكل هائل، وأمضت قرناً من التفاعل الحاد والخطير مع العالم الخارجي، ثم حدت من الاتصالات الخارجية، وفرضت سلاماً داخلياً رائعاً، لكنها حافظت على التنافس بين الأرباح والسلطة في مجالات عديدة داخل حدودها. وتاريخها يقدم غذاءً دسماً للتفكير في أنظمة الدول، والتآزر بين الأرباح والسلطة.

وكان من المبادئ الأساسية للتقليد السياسي الياباني الاستمرارية الوراثية غير المنقطعة من الخط الإمبراطوري الذي انحدر من آلهة الشمس؛ لكن منذ زهاء 800 عام، لم يكن من المتوقع أن يحكم الأباطرة بنشاط، وإنما لإضفاء الشرعية على قوة الآخرين. منذ ما يقارب عام 1100، كان محاربو الساموراي أصحاب النفوذ، وسمي زعيم التحالف الأقوى للساموراي شوجن أو جنرالاً، وكان دكتاتوراً عسكريّاً على كامل البلاد. وفي هذا الوقت، توفر نظام مستقر بصورة معقولة، لكن بحلول عام 1450 تحول إلى الفوضى. وفي عام 1467، جرت المعارك بين قوات الساموراي المتنافسة في شوارع كيوتو العاصمة ومقر إقامة الإمبراطور العاجز. دمرت هذه المعارك مجموعة الترتيبات الضعيفة التي كانت موجودة لحكم المناطقِ النائية؛ لذلك تقاتل المتنافسون المحليون في كل منطقة من أجل

السيطرة عليها. بدأ كل زعيم من الساموراي، اتسم بذكاء وحظ أوفر من أقرانه، في بناء هيكل أكثر استقراراً وتعزيز قاعدة إقليمية؛ [ديمو] [Daimyo]، وكان هذا هو المصطلح الذي يطلق على الأسياد الإقليميين من هذا الوقت حتى عام 1800.

ويمكن إدراك حجم التغيير الذي أحدثه السادة الإقليميون [ديمو] في النظام السياسي الياباني من خلال التعليقات التي أدلى بها شهود عيان أجانب فقط في أربعين سنة. وفي عام 1580 كان هناك مبشر يسوعي ذو خبرة طويلة باليابان كتب أن اليابانيين «يثورون ضد [الحكام] كلما سنحت لهم فرصة، ثم يعودون ويعلنونَ أنفسهم أصدقاء مرة أخرى، فقط ليثوروا مرة أخرى عندما تأتي فرصة لذلك. في عام 1620، كان في اليابان تاجر إنجليزي على الدرجة نفسها من الاطلاع قد كتب أن حكومة اليابان «لربما تعد الطغيان الأعظم والأقوى الذي لم يُسمع عنه من قبل في العالم، حيث إن كل الناس كالعبيد أمام الإمبراطور، أو القائد العظيم كما يطلقون عليه»؛ «لذلك فأي شخص يصبح مشكوكاً فيه من الحاكم بالخيانة يَنتحرُ إذا أمر أن يفعل ذلك»[2].

كتب اليسوعي ذلك في أوج ما يسميه اليابانيون «عصر العوالم المتحاربة» حين كانت الجيوش الكبرى والأكثر تدميراً تحارب بعضها كل سنة ويتمرد الخدم على أسيادهم ويتمرد متطرفون دينياً بأنماط مختلفة على كل سلطة دنيوية. ومع مرور الوقت كتب الإنجليزي قائلاً إن شوجن؛ الإمبراطور أو القائد العظيم، كان وريثاً لمؤسس بيت توكوجاوا «Tokugawa» الذي حكم اليابان حتى عام 1868، ولم تكن هناك معارضة واسعة النطاق ضد حكمه». الكثير من الـ [ديمو]، ومنهم بعض الذين قاتلوا ضد توكوجاوا، كانوا محكمين السيطرة على العوالم الإقليمية طالما أنهم لم يتحدوا الهيكل الأكبر. كان السلام والازدهار والاستقرار المتسلسل تلعب أدوارها. وفي عام 1600، أصبحت اليابان واحدة من أكثر الدول ازدهاراً، وبشكل يقيني غالباً، المكان الأكثر تنظيماً في العالم.

يبدو الأمر أسرع وأكثر اكتمالاً في وقوع اليابانيين تحت حالة من الفوضى، مع عدد أقل مما تبقى من الهياكل الحضرية والمحلية، وذلك مقارنة بالاضطرابات التي حدثت في الوقت ذاته في أوروبا. إلا أن تحول اليابان إلى خلق أشكال جديدة من النظام كان سريعاً بشكل مثير للدهشة أيضاً؛ فاضطراباتها قد انتهت في منتصف عام 1600، في الوقت

الذي كانت تتجه أوروبا خلاله إلى أسوأ حالاتها. عوضت هشاشة النظام القديم الذي انهار قبل نحو عام 1450 وجود خلفية واعية بأهمية الإدارة البيروقراطية المستقرة، وحفظ السجلات، التي ورثتها الدولة اليابانية من التقاليد الصينية في العصور الوسطى. أَسس الأسياد [ديمو] المخضرمين، رغم وجود المؤامرات والكمائن، وكل شكل من أشكال المحاربين المتهورين، المحاكم التي تفصل بين الادعاءات المتخاصمة على الأرض، وأعلن الأسياد قوانينهم الخاصة بالسلوك المحلي. لم تقر السلطة العليا، التي لم تكد تكون موجودة، أي شيء من هذا، ولكن مع قبول السكان المحليين لها، زادت قوة الأسياد [ديمو] وشرعيتهم باستمرار.

وكانت التغيرات الكبيرة التي بدأت في أواخر عام 1500 جزئيّاً من عمل ثلاثة رجال، وسَّعوا سلطة واستراتيجيات الأسياد [ديمو] الفائقة على ساحة اليابان الواسعة؛ لَكنَّهم كَانوا الطبقة العليا وهي تتصارع عميقاً من أجل النظام. لم تكن الفوضى التي حدثت في أواخر عام 1500 ترجع فقط لائتلافات الساموراي التي كان بعضها يقاتل بعضاً؛ فالفلاحون نظموا أنفسهم من أجل الدفاع عن النفس، وخصوصاً عندما ألهمتهم تعاليم بعض إحدى الطوائف البوذية أو بعد ذلك الكاثوليكية الرومانية. فلقد شكلوا مجتمعات قوية رفضت سيطرة الساموراي كليّاً. كان أودا نوبوناجا «Oda Nobunaga» أول سيد [ديمو] فائق، سَحق هذه الأشكال البديلة المنظمة، ولاسيما عندما هاجم بوحشية الرهبان المحاربين في مجمع دير هزن «Hieizan» الهندوسي خارج كيوتو في 1571.

بنى نابوناجا «Nobunaga» سلطته أولاً عبر إقامة أكبر تحالف عسكري وأفضله، ساحقاً أعداءه. لقد كان متوقعاً جدّاً أن بعضهم سيقبض عليه على حين غرة، وقد اغتيل في عام 1582. كان تويوتومي هيديوشي «Toyotomi Hideyoshi» من بين قواده الأقوياء وأحد الشخصيات غير العادية في تاريخ العالم الحديث المبكر. كان هيديوشي «Hideyoshi» صغير الحجم وقبيحاً جدّاً ينحدر من أصول ريفية متواضعة، وكان من أحد أسياد [ديمو] [Daimyo] الكثيرين الذين تحالفوا مع نوبوناجا «Nobunaga». وبعد اغتيال الأخير، كان هيديوشي في وضع يمكنه من التحرك بسرعة للسيطرة على كيوتو، والبدء في بناء تحالفاته الخاصة.

وفيما بعدُ، أظهر هيديوشي أسلوباً سياسيّاً مختلفاً جدّاً عن الحاكم السابقِ؛ ذلك أن نابوناجا سحق أعداءه المهزومين، أما هيديوشي فكسبهم، مؤكداً لهم أنهم سيبقون على قيد الحياة، وأنه سيمنحهم أراضي ذات دخل جيد إذا انضموا إليه، وقبلوا الانتقال إلى منطقة مختلفة. بدا التعاون معه بالنسبة إلى الكثيرين من أسياد [ديمو]، على حد سواء، أفضلَ من الخضوع لأبناء نابوناجا الذين ما يزالوان على قيد الحياة. فالعدو المهزوم قد لا يَبقى على قيد الحياة فحسب، وإنما سيكافأ على الاشتراك في الحملة المقبلة. كان هناك العديد من المعارك، والعديد من اللحظات الخطيرة، وبعض الاعتداءات القاسية جدّاً على الطوائف البوذية المسلحة؛ لكن الحرب في ذلك الوقت لم تكن كلها نصب كمائن وقتالاً بالسيف، فالاتصالات مع البرتغاليين جلبت البنادق إلى اليابان. أدرك العديد من الساموراي، وهيديوشي أكثر من أي شخص آخر، أن الاستعمال الفاعل لهذا السلاح الجديد الهائل يتطلب قوات مشاة منضبطة، واتصالات جيدة مع التجار الذين يوفرون الرصاص والبارود. في عالم أسياد [ديمو]، كان السلام والازدهار والتجارة أموراً ضرورية للنوع الجديد من الحروب.

وبحلول عام 1587، كان هيديوشي وحلفاؤه مسيطرين على الجزيرة الرئيسية هونشو «Honshu»، وعلى استعداد لغزو كيوشو «Kyushu»؛ حيث سريعاً ما أخضع تحالفه المتسع واستمال أسياد الـ[ديمو] المحليين الأقوياء. جاء التجار البرتغاليون والصينيون إلى موانئ كيوشو، حيث سيطر الديمو المحليون على التجارة المزدهرة مع جزر ريوكيو «Ryukyu» إلى الجنوب. أراد الديمو جذب البرتغاليين، فكانوا مضيافين مع المبشرين الذين رافقوهم، وبمرور الوقت كانت هناك بعض الجاليات المتحولة إلى الكاثوليكية المتحمسة على الجزيرة، حتى إن بعض أسياد الديمو تحولوا للكاثولوكية. بدا هؤلاء كثرة كاثرة بالنسبة إلى هيديوشي والعديد من الآخرين كالطوائف البوذية التي رفضت سيطرة الساموراي، فتم سحقهم. وبدأ العمل ضد الوجود المسيحيِ عام 1587، مع فرض حظر على جُهود نشر الكاثوليكية، والتهديد بطرد المبشرين، وهو ما تحول إلى قمع وحشي أوائل عام 1600. بدأ هيديوشي أيضاً نظام الترخيص والتحكم في التجارة الخارجية على السفن اليابانية.

كانت لدى هيديوشي، لسنوات، رؤى كبيرة لما يمكن أن ينجزه في اليابان، كي يقيم

سلاماً دائماً. لقد مضى الآن في طريق طويل لتحويل تلك الرؤية إلى حقيقة، وجعل العالم مكاناً آمناً للديمو والساموراي الذين سيلعبون أدوارهم الملائمة في نظامه. ففي عام 1588 حرَّم على المزارعين حيازة السيوف، وقام الساموراي الذين بحثوا عن كل الأسلحة وصادروها، بعملية جرد دقيقة. في عام 1591 كان محظوراً على الساموراي العيش في قرى الفلاحين؛ حتى لا يكون لديهم قاعدة للعمل الفردي للسيطرة على الأيدي العاملة من الفلاحين والضرائب التي تُجلب منهم؛ فوضع كل فرد تم تحديده وفقاً لتاريخ الميلاد وتسجيله بدقة شديدة.

كانت السيوف، وهي أفضل سيوف العالم، العلامة على رتبة الساموراي، لكن لم يسمح للساموراي باستعمالها لحكم مجتمعات الفلاحين أو حشد أي منها. وكضباط يتقاضون رواتب من الديمو، كانت لديهم منزلة ودخل آمنان، ولكن لم يكن لهم حكم ذاتيّ. كانوا فريدين بين النخب المسلحة في أوائل العصور الحديثة، ولم يكن لديهم سيطرة مباشرة على منتجات عمل الفلاحين، لكنهم عاشوا قرب قلعة الديمو وتقاضوا راتباً من الضرائب التي جمعوها من القرى التي تقع في نطاقاتهم الفردية.

لم يتمكن التجار والحرفيون من حمل السيوف، لكن الديمو ووكلاءهم الساموراي فهموا أن التجارة جلبت الازدهار الذي يمكن أن يدعم القوة العسكرية. سعى الديمو لجذب التجار والحرفيين للاستقرار قرب قلعة الديمو. كان من الممكن لهيديوشي أن ينقل الديمو أو حتى يطردهم نظريّاً، لكنه كان في مأمن من انقلاب من هم أدناه من الساموراي المستقلين ذاتياً. والساموراي أنفسهم ليس لديهم شيء للخوف منه، سواء كانوا من الفلاحين الماهرين في استخدام السلاح، أو من الطوائف الدينية المنظمة والمسلحة. في تسعينيات القرن السادس عشر تم توثيق كامل هيكل الحكم المحلي في عمليات مسح دقيقة لمساحات الأراضي، والضرائب التي توجبت عنها، وأعداد محاربي الساموراي الذين توجب على سيد الديمو تقديم الدعم لهم مقابل الحصول على هذا الدخل. وكانت هذه هي أسس التعافي المدهش من الحرب الأهلية والفوضى الاجتماعية منذ عام 1550، والنظام الداخلي الذي أعطى اليابان السلام حتى ما بعد عام 1800؛ ووضع الأسس لدورها المميز في العالم في القرنين التاسع عشر والعشرين.

تكمن أسس نظام هيديوشي في القوة الفائقة، ولقد أظهر آخر قرنين من الحرب مدى سرعة تلاشي ذلك. سعى هيديوشي، دون دعاوى، أنه ينحدر من الأرستقراطيين الذين وجدوا في القرون الوسطى العظيمة، وبيوت المحاربين الذين يمكنهم إضفاء الشرعية على نظامه، إلى إقامة علاقة وثيقة بشكل غير عادي بالبلاط الإمبراطوري، وذلك تهيئاً منه لأن يُمنح بألقاب البلاط المدنية ويعرف بها (لا اللقب العسكري لشوجن) ويبني قصره العظيم الخاص في كيوت؛ عاصمة الإمبراطورية. كان المهرجان العظيم الذي عقده هيديوشي في الهواء الطلق في خريف عام 1587– حيث يحيط به، هو وأرستقراطية العاصمة، أرفع طاقم يقوم بمراسم حفلات الشاي، بإجراءاتهم المتقنة، وأدواتهم النادرة – والموكب الرائع عندما جاء الإمبراطور بنفسه لزيارة قصر هيديوشي في عام 1588، يمثلان لحظتين ضاهت فيهما قدرته في فن الحكم والاستعراض أرفع ما في بلاط معاصريه: الملكة إليزابيث ملكة إنجلترا، وأكبر إمبراطور المغول.

بعد أن أصبحت كيوشو في يده، وفُتحت لهيديوشي اتصالات مع عالم أوسع، طور هيديوشي بعض المشاريع المدهشة للسيطرة على ذلك العالم. ستغزو قواته كوريا، وتسير إلى الصين، وتنصب الإمبراطور الياباني في بكين كحاكم عالمي. لم تعان جيوشه القوية من أي مشكلة في جبال شبه الجزيرة الكورية، فقد كان أفرادها من أفضل مقاتلي الجبال في العالم. وليس من سبيل المصادفة أنه سيُعطي ديمو كيوشو، بما في ذلك الكاثوليك، فرصاً لإثبات جدارتهم العسكرية، وكي يربحوا مكافآت ضخمة جديدة كونهم حلفاء له. لايزال جنون العظمة في هذه الرؤية، وتعارضها مع حرص اليابان على عدم التدخل في الجزيرة الآسيوية خلال أغلب تاريخها، أمرين مدهشين ومحيرين حتى للمتخصصين في هذه الفترة.

في عام 1592، عبر جيش من زهاء مائة ألف ساموراي المضايق إلى كوريا وتقدموا بسرعة للاستيلاء على العاصمة سيول التي فر منها الجيش الكوري لأنه لم يكن مستعداً. لكن مع استمرار القوات اليابانية في زحفها إلى الشمال، لاقت مقاومةً متزايدة من الفدائيين. أشرف الأميرال الكوري يي صن شين «Yi Sun Shin» على بناء أسطول أطلق عليه السفن السلحفاة، بدروع معدنية ذات ظهر مغطى، أغار على خطوط الإمداد بين اليابان

وجيوشها في كوريا. تأكد حكام مينج في الصين من العلاقات الجيدة بالحكام الرائعين من أهل [جورشن] [Jurchen]، على الحدود الشمالية الشرقية للصين وإلى الشمال من كوريا «Korea»)، وأرسلوا قوات تدخل سريع لمعارضة هيديوشي. انسحب هيديوشي إلى أقصى جنوب شبه الجزيرة، وبدأت المفاوضات وتوقفت، ثم اندلعت الحرب ثانية، وعندما مات هيديوشي عام 1598، أتم جنرالاته انسحابهم بسرعة.

لم يتمكن هيديوشي من إضفاء الشرعية على توريث سلطته لابنه. في عام 1600 كان هناك ائتلافان عظيمان من الديمو تقاتلا في معركة حاسمة في سكيجاهارا «Sekigahara»، وربحت القوات التي تحت قيادة توكوجاوا إياسو «Tokugawa Ieyasu». حصل توكوجاوا على التعيين الإمبراطوري بسرعة كشوجن، وشرع في بناء قاعدة السلطة في إيدو «Edo» (طوكيو الحديثة)، التي كانت حتى ذلك الحين بلدة صغيرة، لكن في منطقة غنية بالموارد الزراعية، وصيد السمك، ونقاط اتصال جوهرية مع الشمال. لم يتم التخلص من وريث هيديوشي ومؤيديه في ذلك الحين، لكن في عام 1615، عندما احتشدت القوات المعادية لتوكوجاوا بشكل خطير للغاية حول الوريث، استدعى توكوجاوا كل حلفائه وسحق أعداءه، وحطم قاعدتهم في قلعة أوساكا. حكمت سلالة توكوجاوا إسايو اليابان كشوجن حتى عام 1868، كواحدة من الأجزاء الأكثر نظاماً بشكل كبير وسلمية وازدهار في أوائل العالم الحديث. قام نظامهم السياسي على أسس هيديوشي، فالديمو يمكن أن يُنقلوا إلى أرض جديدة، وحتى أولئك الذين عارضوا إياسو «Ieyasu» في سكيجاهارا سُمح لهم بالإبقاء على بعض الأراضي والساموراي.

كان أمام لوردات الديمو سنوات من العمل الشاق، للحصول على السيطرةِ الكاملةِ على أراضيهم والساموراي التابعين لهم. في السنوات الأولى حاولوا التركيز على الثروة والقوة قدر المستطاع، لكن بدا من المحتمل أن الحرب الأهلية ستندلع من جديد. السلام الطويل الذي تلا بعد ذلك جلب ضغوطاً مالية جديدة. فكان من المتوقع أن يُبقي أسياد الديمو على بعض الساموراي كي يقيموا في إيدو كل الوقت، وأن يقضوا، هم أنفسهم، سنوات متناوبة هناك. كانت المعيشة هناك، وانتقالهم هم وخدمهم ذهاباً وإياباً، أمراً مكلفاً. كما كانت القصور العظيمة، والحدائق الرائعة، وثياب الكيمونو الحريرية الرائعة،

والبورسلين العالي المستوى، ودور العرض المسرحي الرائعة- عناصر ضرورية في حياة إيدو المترفة. وفي محاولة من الديمو لتعزيز الازدهار في الممالك الخاصة بهم، أقاموا هم والساموراي التابعون لهم، مدناً منظمة بشكل جيد، ومليئة بالمحلات التجارية والمنتجات الحرفية الرائعة حول قلاعهم. وفي أواخر عام 1600، كانت خمس من أكبر عشرين مدينة في العالم تقع في اليابان نمت إيدو «Edo» في قرنها الأول، وصارت أعظم مدن العالم.

في عام 1630 أصبح حكام طوكيوجاوا مقتنعين بأن التجارة الخارجية خطرة على الاستقرار السياسي، وكان لزاماً عليهم أن يتم الحد منها والسيطرة عليها بشدة. تم طرد المبشرين الكاثوليكيين وشركائهم التجاريين البرتغاليين، وعومل المسيحيون اليابانيون بوحشية كبيرة. وحُرم اليابانيون من السفر للخارج، وسمح للهولنديين والصينيين بالتجارة بصورة محدودة وتحت المراقبة في ناجازاكي «Nagasaki» وكيوشو، وأبقت السلطات رقابة حذرة جدّاً على هذه التجارة، مستجوبة كل قبطان قادم عن الأحداث في العالم. واستمر هذا الانتظار المعزول المُراقَب والسيطرة الشاملة على الاتصالات الخارجية مع تعديلات صغيرة فقط، حتى وصلت «السفن السوداء» «Black Ships» التابعة للأمريكي بيري «Perry» عام 1853، وبدأت في إجبار اليابان على الانفتاح على العالم.

نحن أكثر دراية بأشكال الربح والسلطة في أوروبا من تلك الموجودة في اليابان. وقد كان «الربح والسلطة» «Profit and Power» شعاراً أطلقه رجل دولة من التجار الإنجليز، وكان السعي إلى تحقيق هذا التآزر بين العنصرين قصة نجاح إنجليزية عظيمة، تضمنت أيضاً بعض المآسي في حياة البلاط المثيرة كأي شيء في اليابان. إذا طُلب من أي من الأوروبيين ذوي الاطلاع في عام 1450 تسمية المراكز الكبيرة للربح والسلطة في القارة، فربما ذكر روما، أو فلورنسا، أو البندقية، أو براغ، أو نوريمبيرج، أو أنتويرب، أو باريس؛ وبالتأكيد لن يذكر لندن أَو امستردام. لكن بحلول عام 1650 أو 1700، أصبحت تلك المدن مراكز لجيوش وقوات بحرية عظيمة لديها شبكات عالمية من التجارة والثقافات الحيوية المبدعة. إن صعود إنجلترا والأقاليم المتحدة الهولندية من أفضل الحالات المدروسة للربح والسلطة اللذين تفاعلا لخلق العالم الحديث. كان السير جوزياه تشايلد في شركة الهند الشرقية الإنجليزية رجلاً إنجليزيّاً يحاول فهم كيف يمكن أن تلحق بلاده بالهولنديين.

مزقت الحروب إنجلترا في عام 1450 بشكل مستمر وزرعت الفرقة بين عائلات نبلائها العظام، فقد قاتل كل منهم ليعتلي العرش الملكي. ولم يكن البلد مركزاً عظيماً لتمويل المناطق الحضرية ودعم الإنتاج في القرون السابقة، لكنه كان المورد لسلعة زراعية أساسية ألا وهي الصوف. وبحلول عام 1450، كانت إنجلترا بعيدة جدّاً عن التحول من تصدير الصوف الخام– لينسج وصولاً إلى المرحلة النهائية من الإعداد في قارة أوروبا– إلى أن تقوم هي بنسجه وإعداده حتى مراحله النهائية ثم تصدره، وهو ما يحقق لها مزيداً من الأرباح من المواد الخام المتوافرة لديها في البلاد. لكن إنجلترا كانت في أمس الحاجة إلى الاستقرار السياسي، وهو ما آلت إليه عام 1485 عندما أدت الجولة النهائية من الحروب الأهلية بين عائلات الإقطاعيين العظام إلى اعتلاء العرش هنري تودور Henry Tudor، أو هنري السابع.

ولقد تزوج هنري من سيدة تنتمي إلى الجانب الآخر في الحروب، وذلك ليحظى ابنه بالولاء من الجانبين، داعماً السلطة المركزية. وكان ابنه هنري الثامن (حكم من 1509 إلى 1547) وحفيدته إليزابيث الأولى (حكمت من 1558 إلى 1603) من سادة أفراد العائلة المالكة مهارة في الأداء في عصر ارتبطت فيه بصورة وثيقة أصول فن الحكم بالقدرة على الاستعراض أكثر من المعتاد. يمكن أن تصرف انتباهنا عن التغيرات السياسية بعيدة المدى في عهد هنري الثامن، تلك المآسي التي كانت في حياته الخاصة (ملكتان مطلقتان، واثنتان أعدمتا، وأخرى ماتت في أثناء ولادَتها للابن الوحيد الذي عاش أطول منه، وكان الوحيد في ذلك). ولأن هنري لم يكن مهتماً كثيراً بتفاصيل الحكم، فمن غير المحتمل أن يكون هو من حفز على إحداث هذه التغييرات الكبيرة.

كان يتوجب عليه أن يُرزق بطفل شرعي، وسيكون الأمر أكثر أماناً إن قُدر أن يكون طفلاً ذكراً، يحيا من بعده، حتى يتمكن من الإبقاء على توطيد السلطة الملكية التي بدأها أبوه. كان يمكن أن تحكم (إنجلترا من قبل ملكة، لكن الكثير سيحاولون تحديها، على افتراض أنها لم تكن محاربة أَو تصلح للقيادة). في عام 1525 كانت الملكة كاثرين «Catherine» وهي من آراجون «Aragon»، في الأربعين من عمرها، ومن غير المحتمل لها إنجاب المزيد من الأطفال. وكان طفلهم الحي الوحيد بنتاً، ورغب الملك في آن بولين

«Anne Boleyn» الشابة، فسعى إلى الحصول على إبطال زواجه من كاثرين من جانب البابا لفتح الطريق لزواج كاثوليكي مشروع تماماً من آن. لكن تأثير أقرباء كاثرين، حكام إسبانيا أعاق إصدار هذا الإبطال. فبدأ هنري، الذي كتب الدعاوى التي تدافع عن البابا ضد هجمات مارتن لوثر، القطيعةَ مع روما بسبب ضرورات الحكم الملكي الوراثي.

لقد ضمن من سلطات الكنيسة في إنجلترا الحصول على الإبطال والقدرة على الزواج، في الوقت المناسب لجعل الولادة شرعية من الملكة آن بولين في عام 1533 للطفل. وفي الوقت نفسه، دعا إلى عقد برلمان شجع على التعبير عن المشاعر الشعبية ضد ثروة وفساد الكنيسة. كان أمله، على ما يبدو، أن يروع البابا حتى يوافق على الإبطال والزواج إثر الواقعة، لكن البابا رفض. والطفل كان بنتاً، سُمِّيَت إليزابيث. طرد البابا هنري، وقطع بذلك هنري وبرلمانه الروابط الأخيرة للكنيسة الإنجليزية بروما، مرسماً الملك الإنجليزي رئيساً أعلى للكنيسة الإنجليزية، وهذا مستمر إلى اليوم. في عام 1535، انتشر وكلاء الملك عبر المملكة للتحري عن كل أنواع الفساد في الأديرة، مع قدر كبير من المساعدة المتحمسة من الناس العاديين، وتمت مصادرة ممتلكات واسعة من الأديرة، زهاء 20 إلى 25 بالمائة من المملكة. جمع الملك إيجاراً من هذه الأراضي، ومنح بعضها للمؤيدين الموالين والجديرين بالتقدير، وباع العديد منها في النهاية.

كان من الممكن لهذه الزيادة الواسعة في القوة والثروة الملكية أن تهيء المرحلة لمكسب دائم في الحكم المتمركز بين يدي الملك أو الملكة وبضعة وزراء. في الحقيقة، فتح هذا الطريق أشكالاً جديدة من التفاعل والمشاركة في السلطة بين الملك والنخبة. تعلم الملك ووزراؤه الكثير حول كيفية إدارة البرلمان؛ مشجعين على شن الهجمات على الأديرة، والدفع من خلال المراسيم البرلمانية المطلوبة لإجراء تغييرات في الكنيسة. لم يكن الملك قادراً أو راغباً في العيش على الدخل الذي يحصل عليه من إيجارات الأديرة والأراضي الملكية الأخرى، وفي عام 1540، بيعت مساحات كبيرة مِن الأرض بأسعار رخيصة. لم يكن المشترون في أغلب الأحيان من النبلاء العظماء، لكنهم كانوا أناساً ذوي مصادر عيش معتدلةِ، يَستثمرونَ في هذه الأراضي أملاً في تكوين الثروات. أحدثت هذه التغييرات نخبة أوسع من مالكي الأرض الذين دانوا بقدر كبير للحكم الملكي، فواصلوا نزاعاتهم

مع جيرانهم وليس مع جيوش خاصة، كما كان الوضع منذ مائة سنة قبل ذلك، عبر محاكم القانون ومن خلال لعبة شطرنج لانهائية من أجل الوصول إلى الملك.

استخدم الملك بعضاً من دخله المتزايد جدّاً في شراء الملابس الفاخرة وبناء القصور الرائعة، لكنه كان ينفق ما هو أكثر من ذلك على الأساطيل والجيوش المتزايدة، لشن حروب على القارة. لم تكن إنجلترا بعد لاعباً رئيسيّاً في تلك الحروب، التي سعت من خلالها الإمبراطورية الرومانية المقدسة «Holy Roman Empire» وفرنسا للسيطرة على إيطاليا، بيد أن بريطانيا كانت حليفاً قيماً ويستحق السعي للتحالف معه.

حول ملاك الأراضي الجدد الحقول المحروثة في أغلب الأحيان إلى مراعٍ للخراف، توفر الصوف لتجارة الصادرات المتنامية. أدى نمو التجارة ولندن ومدن أخرى، والبحث المسعور عن الثروة، ومحنة المزارعين الذين طردوا من مساكنهم من أجل تربية الخراف، إلى إطلاق نقاشات قوية، في الوسائل المطبوعة والبرلمان، حول «الحكم الذاتي» «Commonwealth»؛ والطرق التي أثرت بها السياسة الحكومية في سبل رزق الناس. كان لدى بعض المشاركين خبرة كتجار، أما بعضهم الآخر فكانوا بارعين في التفكير الكمي الدقيق حول الأسعار، وتأثيرات تخفيض قيمة العملة، وأكثر من ذلك. كما كانت لدى التجار، والحرفيين، وملاك الأراضي في كل مكان أفكار متطورة –بشكل جيد– حول كيف يمكن للحكومة أن تشجع اقتصاداً عادلاً ومزدهراً. وعلى أي حال، كانت مناقشة هذه الموضوعات على الملأ وإعطاء من ليسوا من المسؤولين الفرصة للتأثير في السياسات الحكومية أمراً غير عادي تماماً، أتى نتيجة للمآسي السياسية في بلاط هنري الثامن.

لم تختلف كنيسة هنري الإنجليزية «Church of England» كثيراً عن تعاليم ومراسم الكاثوليكية الرومانية، لكن كل التعاليم الراديكالية القادمة من القارة، من لوثر إلى كالفين وما بعدهما، تمكنت من إيجاد آذان صاغية داخل الكنيسة الإنجليزية والمجتمع دون تدخل من روما. وبعد موت هنري في عام 1547، انحرفت حكومة الملك الابن إدوارد الخامس بحدة نحو البروتستانتية. ولكن تحت حكم ماري «Mary» ابنة هنري، التي حكمت من 1553 إلى 1558، بُذلت جهود حقيقية لإجبار إنجلترا مرة أخرى على إطاعة الكنيسة

الكاثوليكية الرومانية، وتم حرق مئات من البروتستانتيين بسبب تحديهم.

عندما اعتلت إليزابيث، ابنة هنري الثامن وآن بولين العرش عام 1558، بدا محتملاً استمرار الاستقطاب والعنف اللذين سادا خلال السنوات العشر السابقة، وكان الكثيرون على يقين بأن الملكة لن تتمكن من أن تكون حاكماً قوياً.

إلا أن إليزابيث استطاعت بصورة ملحوظة، من خلال مساعدة بعض الوزراء الماهرين، الإبقاء على الاستقرار، وأشرفت على النهوض الملحوظ لبريطانيا كقوة أوروبية، وبدايات التجارة الدولية مع دول شرق حوض البحر الأبيض المتوسط وروسيا وإفريقيا ودول أمريكا والمحيط الهندي، والهزيمة المأساوية للأسطول الحربي الإسباني الذي أُرسل لاحتلال إنجلترا عام 1588. لقد كانت متعلمة نوعاً ما، ومؤدية رائعة على خشبة بلاطها الملكي، وكاتبة خطابات ممتازة، وداهية سياسية. وبدا من الضروري لسياستها وتلك الصورة التي أسرت بها شعبها ألا تتزوج أبداً. فلم يعن زواجها في هذه السن إلا أنها ستقدم نفسها إلى من هو أعلى منها؛ فهي ستتزوج من إحدى العائلات الملكية وسيربطها ذلك بمصالح عائلة زوجها. لقد ابتعدت المبادئ والممارسات الخاصة بكنيسة إنجلترا التي وضعتها هي ووزراؤها وأعضاء البرلمان كثيراً عن السمات الرومانية الكاثوليكية، ولكن ليس بصورة تتسم بالشطط أو السرعة إذ إنها تركت المجال «للمتطهرين المتشددين» الذين أرادوا المزيد من الانفصال عن التراث الكاثوليكي؛ حتى يعتقدوا أنهم يستطيعون الحصول على ما أرادوه من كنيسة إنجلترا. لقد كانت مواطن الجمال في كتاب الصلوات العامة تتحدث إلى الكثير منهم، ولا تزال حتى الآن: «تضيء ظلامنا، ندعوك يا ربنا. وبرحمتك دافع عنا ضد الأخطار في هذه الليلة؛ لأجل ابنك الوحيد، ابنك المنقذ المسيح».3

لقد كان اتحاد «الكومونولث» تحت قيادة إليزابيث قد تشكل بناء على مصالح طبقة كبيرة من الرجال الأثرياء، الذين تكونت ثرواتهم في الأساس من التجارة، وشراء أراضي الأديرة من والدها، وعبر التوسع العام في التجارة، والرخاء خلال فترة حكمها. لقد كان هؤلاء المتعهدون يفكرون في كيفية جني الأموال عبر العلاقات التجارية الجديدة مع الهيئات الملكية التي تضمن نوعاً من أنواع امتياز الاحتكار، التي قد تحمي الأعمال الجديدة والضعيفة، وربما قام آخرون بإضافة المزيد من التمويلات لمثل هذا المشروع؛

وحتى الملكة قامت بشراء أسهم فيما كان يسمى بالـ «مغامرات». كان التجار الإنجليز قد أبحروا حول الخليج الشمالي للنرويج، وتاجروا مع روسيا وعبرها وصولاً إلى مركز تجارة الحرير في أستراخان «Astrakhan» في بحر قزوين، وبحثوا عن إمكانية التجارة في الساحل الغربي من إفريقيا، وتاجروا في جزر الكاريبي وأغاروا عليها في تحدٍّ للمزاعم الإسبانية بالاحتكار، وحاولوا تأسيس مستعمرة على الساحل فيما يُعرف الآن بشمال كارولينا؛ إلا أنهم أخفقوا. وفي الفترة الأخيرة من الحكم قاموا بتأسيس شركة الهند الشرقية التي ستحتكر التجارة القادمة من طريق شرق رأس الرجاء الصالح.

كان فيليب الخامس ملك إسبانيا من بين الخطّاب الذين رفضتهم إليزابيث، وفي السياسة الأوروبية كانت بريطانيا قد ألقت بثقلها ضد قوة إسبانيا العظمى حين أرسلت القوات



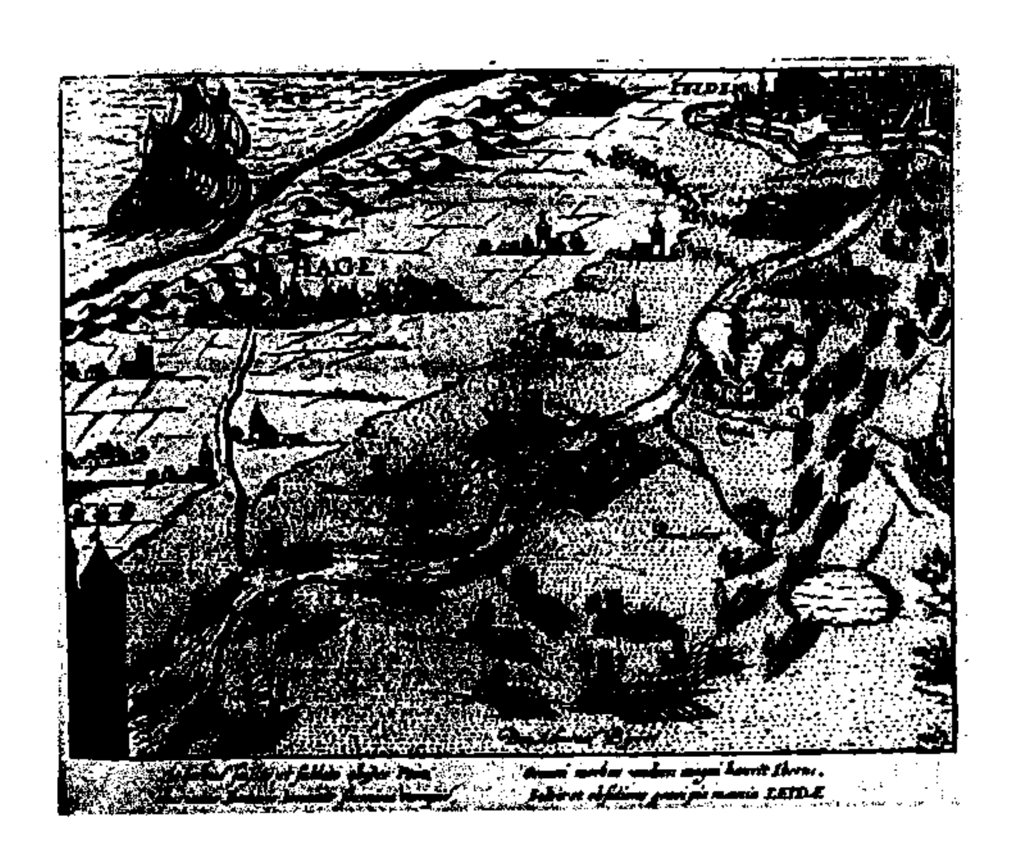
الملكة إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا جاثية على ركبتها تصلي، وصولجانها وسيفها ملقيان جانباً. لكن هذا المعطف الملكي وتلك السترة الرائعة التي تحيط بها يجعلانها شخصية قوية، تصريح الكتاب النادر، ومكتبة المجموعات الخاصة من جامعة إليونز، إيربانا– تشامبين 248.، D33b، 1581.

لمساعدة الثوار الهولنديين ضد إسبانيا في الثمانينيات من القرن السادس عشر. وفي عام 1588 وبسبب مهارة الإبحار الفائقة، وقدر كبير من الحظ، وعاصفة بحرية كانت ملائمة، استطاعت بريطانيا هزيمة الأسطول الإسباني وهو أسطول عظيم، كان يمكنه نقل جيش إسباني كبير من هولندا حتى يقوم بغزو بريطانيا. لقد كانت تلك واحدة من أشهر اللحظات في التاريخ الإنجليزي، وواحدة من أكبر الانتصارات للأرباح والسلطة في تاريخ العالم. كانت الملكة إليزابيث قد تحدثت إلى القوات المتجمعة للدفاع عن بريطانيا ضد الغزو الإسباني قائلة: «شعبي الحبيب، لقد جادلوني كثيراً بشأن الخوف على حياتي، وكيف أن علينا الإصغاء إلى هذه الحشود المسلحة؛ خوفاً من الخيانة [ذلك أن أحدهم نصحها بألا تخرج وتتحدث إلى القوات]، لكنني أؤكد لكم أنني لا أرغب في أن أعيش دون أن أثق في شعبي المحب والمخلص. ليرتعد الطغاة، فلقد وضعت قوتي الأولى وحمايتي في تلك القلوب المخلصة ذات النيات الحسنة لقادة قواتي. أنا أعلم أن لي جسد امرأة ضعيفة، إلا أنني أعلم أيضاً أن لي قلب ملك وملك إنجلترا ذاتها، وأعتقد أن هذا الكريه بارما Parma [القائد الإسباني] أو أياً من أمراء أوروبا لن يجرؤ على غزو حدود مملكتي».4 لقد كان مفتتح كـ«نحن الملكة»، وتأديتها الرائعة لامرأة ضعيفة- مصدرين لقوة شعبية لم تكن متاحة لكل الملوك، حتى قادة الدول الصغيرة الحديثة النشوء مثل هولندا.

في أوائل القرن السادس عشر، كان يوجد في البلدان المنخفضة وخصوصاً في المدن مثل أنتيويرب وبروجز في بلجيكا الحديثة- مراكز تجارية ثرية، وكان بها الكثير من امتيازات الحكم المستقل من قبل الصفوة. ونتيجة لتتابع تلك الزيجات والتوارثات أصبح حكام هابسبورغ Hapsburg القادمون من إسبانيا هم المتسيدين في المنطقة. كانت هناك اتجاهات قائمة خاصة بالعقائد الفردية والإخلاص المسيحي أسهمت في تحميس الاستجابة الشعبية لرسالة لوثر وكالفين، وكذلك تلك الاضطهادات العنيفة من جانب الحكام الإسبان للسلطات الكاثوليكية. وكان القادة والنبلاء المحليون قد تجمعوا من أجل مقاومة المحاولات الإسبانية لفرض سيطرة أشد عليهم، وتم إرسال قوات إسبانية. وفي عام 1567 قام أحد النبلاء الأذكياء وهو وليم أورانج William of Orange بقيادة من حوله في ثورة مفتوحة، ونفي الحامية الإسبانية إلى الخارج.

أعلنت المدن والأقاليم الموجودة شمال هولندا عن اتحادها المستقل وسيادتها في الفترة من 1579 حتى 1581. وقد عُين وليم أورانج، الذي كان يطلق عليه وقتها وليم الصامت William the Silent، كحاكم إقليمي، وبالمعنى الحرفي حاكم البلاد وكبير المسؤولين بها والقائد ورئيس الأركان؛ إلا أنه وأحفاده ظلوا المرشحين الرسميين لتولي مناصب الحكومة الخاصة بالأقاليم المتحدة، وليس حكاماً لها. وفي كل إقليم، مثل إقليم زيلاند Zeeland وهولندا، تقوم المدن المختلفة بتعيين ممثلين عنها لحضور الجمعية الإقليمية، وبدوره يُعين كل إقليم ممثلين للجمعية الوطنية، ومجلس طبقات الأمة «Estates General».

توجب على النائب غالباً - وفي المستويات كافة- أن يلتزم على نحو صارم



قام الهولنديون بشق بعض الخنادق، وانهمر المطر، وبينما امتدت المياه عبر الحقول الهولندية المستوية في عام 1574 وصل جند وليم أورانج (*William Of Orange*) لطرد القوات الإسبانية المحاصرة لبلدة لايدن (*Leiden*). ظل الهولنديون أسياد أراضيهم الريفية الواهنة ومستقبلهم. مكتبة الكونجرس، *LC-USZ62-60379*

بالتعليمات التي تلقاها، ويتلمس أوامر جديدة حين تستجد مواقف. وعلى الرغم من أن مجلس طبقات الأمة هو من يقوم بتعيين الدبلوماسيين وإرشادهم، واتخاذ القرارات المعنية بالحرب والسلام؛ فإن الكثير من الناس اعتقدوا أن السلطة الفعلية كانت على مستوى الأقاليم أو المدن.

لكن العمل الذي كان آيلاً للسقوط قد نجح برمته؛ فقد كان وليم داهية سياسية، وعندما بلغ ابنه موريس (Maurice) سن الرشد في عام 1600 تقريباً، أثبت أنه نابغة عسكرياً. حظيت الأقاليم المتحدة على موارد مالية وفيرة من تجارتها، وكانت تدافع عن حياتها. إن الرخاء الاقتصادي لأمستردام قد تأسس بناء على موقعها كمركز تجاري، وميناء به أكثر الأصناف الممكنة من البضائع المتاحة بسهولة ويسر، من سمك الرنكة في البحر الشمالي، والملح الإسباني، والخشب الإسكندنافي، والبهارات الإندونيسية. وقد كان النظام الضريبي الخاص بالأقاليم المتحدة معقداً، مع وجود اختلافات محلية عديدة، لكنه فعال في اعتماده على الضرائب المفروضة على المبيعات وغيرها من التعاملات الأخرى؛ إذ تم جمعها بسهولة ووضع العبء على أقسام مزدهرة وقوية من الاقتصاد. وقد أثبتت هولندا أن الربح والسلطة ليسا بحاجة إلى الاعتماد على نظام الدولة المركزية المحكم، ويمكن أن يكونا متوافقين مع الحكم الذاتي والامتياز المحلي.

وقامت الأميرالية المركزية بإنشاء أسطول بحري جليل موحد ليس فقط للدفاع عن الوطن، لكنه شارك في صراعات السلطة على بحر البلطيق. كانت الهدنة مع إسبانيا عام 1609 خطوة كبيرة نحو القبول الرسمي للاستقلال الهولندي. ولما ظهر انشقاق خطير بسبب السياسة الخارجية والدين عام 1918، كان نفوذ موريس ومنصبه كقائد للجيوش قد مكناه من فرض آرائه، وضمان تنفيذ حكم الإعدام في خصمه الرئيسي. انتهت الهدنة عام 1621، وخيضت معارك أكثر، ولم يعم السلام حتى عام 1648 الذي اعترف فيه نهائيًا بالأقاليم المتحدة كدولة مستقلة.

وبين عامي 1648 و1650 تم تجنب انشقاق آخر محتمل خطير بين مؤيدي خلفاء موريس في مجلس أورانج وأنصار الحكم الذاتي المحلي والإقليمي، بسبب الوفاة المفاجئة لرأس السلطة التنفيذية وليم الثاني الصغير فقط. وبين عامي 1650 و1672 لم يكن هناك رأس للسلطة

التنفيذية، وأصبحت النخبة التجارية، ولاسيما في أمستردام مسؤولة بشكل كامل. في أثناء تلك العقود التي أطلق عليها الهولنديون مسمى «الحرية الحقيقية»، كانت هولندا أكبر مركز للنشر في أوروبا. أما على مستوى الحياة الدينية، فقد كانت هناك مجموعة كبيرة من أشكال البروتستانتية، وطائفة يهودية نفيت بشكل كبير من إسبانيا والبرتغال، ومن قدموا الخبرة في أساليب التجارة والعمل في سوق الأوراق المالية، والكاثوليك الذين مُنعوا من تولي المناصب العامة، ولكن كان لديهم كنائس صغيرة رائعة مخفية بحذر في أسطح المنازل الجميلة وزواياها. كان الالتزام بالتسامح كفضيلة متناغماً ببراعة مع الضروريات العملية لوجود مركز تجاري عالمي.

وحلت الكارثة في عام 1672 مع الغزو الفرنسي الخطير والقتل الوحشي لاثنين من قادة الحكومة على أيدي مجموعة من الرعاع. فقد عمل وليم الثالث (William III)؛ رأس السلطة التنفيذية الذي استقال، بنجاح مع النخبة التجارية؛ حين عزز موقفه ونظم عملاً مدهشاً قائماً على الثروة والسلطة أدى في النهاية إلى الغزو الناجح لإنجلترا في عام 1688.

وبحلول عام 1600، صار الهولنديون يتاجرون في كل مكان يوجد فيه الإنجليز، وعملوا على توسيع التجارة في المحيط الهندي؛ فكانت البداية بإرسال رحلات فردية بعثت بها مختلف المدن والأقاليم. وقد وجد الهولنديون أنهم – في هذه الموانئ البعيدة– في حاجة إلى التوحد للدفاع عن أنفسهم ضد البرتغاليين، بدلاً من تنافس بعضهم مع بعض. وقد حقق الحكام الهولنديون مزيجاً رائعاً من الإقليمية والمحلية في شكل شركة الهند الشرقية الهولندية المتحدة.

كان لهذه الشركة «غرف» في مختلف المدن والأقاليم، وكان مجلس إدارتها يتكون من سبعة عشر عضواً. عينت أمستردام ثمانية أعضاء، إذ كانت أكبر مدينة تجارية حينها، وعينت مقاطعة زيلاند أربعة أعضاء، وعضواً واحداً من الغرف الأقل حجماً. ومن ثم، فقد كانت أمستردام تتمتع بنفوذ كبير، لكنها لم تستطع القيام بأي شيء دون الحصول على الأصوات من الغرف الأخرى.

واستثمرت الغرف بصورة منفصلة في السفن والبضائع في أوروبا، إلا أن الشركة أقامت في آسيا هيكلاً مركزياً له حاكم عام ومجلس في باتافيا، وجاكرتا الحديثة،

وإندونيسيا. قامت سلطات باتافيا بتنسيق التجارة من اليابان إلى إيران، ودخلت حروباً وتحالفات خاصة مع الحكام الآسيويين، واحتفظت بسجلات رائعة عن كل ما رآه وتعلمه الهولنديون في الموانئ الآسيوية.

وقد منحوا كذلك فرصاً حقيقية للترقية، ذات طابع نادر الوجود في أي مكان آخر بالعالم أثناء القرن السابع عشر، لأشخاص فقراء طموحين تمكنوا من النجاة من الأمراض الاستوائية في العام الأول أو نحوه، كأنطوني فان دايمان (Anthony Van Dieman) مثلاً الذي أخفق في مشروع تجاري بأمستردام، وتجنب دائنيه عندما قام بالتوقيع مع الشركة عام 1617. لقد رأى مدير العمليات للشركة في آسيا، الحاكم العام جان بيترسز كوين (Jan Pietersz Coen) قدرات فان دايمان وقام بترقيته سريعاً جدّاً. كان جان بيترسز كوين قائداً شديد البراعة وقوي الإرادة، وكان يكتب باستمرار لرؤسائه في الوطن يخبرهم بما يستطيع إنجازه إذا ما أرسلوا إليه مزيداً من السفن والرجال، ولم يتردد في التعامل بخشونة مع الآسيويين الذين اعترضوا طريقه. صار فان دايمان منذ عام 1636 حتى عام 1645 الحاكم العام لعمليات الشركة بآسيا؛ فكان مهتمّاً جدّاً بتوسيع نطاق المعرفة الجغرافية، والسعي وراء فرص جديدة للتجارة، فقد أرسل رحلات استكشافية إلى شمال اليابان وشرقه؛ حيث لم يعثروا على شيء، وإلى جنوب جاوة وشرقها؛ حيث استكشفوا شواطئ غينيا الجديدة (New Guinea) وأستراليا، لكنهم عثروا على فرص تجارية قليلة.

وعندما منح الحاكم المحلي الشركة احتكاراً لشراء منتج معين، مثل القرنفل أو جوزة الطيب من شرقي إندونيسيا، غالباً ما كان فرضه لذلك الاحتكار أمراً وحشيّاً. لقد كانت جزر باندا الصغيرة (Banda) البعيدة عن شرق إندونيسيا الحالية هي المصدر الوحيد في العالم لجوزة الطيب، والتابل المستخرج من قشرتها الخارجية، وهما اثنان من البهارات المكلفة ينتجان من الشجرة نفسها، ويستخدمان لإضافة نكهة أو للحفظ، ويتم الإتجار بهما طوال الطريق إلى أوروبا. كان شعب باندا يمتلك شبكة تجارية ملاحية خاصة به، وقد قاوم إلى أبعد حد، حين قام الهولنديون ببناء حصن حوله، ووقعوا على عقود مع زعماء محليين وافقوا على بيع البهارات للهولنديين فقط.

لم يكن لدى أي حاكم الحق في إلزام كل الانديين (شعب باندا) باتفاق من هذا القبيل،

ولم يكن لدى الزعماء أي خبرة بمثل تلك التعقيدات القانونية. وفى عام 1621 أمر كوين (Coen) بالاحتلال القسري للجزر الرئيسية؛ حيث تم إعدام أربعين من الزعماء الباندين، واستُعبد الكثير غيرهم، وقُتل الباقون في اعتداءات على قُراهم أو ماتوا من الجوع والمرض بسبب البرد خلال موسم الأمطار.

وقد نجا منهم القليل جدّاً حتى كعبيد، وتم تأجير بساتين جوزة الطيب للمستعمرين الأوروبيين، وكان يتم العمل بها عن طريق العبيد الذين تم شراؤهم من مكان آخر بآسيا.

وكان من المفترض أن تؤدي السلطة إلى تحقيق أرباح من الاحتكار، وقد حدث ذلك بالفعل على المدى القصير. وفى أواخر القرن السابع عشر، كانت الشركة الهولندية مازالت تبني حصوناً جديدة لمحاولة فرض احتكاراتها على القرنفل بالقوة، منغمسة بعمق أكثر وأكثر في محاولة السيطرة على السياسة المعقدة لجزيرة جاوة الكبيرة، ذات الكثافة السكانية العالية. لم تعد جزر البهار ولا جاوة الشرقية المصادر الرئيسية للبضائع ذات الطلب المتزايد في أوروبا، ولم يعد واضحاً أن تطبيق القوة يُنتج أرباحاً للشركة الهولندية، ناهيك عن تأثيرها في السكان المحليين. ومع ذلك، فقد كانت هناك حالة استثنائية لبناء نفوذ مركزي على أساس قاعدة لامركزية للامتياز المحلي. إن الشركة الانجليزية، التي تأسست قبل الشركة الهولندية، لم تستطع مسايرتها كهيكل للسلطة والنفوذ حتى عام 1700 تقريباً؛ حين صارت لاعباً رئيسيّاً في التجارة في شبه القارة الهندية، التي تعد واحدة من أكبر الجبهات المليئة بالفرص والغنائم في القرن التالي.

عملت شركة الهند الشرقية الهولندية على توسيع نفوذها في جنوب شرق آسيا البحري في القرن السابع عشر؛ حيث طورت علاقاتها مع عدد كبير من الحكام المحليين الذين أبدَوا اهتمامهم بالعلاقة الإيجابية بين الأرباح التجارية والنفوذ العسكري. إن تأثير العدوان الهولندي قد دمر بعض هؤلاء الحكام، وقلل من نمو الآخرين، لكن بعضهم واصل النمو جيداً بعد عام 1700؛ ولاسيما من كان في الأراضي الوسطى الغنية بالأرز، والعديد منهم كان في البلاد المحيطة بالجبال أو مستنقعات المنجروف التي تحتوي على العديد من الأسماك، لقد وصل سلاطين أتشيه (Aceh- Ah cheh) للسلطة باعتبارهم أبطالاً للإسلام في المنطقة، وبدا الغزو البرتغالي لملاكا (Melaka) بمثابة انتكاسة كبيرة



في مالوكو (*Maluku*) «جزر البهار» شرقي إندونيسيا، قامت قوات شركة الهند الشرقية الهولندية بالتحالف معاً والقتال ضد المحاربين المحليين. وقد قام الفنانون الهولنديون بالتقاط بعض الصور الحية لهم، لكن غالباً ما كان يتم إرجاء النشر عن طريق الشركة؛ تخوفاً من أن معلومات كتلك من شأنها مساعدة المنافسين. ***KITLV*** / المعهد الملكي للدراسات، جنوب شرق آسيا، ومنطقة الكاريبي بلايدن (***Leiden***).

للنفوذ الإسلامي، وقد كانوا من بين المشاركين البارزين في معظم التحالفات الإسلامية التي هاجمت ملاكا البرتغالية في القرن السادس عشر. رفع سلطان أتشيه التماساً إلى السلطان العثماني بإسطنبول يطلب فيه الدعم المالي والدبلوماسي ضد البرتغاليين. وكان لدى أتشيه محاكم للشريعة الإسلامية؛ حيث كان المسلمون من إيران وشبه القارة الهندية كثيرين وذوي نفوذ بين التجار الأجانب المقيمين بها.

توجب عليهم استيراد الأرز عن طريق البحر. وكانت من بين هذه المناطق أتشيه في الطرف الشمالي من سومطرة، ومملكة أيوتهايا (Ayutthaya) أو ما يعرف الآن بتايلاند (Thailand)، وأراضي نجوين (Nguyen) في ما يعد الآن وسط فيتنام.

وصلت ذروة الثروة والنفوذ في أتشيه تحت ظل السلطان إسكندر مودا (Iskander Muda)، الذي حكم منذ عام 1607 حتى عام 1636؛ حيث أحكم سيطرته على كل التجار وكل مظهر للحياة في عاصمته، كما شجع التعليم الإسلامي. لم تكن أتشيه (Aceh) على علاقة جيدة بالهولنديين. وبعد عام 1650 تقريباً، بدا أن الحروب المستمرة قد اقتطعت من ثروتها ونفوذها.

نادراً ما وُجدت أي مشكلة تتعلق بالإمدادات الغذائية في الوادي الكبير لنهر مينام (Menam) في جنوب شرق آسيا، الذي يتدفق بمحاذاة العاصمة القديمة لأيوتهايا

(Ayutthaya – Ah yoo tai ya) وبانكوك الحديثة؛ حيث كانوا بصورة طبيعية يحصلون على حصادين من الأرز الجيد سنوياً. وقد تأسست مملكة أيوتهايا زهاء عام 1350، وشجع حكامها الشكل القديم للبوذية ثيرافادا، التي حفظت بشكل جيد وبخاصة في سيريلانكا؛ حيث وضعت أهمية كبيرة على الأديرة باعتبارها مراكز للعبادة والتعليم. ولم يظهر الكثير من التحدي للسلطة السياسية، مما منح المجتمع الاستقرار والنظام. وعلى الرغم من أنه نادراً ما تمكن الحكام من تعيين خلفائهم؛ إذ صارت كل خلافة دوامة من العنف والتآمر، فإن النظام الجيد والرخاء سرعان ما يعودان.

وقع في عام 1568، غزو بورمي مدمر، إلا أن العوامل الأساسية لمخزون الطعام والطاقة البشرية العسكرية كانت قوية جدّاً. وكان من الممكن استدعاء المزارعين العاديين لخدمة الحكام مدة تصل إلى ستة أشهر في السنة، وهي الأشهر التي لم تكن هناك حاجة فيها إلى زراعة كل هذا الأرز وحصاده. أما بالنسبة للأوضاع في إفريقيا، فقد اعتمدت السلطة والثروة بشكل كبير على حشد مزيد من العمال، أكثر مما اعتمدت على التحكم في الأرض. وقد انسحب الغزاة البورميون سريعاً، آخذين معهم الآلاف من الأسرى للعمل في حقولهم.

وقد عمل الزعماء المحليون دائماً على تحويل العمل من المجموعة الملكية إلى أهدافهم الخاصة، وبخاصة حينما تلوح أزمة خلافة. ومن ثم احتاج الملوك إلى قوة من خارج نظام الأرض والعمال هذا، وقد حصلوا عليها من التجارة الأجنبية والمقيمين الأجانب. استقر التجار الصينيون على امتداد نهر مينام الجنوبي لقرون؛ حتى قيل إن مؤسس مملكة أيوتهايا ينحدر نفسه من جذور صينية. وقد عمل المقيمون الصينيون المتمتعون بثنائية اللغة والثقافة، في وزارة التجارة الخارجية بالمملكة، وهي المصدر الرئيسي للدخل الملكي، وأداروا ورتبوا رحلات السفن التجارية للملك إلى الصين، واليابان، وجاوة. وفي القرن السابع عشر، كانت إحدى العائلات القوية التي يخرج منها كبار المسؤولين تنحدر من أصول إيرانية مسلمة. وكان لدى أحد الملوك في أوائل القرن السابع عشر حارس خاص من اللاجئين الصينيين؛ فلقد ظل أحفاده عنصراً آخر في المزيج الثقافي.

رأى الملوك وكبار مسؤوليهم معهم – الذين كانوا يشعرون بالإيمان عند ممارساتهم

البوذية في الاحتفالات التقليدية المحيطة بالملك، وبسبب قدرتهم على تعبئة قوات ضخمة من القرى– أن التجار الأجانب يمثلون مصادر ملائمة للدخل، ولا يشكلون أي تهديد على الأمن والنظام في ممالكهم. وقد أحدثت أيوتهايا تأثيراً كبيراً في الزوار الأجانب؛ بتماثيلها الضخمة المغطاة بالذهب، وأبراج معابدها البوذية، والقوارب المزخرفة ببذخ، التي تقوم بنقل الملك وكبار مسؤوليه أعلى النهر وأسفله.

وفي ثمانينيات القرن السابع عشر شهدت أيوتهايا أحداثاً سياسية مأساوية؛ إذ حاول الفرنسيون التأثير في سياستها، وتمنت قلة من المبشرين المخادعين تحويل الملك إلى المسيحية، لكنه توفي ونُفي الفرنسيون، واستمرت المملكة في وضع متزن حتى القرن الثامن عشر.

وفي القرن السابع عشر، ظهرت ولاية تجارية صغيرة قوية على الشاطئ المركزي لفيتنام الحديثة (Vietnam)، ليست ببعيدة عن هوي (Hue)، فهي تقع في ميناء مدينة هوي أن (Hoi An). لقد كان ذلك نظاماً إقليمياً في البداية، ورسمياً تحت سلالة لي (Le)، التي حكمت في منطقة هانوي (Hanoi) الحديثة. اعتمد حكام لي (Le) بشكل كبير على عدد من العائلات القوية الأخرى من الأرستقراطيين المحاربين، وبخاصة الترنيه (Trinh Jing)، ونجوين (Nguyen)، (وهي حالياً: ngoo en)، والماك (Mac). وبحلول عام 1520، قام الماك (Mac) بطرد لي (Le) من منطقة هانوي، وطالبوا بالخلافة.

في أقصى الجنوب، تأسس نظام يدعى الخلافة الشرعية للي، وكان يحكمه الترنيه والنجوين. وفي عام 1566، حصل نجوين هوانج (Nguyen Hoang) على وظيفة حاكم لمقاطعة الحد الجنوبي. لقد ترك البلاط ليشغل ذلك المنصب، ويرأس قوة معتدلة ومتماسكة من الضباط والجنود الملكيين من بلدته في الشمال؛ مكونة من زهاء 20 سفينة. وفي عام 1592 قاد قواته شمالاً للمشاركة في طرد المغتصبين الماك من ثانه لونج (Thanh Long) (هانوي الحديثة)، وعاد أدراجه إلى الجنوب فقط عام 1600 لمواجهة الخطر المتزايد من المقاومة المرتبطة بالماك (Mac) في تلك الجهة.

وفي عام 1600، تزايد الشك المتبادل فيما بين ترنيه ونجوين، لكن لم يحدث الانفصال التام وإنشاء نظام منفصل لنجوين إلا بعد وفاة نجوين هوانج (Nguyen Hoang) فقط، عام 1613، في حين وصل ابنه للسلطة جنوباً بسبب الحق الوراثي إلى حد كبير، محاطاً بالقادة

والقوات الملكية من الإقليم الوطني نجوين في الشمال. شكلت خبرته بإمكانات المنطقة توجهاته، فهي منطقة يمكن الدفاع عنها من جهة الشمال، وتحقيق أرباح من التجارة الملاحية والتوسع في الزراعة في جنوبها. وفي واقع الأمر، تم تحويل واحدة من السُلَط المحلية –التي كانت في أيدي عائلة كبيرة واتباعها، والتي جعلت السياسة في دلتا النهر الأحمر على مدى قرون غير مستقرة إلى حد بعيد– من منطقة الدلتا إلى منطقة حُولت طاقاتها إلى اتجاهات جديدة. كان لدى نجوين خبرة بحرية كبيرة، فبعض قواتها الأساسية أتت جنوباً عبر البحر؛ حيث تمرس الجنود في المعارك، وكانت لديهم خبرة كبيرة في الأسلحة النارية.

نشأ ميناء عالمي مزدهر إلى الجنوب في هوي أن (أطلق عليه الأوروبيون اسم فايفو Faifo)، وهو ليس بعيداً عن دانانج (Danang) الحديثة. ولم يُقم أمراء نجوين هناك بشكل دائم، وأبقى نجوين سيطرته عليه بصورة غير مكترثة؛ فقد ظلت هذه المدينة المترامية الأطراف والواقعة على النهر في جنوب شرق آسيا غير منظمة، وبها مساكن منفصلة للتجار من مختلف الدول، ولم يكن فيها مسكن في مستوى أي من القصور أو البيروقراطية الموجودة في ثانه لونج. جاء اليابانيون بأعداد غفيرة. ففي عام 1600 تقريباً، أتوا في سفن تجارية مرخصة ومعززة من جانب السلطات اليابانية، وفي نهاية القرن أتى العديد منهم كمنفيين، فراراً من اضطهاد المسيحيين. كان عدد التجار الصينيين دائماً كبيراً ومؤثراً. وفي أواخر القرن السابع عشر، رفض القليل منهم العيش تحت حكم السلالة الحاكمة الجديدة كينج (Qing)، وظلوا متمسكين بالملابس والشعر اللذين يرمزان إلى السلالة الحاكمة القديمة مينج (Ming)، وكان يطلَق عليهم باللغة الفيتنامية: «هؤلاء الذين يحرقون البخور من أجل مينج».

بعد وفاة نجوين هوانج عام 1613، انفصل ابنه نجوين فويك نجوين (Nguyen Phuoc Nguyen) على نحو واضح عن نظام حكم ترنيه (Trinh) في الشمال؛ حيث أوقف مساهمته المالية لها عام 1620. وبين عامي 1627 و1673 وقعت ستة صدامات عسكرية كبيرة بين المنطقتين، وهو ما أنهك قوى الجانبين بعد ذلك، وأجبر الترنيه على ترك نجوين في سلام. كانت الإدارة والتنظيم العسكري أمراً مركزياً لدولة نجوين، وكان

يمثل التجنيد في الخدمة العسكرية العبء الأهم والمرهق على عامة الناس. كانت جميع البضائع المستوردة – ولاسيما النحاس للمدافع البرونزية، والرصاص للطلقات، والملح الصخري للبارود– حيوية لتلك الأمة التي كانت في حالة حرب. وبحلول عام 1615 تقريباً، تم وضع جدول منتظم لجباية الضرائب المفروضة على السفن من مختلف البلدان. لم يعتقد المراقبون المعاصرون أنها كانت مرتفعة جدّاً، لكن ما كان لمملكة نجوين القدرة على البقاء خلال تلك العقود من الحرب دون عوائد التجارة الملاحية والرخاء الذي جلبته التجارة الملاحية والبضائع الاستراتيجية التي استوردت.

أقامت اليابان وإنجلترا أشكال سلطتهما الحديثة على أساس من الوحدة، مما جعل قوميتهما الحديثة أمراً غير مفاجئ تماماً؛ لكن هذا الشعور، في تلك البلاد وبصورة أكبر في هولندا، انسجم بالاتحاد مع أحاسيس قوية جدّاً من الهوية المحلية. ويمكننا أن نرى، من خلال تلك الحالات الجنوب شرق آسيوية، وبخاصة من أيوتهايا مع تجارها الصينيين ذوي النفوذ، حتى المسلمين الايرانيين، أن التنوع العرقي أو اللغوي أو الديني لم يكن عائقاً لا يمكن تخطيه، أمام التطوير الناجح لأشكال جديدة من الربح والسلطة.

كانت البندقية عام 1450 أو عام 1500 أعظم مثال للأوروبيين على أن الربح والسلطة والتجارة والقوة المسلحة تعزز بعضها بعضاً. كانت البندقية دولة المدينة العظمى على رأس البحر الأدرياتيكي (Adriatic)، فمنذ القرن الثاني عشر خاضت كل من البندقية وجنوة على الجانب الغربي من شبه الجزيرة الايطالية العديد من الحروب للسيطرة على البحر الأبيض المتوسط، كما أرسلت قوافل من السفن الشراعية إلى داخل المحيط الأطلسي، صعوداً حتى الموانئ الغنية في ما يُعرف الآن ببلجيكا. وبحلول عام 1500 كانت البندقية هي القوة المسيطرة، متاجرةً أحياناً مع العثمانيين بشكل سلمي، لكنها غدت بعد عام 1453على رأس تحالفات مسيحية هشة، في كثير من الأحيان، تعارض العثمانيين. أظهرت كنائسها الرائعة وقصورها تراث الإمبراطورية البيزنطية والعالم الإسلامي وكذلك أوروبا الغربية. كانت مدينة البندقية كاثوليكية إلى حد كبير، بيد أنها كانت في صراع دائم مع الباباوات. وتضمنت ترسانتها الكبيرة، أكبر

تجمع للإنتاج في أوروبا، فشملت أكثر من عشرة آلاف عامل، وكان بإمكانها صنع مركبة حربية كاملة الحجم في يوم واحد. وقد حكمت الموانئ الرئيسية في البحر الأدرياتيكي، وشبه الجزيرة البيلوبونسية في اليونان، وجزيرتي كريت وقبرص، وكان لديها مصالح تجارية رئيسية في كل ميناء في البحر الأبيض المتوسط.

كانت البندقية جمهورية ذات قيادة منتخبة مدى الحياة مثّلها الدوج (Doge). وكان لنحو ألفي رجل الحق، بالوراثة وفي خط عائلي خاص، أن يشاركوا في المجلس الأكبر، وقد كانوا جميعاً مؤهلين لتولي مناصب في الدوائر، بدايةً من الوظائف في شرطة المدينة، مروراً، كجنرالات وسفراء، حتى مناصب الحكام للمواطن المستعمرة. وانتخبوا من بينهم زهاء مئتي شخص كأعضاء لمجلس الشيوخ الذي يجتمع بعد ظهر كل يوم أحد لاتخاذ قرارات بشأن الموضوعات الخاصة بالسياسة الخارجية، والحرب والسلام، ونفقات الحكومة. وقاموا كذلك بانتخاب أعضاء المجالس المحلية والدوج، وذلك عن طريق إجراءات تصويت معقدة جدّاً. كان الدوج، الذي يتم انتخابه عادة يناهز سن الستين أو أكثر، وبعد أن أمضى عمراً في خدمة الجمهورية، محاطاً بالمراسم والغموض، لكنه كان –حتماً– خادماً للإرادة الجماعية للمجالس. وكان من المفهوم أن العائلات الكبيرة الممثلة في هذه المجالس كافة، تشارك بصورة نشطة في التجارة، وأن الدولة تقوم وتسقط عبر الأرباح المحققة من التجارة. في أوائل القرن السادس عشر، رأت البندقية أن التجارة في البهارات عبر موانئ شرق البحر الأبيض المتوسط كانت مهددة من جانب الجهود البرتغالية للسيطرة على التجارة في المحيط الهندي، لكن الحصار البرتغالي أثبت في النهاية أنه هش تماماً. قادت البندقية تحالفاً من الأساطيل المسيحية إلى انتصار كبير على العثمانيين في معركة ليبانتو (Lepanto) عام 1571، لكن العثمانيين أعادوا بناء أساطيلهم. كما انسحبت البندقية من قبرص، وخسرت كريت أمام العثمانيين في القرن السابع عشر. لم تكن الجمهورية نداً لهياكل «الأرباح–القوة» في كل من بريطانيا وهولندا وفرنسا.

كانت فرنسا في عام 1690 قوة عظمى في أوروبا، وعدوّاً توجبت خشيته، فهي معروفة بحجم جيوشها، وانضباط مخابراتها، وقسوة دبلوماسيتها. كان ملكها لويس

الرابع عشر (Louis XIV) مثالاً رائعاً للثروة والسلطة الحاكمة. إن أوروبا اليوم، من لشبونة إلى سان بطرسبرج، تتناثر بها القصور التي شيدها ملوك آخرون تقليداً لقصر فرساي الذي بناه لويس خارج باريس، والذي أحكم من خلاله قبضته وإدارته لدولة مركزية. لكن هناك اختلافات لافتة للنظر لحالات أخرى للربح والسلطة في أوروبا مثل: إنجلترا، وهولندا، والبندقية. لم يكن لدى فرنسا مجلس للنواب، وكانت المجالس المحلية تحت سيطرة المسؤولين المعينين بواسطة الملك؛ حيث تمنى التجار الحصول على ثروة ضخمة من خلال احتكار التجارة الخارجية، وتوفير البضائع الجيدة لفرساي، لكنهم وجدوا أن الدولة الملكية صعبة المراس، وذات قيادة تصادمية، ولم تسرع في الاستثمار في بعض من تلك المحاولات. في عام 1685 أضعف لويس الرابع عشر الازدهار التجاري في مملكته عندما ألغى مرسوم نانيت، الذي منح البروتستانت قدراً محدوداً جدّاً من التسامح، مجبراً بذلك بروتستانت فرنسا وأفضل تجارها على الذهاب إلى المنفى. أصبح الفرنسيون البروتستانت مساهمين واضحين في الثروة التجارية لإنجلترا، وهولندا، ودولة روسيا الصاعدة، التي تعد جميعاً من أعداء فرنسا.

بدت فرنسا قوة عظمى في أوروبا قبل عام 1450؛ حين كان موقعها المركزي وزراعتها الغنية أهم أصولها الأساسية، وقد دعمت تلك الثروة طبقة ارستقراطية إقطاعية كبيرة وشامخة ومدناً كبرى. وفي أواخر القرن الخامس عشر، بدأت جهود الملوك الفرنسيين السعي لجعل السلطة الحاكمة مركزية، وتوسيعها إلى المناطق النائية التي كانت تابعة للمملكة بصورة غير محكمة. وظهر استخدام حديث للسلطة الملكية في تسعينيات القرن الخامس عشر عبر الغزوات والمناورات الدبلوماسية في إيطاليا؛ التي دائماً ما تكون في مواجهة بيت هابسبورغ النمساوي – الإسباني. دفع فرانسيس الأول (Francis I)، المنافس المعاصر، والخصم من وقت إلى آخر للملكية الرائعة لهنري الثامن في إنجلترا، المركزية إلى أبعد حد ممكن، لكنه أحس لنقص المال لديه بضرورة استغلال بيع الوظائف للمزايدين أصحاب أعلى سعر. وعلى خلاف هنري، فلم يكن فرانسيس مضطرّاً للتعامل مع برلمان ذي حقوق صارمة يجب الإصغاء إليها، فقد كان لدى الفرنسيين مجلس لطبقات الأمة، ونادراً ما دعي للاجتماع؛ وإن حدث فلا

يكون عن طريق فرانسيس مطلقاً.

بنهاية حكم فرانسيس في عام 1547، وقعت اشتباكات عنيفة وخطيرة بين الكاثوليك والبروتستانت في فرنسا؛ حيث صار بعض النبلاء الكبار بروتستانتيين من منطلق الاقتناع أو لأسباب سياسية. وفي ستينيات القرن السادس عشر، كانت الملكية ضعيفة، إذ كان الملوك صغار السن، ونشبت صراعات عنيفة بين ثلاثة فروع كبيرة في الدار الملكية: أحدها كاثوليكي، والآخر بروتستانتي، والأخير منشق. انعقد مجلس طبقات الأمة، لكنه لم يتمكن من الوصول إلى تسوية. وقادت عائلات النبلاء قواتها في معارك مفتوحة تعدى بعضها ثماني وقائع من الحروب الأهلية. وفي يوم الاحتفال بالقديس بارثولوميو (Bartholomew) عام 1572، شجعت السلطات الغوغاء من الناس في باريس على قتل كل بروتستانتي يجدونه. وعندما اعتلى هنري الرابع العرش في عام 1588، وكان بروتستانتياً، تحول إلى الكاثوليكية، وحاول إيجاد طريق لمنح الجانبين مساحة للعيش؛ بعضهم مع بعض، لكنه اغتيل في عام 1610.

أنقذت المهارات الدبلوماسية والإدارية للكاردينال الكبير ريتشاليو (Richelieu) الملكية الضعيفة التي تمر بموقف عسكري خطير من كارثة محققة، فقد عمل بكل جد لتقليص الامتيازات القانونية للبروتستانتيين في فرنسا، لكن ذلك لم يجعله يتردد في التحالف مع حكام بروتستانت أجانب ضد نفوذ الأباطرة الرومان المقدسين بهابسبورج، فقد دمر معظم القلاع التي كانت قواعد لنفوذ النبلاء الفرنسيين، ومنح حق جباية ضرائب إضافية للمعينين عن طريق الملك. وتظهر اللوحات الرائعة التي تصوره في أردية الكاردينال القرمزية الحريرية، رجل دولة بارزاً في بلاط ملكي ثري، لا قساً متواضعاً وخادماً للإنجيل على الإطلاق.

وجاءت الجولة الأخيرة من الاضطراب المخيف، وتمرد النبلاء بين عامي 1648 و1653؛ ففي عام 1651 اقتحمت مجموعة من الغوغاء قصر اللوفر في باريس، وطالبت برؤية الملك الصغير، هنري الرابع عشر، واضطرت أمه إلى الموافقة، وتظاهر هو بالنوم حتى تمكنت من إخراجهم. كبر لويس وهو يكره باريس والفوضى، فقام ببناء قصر فرساي وقصور أخرى أصغر خارج باريس، ونادراً ما خطا بقدمه داخل اللوفر.

ولما توفي وزيره الأول عام 1661، أعلن بسرعة نيته أن يصبح هو وزير نفسه الأول؛ حتى يتخذ القرارات النهائية كافة بنفسه، وحرص على تذكير وزرائه بأنه هو الدولة. وحتى ملوك فرنسا الأوائل استخدموا أحياناً استعارة الشمس البراقة مانحة الحياة- لا الشمس كمركز للكون، الذي لم يكن بعدُ رأياً أرثوذكسياً- كرمز للملكية.

لقد استعمل لويس الرمز بشكل مستمر وحاسم، مبرزاً شخصية رائعة عندما لعب دور الشمس أو أبوللو؛ إله الشمس، في قاعة للباليه بالبلاط. أخفت حياة لويس وشكليات حياة البلاط الواضحة ومباهجه، ساعات من مطالعة الوثائق واجتماعات المجلس التي كانت تعقد بين الملك ووزرائه. وبحلول عام 1664، أصبح لدى لويس وزير مثالي يساعده، مهتماً بالتفاصيل وصاحب عقلية مسيطرة، هو جان- بابتيست كولبرت (Jean-Baptiste Colbert). قام كولبرت وطاقم متواضع من الموظفين وبعض من المعينين في الأقاليم بجهد غير عادي أدى إلى كشف عديد من المزاعم غير المفوّض بها لطبقة النبلاء، وحالات أخرى من تحايل التهرب من الضرائب، وألغى العديد من المناصب غير المفيدة، وغيرها من المطالب الأخرى في الخزانة الملكية، وخفّض المديونية التي أثقلت الميزانية الملكية بشدة، ورفع كفاءة وأمانة عملية جمع الضرائب. وبحلول عام 1671، كانت الدخول الملكية الصافية على الأقل قد تضاعفت.

وبعد مرور عقود من الحرب الأهلية والعنف في المدن، كان من الممكن ملاحظة دوافع مماثلة نحو النظام، والتسلل الهرمي، والمركزية في العديد من الميادين. أصبحت باريس ومدن أخرى تحت سيطرة أكثر فاعلية، وتم تحجيم سلطات المحاكم القانونية والمجالس الإقليمية، وصارت الضوابط على النشر أكثر إيضاحاً. وجد النبلاء أن لديهم فرصاً ضئيلة لبناء قوات مضادة في الأقاليم، وإذا أرادوا الوصول إلى العديد من المناصب المربحة التي تقع تحت تصرف الملك مباشرة، وأن يثبت أبناؤهم أنفسهم في جيوش الملك المتزايدة، فيجب عليهم التخلي عن قواعد سلطاتهم في الأقاليم، وقضاء وقت أطول في البلاط الملكي. استخدم لويس عائدات ضرائبه المرتفعة في توسيع مملكته بطول حدودها، ومحاولة السيطرة على جيرانها الكبار، فغزا هولندا عام 1672، والأراضي الألمانية على امتداد نهر الراين عام 1688.

إن إلغاء مرسوم نانيت في عام 1685، الذي أنهى كل التساهلات القانونية مع البروتستانت في فرنسا، قوّى الشعور لدى الشعوب البروتستانتية في إنجلترا وهولندا، التي كانت واقعة تحت حكم حاكم واحد بعد الغزو الناجح لإنجلترا من جانب وليم الثالث عام 1688- بوجوب معارضة فرنسا في كل مكان. كانت النتيجة وقوع مواجهة استراتيجية وعسكرية بين فرنسا وإنجلترا استمرت في النشوب والتوقف حتى هزيمة نابليون (Napoleon) عام 1815. كانت الملكية الفرنسية مركزية بقوة، لكن ورغم جهود كولبرت، بدا هيكلها الضريبي غير فاعل ومليئاً بالإعفاءات الضريبية، وبخاصة فيما يتعلق بطبقة النبلاء. وحتى ذلك الوقت، لم يكن مجلس طبقات الأمة قد انعقد. كان التوحيد الفرنسي مثاراً للإعجاب في أواخر القرن السابع عشر، وذلك وفقاً لما سبق، عبر فرض السياسات والوزراء الذين يختارهم الملك ووزراؤه المقربون. غير أن غياب التسامح الديني، والتنوع الثقافي بها، ونقص الهيئات الاستشارية مثل البرلمان الإنجليزي، ومجلس طبقات الأمة الهولندي، والمجالس بالبندقية- جعلتها دولة جامدة. وقد زال ذلك الجمود في ثورة شكلت العالم بعد ذلك عام 1789.

الفصل الخامس

المستوطنون والمهاجرون
1640 – 1610

لم يشهد العالم، في القرنين السادس والسابع، انتقال معظم الناس بعيداً عن ديارهم مسافةً تزيد على 10 أميال. وإن أقدموا على ذلك، كانوا ينتهجون نمطاً مألوفاً من الهجرة، أو يسلكون بعض الطرق التجارية من موسم إلى آخر. وكان لهؤلاء الذين انتقلوا بإرادتهم أو رغماً عنهم إلى مدن بجوار بحار نائية، دور في تشكيل العالم من عدة جوانب مهمة.

ففي عام 1650، استوطنت مجموعة قدمت من إنجلترا وإسكتلندا وإيرلندا جيمستاون (Jamestown)؛ المعروفة حالياً بفرجينيا. وجاء بعضهم إليها بالمال بحثاً عن سبيلٍ جديدٍ للثروة، فوجدوا في زراعة التبغ تجارةً واعدةً. ووقع بعضهم «عقد خدمة» يسددون بموجبه ثمن رحلتهم البحرية، لقاء إلزام أنفسهم بخدمة سيدهم فترةً تصل إلى سبع سنواتٍ في الغالب. وبعد إيفائهم بهذا العقد، بحث بعضهم عن عمل في الزراعة أو ممارسة حرفة ما، وقليل منهم كان ينتقل إلى البر ليتاجر مع أهل البلد من الأمريكيين، وربما تزوج منهم. وفي عام 1650 استضافت جيمستاون عدداً كبيراً من المقيمين والعبيد القادمين من جنوب الصحراء الكبرى. وكان المزارع يدفع في ابتياع العبد أكثر مما يدفع في عقد لخادم متعاقد، غير أن العبد يدين بالولاء لسيده حتى الموت أو البيع.

وعند منتصف العالم في شبه جزيرة مالاي، تقع مدينة ميلاكا البحرية، التي كانت تتميز بوجود مجموعة مختلفة تماماً من المقيمين قدموا من بعيد. وكانت تخضع في القرن الخامس عشر لحكم المسلمين الماليين، وانتقل الحكم في القرن السادس عشر إلى البرتغاليين، ثم في عام 1641 إلى شركة الهند الشرقية الهولندية. بيد أن الجزء الأكبر من التجارة في ميلاكا ظل بيد الأجانب سواء أكانوا مسلمين آسيويين جاؤوا من الهند وإيران وشبه الجزيرة العربية أو هندوسيين من جنوب الهند أو قليلاً من الأرمن أوعدداً كبيراً من الصينيين. إذ تحكم التجار المهاجرون في معظم التجارة، التي تتم في كثير من الموانئ حول المحيط الهندي

وبحر الصين الجنوبي، ومنها ميناء أيوتهايا وهوي آن ومانيلا وباتفيا.

إن كلمة دايسبورا «Diaspora»، التي تعني الشتات بالعربية، هي كلمة يونانية. وأول من استخدمها هم اليهود، الذين تبعثروا في مدن شرق البحر المتوسط المتحدثة باليونانية بعد الاحتلال الروماني للقدس وخراب معبد اليهود لسبعين عاماً خلت من الميلاد. ودرج استخدامها بعد ذلك في وصف أي هجرة لمجموعة من الناس خرجوا من ديارهم بعد احتلال أجنبي أو لم يتمكنوا من العودة إليها خشية الاضطهاد. فكان لعبيد إفريقيا المهاجرين ديارهم قبل أن تتقطع الصلات بينهم، وتميز الوطن الأم للصينيين المهاجرين بالقوة والنفوذ، غير أن حكمه خضع لملوك أهملوا الصينيين بالخارج أو حملوا لهم العداء. وفي فترات من القرون الأولى حتى عام 1000 من الميلاد، أرسل الحكام الهندوسيون أساطيل إلى جنوب شرق آسيا. ولم يكن لدى الأرمن مركز قوة يدعمهم. وبالنسبة إلى المهاجرين المسلمين، برز عدد قليل من التجمعات المتماسكة وبخاصة في حضرموت، وهم من زعموا أن نسبهم يصل إلى محمد -صلى الله عليه وسلم-وامتد نفوذهم ليشمل أرجاء المحيط الهندي. ومما لا شك فيه أن للإسلام سبله المميزة في الحفاظ على رونقه أينما ذهب، مؤكداً على الدوام ارتباطه بمحوره الجغرافي كلما اتجه المسلمون تجاه الكعبة في صلاتهم. وكان الحج إلى مكة بمثابة تأكيد للعلاقة الوثيقة مع الأرض الأم، لكثير من المسلمين، الذين لولا ذلك لكانوا من المهاجرين.

وعلى النقيض، يأتي المجتمع الاستيطاني الذي كان دائماً ما يحظى بدعم وطنه، ويحتفظ باتصال سياسي معه لفترات طويلة، وهذا ما فعله الإنجليز في جيمستاون. لقد أقام أفراد هذا المجتمع بين الضعفاء من السكان المحليين (أو الذين أضعفتهم وأوهنتهم الأمراض التي جلبها التبادل الكولومبي) حيث يُمكنهم الشروع في إحياء مجتمع جديد بالكامل، وإحياء جزء كبير من اقتصاد وطنهم. وكانت المجتمعات الإسبانية والبرتغالية في الأمريكتين استيطانية في كثير من جوانبها، إلا أنها كانت وما زالت حتى يومنا هذا متأثرة في تشكيلها إلى حد كبير بتراث السكان الأصليين. وفي أرجاء الأمريكتين، تنقل السكان الأصليون واندمجوا مع غيرهم طواعية أو كرهاً، وكان انتقالهم بدافع التجارة مع الأوروبيين أو العمل لديهم أو الفرار منهم، ليوجدوا لأنفسهم وطن الشتات الخاص بهم.

وتأتي أغلب حكايات الغربة لتروي المحن مع حديثٍ عن الرخاء والترابط الاجتماعي الذي تحقق رغم العقبات الكؤود، التي حالت دون ذلك. وفي الفترة بين عامي 1450 و 1700 لم تكن بلاد الأرمن مركزاً واعداً لمزاولة أهلها وحدتهم ومهاراتهم المتعددة. فكانت عبارة عن سهول حجرية تتمركز حول جبل أرارات إلى الجنوب من جبال القوقاز الضخمة. ومكنها موقعها من السيطرة على طرق التجارة عبر آسيا الداخلية، التي كانت تأتي من الطرف الجنوبي لبحر قزوين، ثم تتفرع باتجاه الشاطئ الشمالي للبحر الأسود أو نحو الجنوب الغربي للبحر المتوسط. وفي ذروته، امتد النفوذ والاستيطان الأرمينيان على طول الطريق الأخير حتى سيليسيا بالقرب من البحر المتوسط، وهو الشريط الذي يفصل بين سوريا وتركيا حالياً. وفي القرن الخامس عشر، لعب الأرمن دوراً تجارياً مهماً على طول الجانب الشمالي للبحر الأسود، وتوجد سجلات تتحدث عن وجودهم في المراكز الرئيسية للتجارة في أوراسيا بداية من بكين حتى مدينة بروج في بلجيكا الحديثة.

في عام 1500 تقريباً، خضع الجانب الشمالي من البحر الأسود لسيطرة العثمانيين فاستحوذت إسطنبول على الفرص التجارية الحقيقية. وكان قلب أرمينيا شرق البحر الأسود ساحة حرب بين العثمانيين والصفويين، الذين احتلوا جزءاً منه عام 1506 ورحّلوا غالبية سكانه الأرمن قسراً إلى مناطق يُحْكمون قبضتهم عليها، فنقلوا الفلاحين إلى مقاطعة جيلان جنوب قزوين حيث أسهموا في بروزها كمركز حيوي لإنتاج الحرير، أما التجار فقد وُطنوا في ضواحي أصفهان.

وإذا ألقينا نظرة على تاريخ العالم، فقلما نجد إعادة توطين تفتح مثل هذه الآفاق الرحبة أمام المرحلين جبراً. فقد أجاد الشاه العظيم عباس (Shah Abbas) (حكم بين 1588 – 1629) توظيف الجورجيين والأرمن الذين اعتنقوا الإسلام، فاستعملهم في إقامة بيروقراطية مركزية فاعلة. ولم يفرض على المرحلين الجدد اعتناق الإسلام، لكنهم لعبوا أدوراً مهمة في إدارة خطوط التجارة الرئيسية ولاسيما تجارة الحرير، أما القرويون من أرمن جيلان فكانوا من بين كبار المنتجين. وشّيدت في جولفا الجديدة بضواحي أصفهان كنائس ومقرات للمراكز التجارية الكبيرة ومدارس لتعليم تراثهم باعتبارهم من أوائل الشعوب تحولاً إلى المسيحية، ولتميزهم بمهارات كبيرة في حفظ السجلات والإدارة

التجارية. وكان للمراكز التجارية دور في مساعدة شاه الصفويين على إدارة تجارة الحرير وتحصيل الضرائب. وقدم بعض الأرمن للحكام العثمانيين في إسطنبول خدمات عادت عليهم بالرخاء. وتَوَزع تجار هذه المراكز على الطرق التجارية الممتدة من لشبونة حتى ماكاو ومانيلا، وكان لمقرهم جزء من تجارتهم والجزء الآخر لأنفسهم بعد أن يرسلوا إلى مقرهم تقارير تفصيلية تكون موضع ثقة مطلقة.

بعد وفاة الشاه عباس، انقطعت جدوى العلاقات الإيرانية بالنسبة للأرمن، إلا أنها منحتهم فرصة الانطلاق نحو تجارة أوسع في اتجاهين. ففي الشمال التقى تجار الحرير من الأرمن الهندوس والمسلمين القادمين من مملكة المغول مع التجار الروسيين القادمين من فولغا في أستراخان حيث يصب نهر الفولغا في بحر قزوين، بالإضافة إلى قطع عدد قليل من المشاركين في تجارة إنجلترا مع روسيا المسافة إلى أستراخان لشراء الحرير الإيراني. وفي اتجاه الجنوب والشرق، أقام الأرمن شبكة من المجتمعات التجارية عبر الهند بغرض توفير خدمات آمنة ورخيصة لتحويل الأموال لقومهم وغيرهم. وكان لهم مقر في لاسا في التبت. وقد التحق بعضهم بالقافلة السنوية التي كانت تمر عبر الصحراء المرتفعة بشمالي التبت إلى شينينغ بالصين حيث قايضوا الفضة بالذهب الذي تميز بارتفاع ثمنه في الهند عن الصين. فكان هؤلاء التجار رموزاً مهمة في التجارة بين شرقي البحر المتوسط وإثيوبيا التي رحبت بهم باعتبارهم مسحيين نجحوا أن يعيشوا بين المسلمين كالجزر في البحر. كما يوجد لدينا سجل يتحدث عن أرميني عمل عند الإنجليز حيث مصب نهر جامبيا غربي إفريقيا، ووافته المنية هناك.

ويندرج السكان الأصليون في الممالك الأوروبية القوية ضمن فئة المهاجرين الذين تعرضوا للنفي، لرفضهم اتباع العقيدة الدينية الغالبة. فانتشر المهاجرون الهوغونت (Huguenot) (البروتستانت الفرنسيون) في أوروبا عندما صار الفرنسيون المنفيون من كبار التجار وأصحاب البنوك في جينيف ولندن أمستردام وبرلين. وفي أواخر الثمانينيات من القرن السابع عشر، فر عدة مئات من البروتستانت الفرنسيين من اضطهاد لويس الرابع عشر، ليستقروا تحت سلطة شركة الهند الشرقية الهولندية في رأس الرجاء الصالح حيث كانوا يقدمون المؤن لسفن الشركة المتجهة من جنوب شرق آسيا وإليها. وكان

السفر إلى المستعمرة الهولندية الصغيرة في الطرف الجنوبي لإفريقيا أمراً محفوفاً بالمخاطر، لذا كان القادمون يشجعون من خلال تقديم الدعم السخي والأراضي. فالطريق إليها كان طويلاً؛ إذ تستغرق الرحلة البحرية إليها شهرين وأحياناً أربعة شهور أو أكثر، مع قطع مسافة طويلة حول خط الاستواء، مما يعرض السفينة إلى خطر توقف الرياح أو أن تضل طريقها وسط الحرارة الخانقة.

توسعت المستعمرة الأوروبية في رأس الرجاء الصالح على بعد أميال قليلة من قلعة الشركة الصغيرة وشاعت الخمور وانتشر البغاء. ولم تجد الشركة صعوبة في إدارة حانة في رأس الرجاء عبر أحد موظفيها السابقين. وأطلق السكان الأصليون على أنفسهم كلمة الخويخوي (Khoikhoi) (أي الشعب الحقيقي) وسماهم الأوروبيون الهوتنتوت (Hottentots). وكانوا سعداء ببيع غنمهم للشركة. غير أن احتياجات السفن المارة لا تقتصر على ذلك، وإنما امتدت إلى الخضراوات والفاكهة. ومن ثم جاء الترحيب الحار بالمزارعين الهوغونت (Huguenot) الذين وجدوا بعد نفيهم من فرنسا دعماً من دولة قوية، وشركة تشاطرهم عقيدتهم البروتستانتية. فاستقر كثير منهم في واد خلاب يقع على أطراف المستعمرة الأوروبية، وجدوا فيه أرضاً خصبة لزراعة العنب بغرض استخدامه في إنتاج الخمور. وكانت هناك بعض الأسماء الفرنسية القديمة بين سكان جنوب إفريقيا الأوروبيين، الذين تولوا الحكم في جنوب إفريقيا حتى التسعينيات من القرن العشرين مثل ملان وماريس ودو توي.

كان بوسع الهوغونت العيش بسلام في فرنسا إذا تحولوا إلى المذهب الكاثوليكي، وكان في مكنة مستوطني ماساتشوستس الذين سموا أنفسهم بالحجاج والطهرانيين (Puritans) العيش في هدوء بإنجلترا إذا أبدوا رغبتهم في أن يصبحوا أفراداً مخلصين لكنيسة إنجلترا. وأسهم البروتستانت الذين استوطنوا بنسلفانيا بعد اضطهادهم في إنجلترا، في التنوع الديني والمحافظة الأخلاقية للحياة الأمريكية. كما فر الكاثوليك الذين استوطنوا ماريلاند من الاضطهاد في إنجلترا. إلا أن هذا كله لم يكن ليحدث لولا وجود نوع من التنظيم يسّر رحلات المستوطنين عبر المحيطات، ووفر سنوات من المؤن الثابتة لمستعمرة ناشئة. وقدم المستثمرون في المستعمرة الدعم لها لدوافع دينية، بيد أن الأمر تحسن عندما

بدأت المستعمرة في تصدير المنتجات المربحة.

وتعتبر جيمستاون أولى المستعمرات الإنجليزية التي نجح تأسيسها على أرض أمريكا الشمالية، على الرغم من تعثرها كثيراً في سنواتها الأولى، حتى وصل الأمر إلى شروع العدد المتبقي من المستوطنين في التوجه إلى إنجلترا على ظهر إحدى السفن، قبل أن تلوح في الأفق سفينة تحمل على متنها مؤناً ومستوطنين جدداً، فعادوا جميعا ليبدؤوا من جديد. وعند حديثها عن الأسطورة الأمريكية، تعكس الصحافة جيمستاون في صورة سيئة للغاية، فتتحدث عنها كمدينة تعج بمجموعة من الأرستقراطيين المعتوهين الذين يتقاتلون ويلهثون وراء الذهب، بدلاً من صرف اهتمامهم إلى الزراعة، كما فعل الحجاج المتقون بعد ذلك بسنوات قليلة.

ليس هذا الأمر خطأً في مجمله، غير أن بعض الاكتشافات التاريخية في موقع جيمستاون والدراسات العلمية ذات الصلة أظهرت أن الأمر أهون من ذلك بكثير. فاتسمت المراحل الأولى من التجارة مع المجاورين من الشعب الأمريكي الأصلي بالمودة والخير، إذ وجدوا من الضروري إقامة علاقات قوية مع الأمريكيين الأصليين لتأمين الإمدادات الدائمة للغذاء، وإلا فإنهم مضطرون إلى الاعتماد التام على الشحنات القادمة من جزر الهند الغربية، في وقت يحرثون فيه الأرض لزراعة أول محاصيلهم. ولسوء الحظ قدم المستوطنون في عام 1607، وهو ما تزامن مع بداية عشر سنوات شداد من الجفاف دل عليه لحاء الأشجار التي أخذت من المنطقة. ومع انتهاء العام الثاني منه، أبلغ الأمريكيون الأصليون القادمين أنهم لم يعد لديهم ما يكفي لإطعام ذويهم. وبحلول عام 1617 بدأ المستعمرون الإنجليز في تمرير قوانين تفرض قيوداً على العلاقات مع الأمريكيين الأصليين، وتعرضوا في عام 1622 إلى هجوم عنيف، غير أنهم صمدوا وانتقموا بشدة.

انتهى مشروع جيمستاون إلى عقود امتلأت بجدل شديد؛ تناوله الناس وتداولته الكتب، اشتد حول تبوؤ إنجلترا مكاناً وسط الشعوب الأوروبية التي كانت تستفيد من علاقاتها عبر المحيطات، رغم أنها ظلت اللاعب الثانوي في أوروبا حتى أواخر القرن السادس عشر. وهناك تقارير تم تجميعها، ولاسيما المنقحة منها، وترجم بعضها على يد ريتشارد هكلويت (Richard Hakluyt)، وحظيت برواج جيد في لندن شكسبير. يتحدث

بعض هذه التقارير عن كنوز الإسبان وفظاظتهم، ومنها ما يخص تجارة التوابل وغيرها من مصادر الثروة في المحيط الهندي، ومنها تقارير تتحدث عن احتمالية وجود طرق أسرع تصل إلى المياه الآسيوية في الشمال الغربي حول القارة الأمريكية أو الشمال الشرقي حول روسيا. وقد قامت على إدارة شؤون المستعمرة الصغيرة شركة لندنية نشط فيها هكلويت الذي لم يتجاوز في سفره مدينة باريس. لكن سرعان ما أفلست الشركة عام 1624، بعد أن قدمت العديد من الخدمات الحيوية مثل توفير المؤن، وتعميم الفرص، وبيع منح الأراضي، وتسويق المحصول التجاري، الذي كان بمثابة مفتاح النجاح للمشروع، وهو التبغ.

إن زراعة التبغ وتدخينه هما في الأصل من عادات الأمريكيين الأصليين. ولقد غدا التبغ منتشراً في أرجاء العالم بعد افتتاح التبادل التجاري الكولومبي، وأشبه بانتشار النار في الهشيم، حتى أصبح كل من يحارب هذا الطاعون في مجتمعنا الحديث عاجزاً أمامه. وكان التبغ يزرع في مزارع متوسطة المساحة تقع بالقرب من السفن، ليتسنى نقله إلى إنجلترا. وقد أخذت خبرة زراعته وعلاج آفاته تتقدم باطراد. ونهض الإنجليز، الذين قدموا كعمال مسخرين، بالأعمال الثقيلة التي انتقل واجب القيام بها في العقود المتأخرة إلى العبيد الذين جلبوا من إفريقيا. وضمن أصحاب الأملاك والمستكشفون الأقوياء وبعض أفراد الطبقة الارستقراطية الغنية الفارون من الحرب الأهلية بإنجلترا لأنفسهم نصيباً في الحكومة المحلية عبر ممثليهم في المجلس المحلي الذي تقاسم السلطة مع الحاكم المعيّن بقرار من شركة فرجينيا حتى 1624، ليكون بعد ذلك بأمر الملك. وبوجود القمح التجاري والعلاقات التجارية والمجلس النيابي استطاعت شركة فرجينيا أن تتجاوز العقبات وتتخذ قرارات بنفسها.

وبعيداً في الشمال اتخذت المستعمرة الإنجليزية شكلاً مختلفاً. فكان قدوم الشخصيات المحورية في المجموعة من قرية تدعى سكروبي (Scrooby) في شمال إنجلترا. وصاروا بعد ذلك من الحجاج، واستقروا عام 1621 في بليموث المعروفة حالياً بماساتشوستس. وكانوا في الغالب من طبقة فقيرة وليس لهم نصيب كبير من التعليم. كما كانوا من الانفصاليين، إذ أصروا على إنشاء هيئة مستقلة لكل طائفة مسيحية ورفضوا أي ارتباط مع كنسية إنجلترا. ونظراً لرغبتهم في تأسيس مجتمع إنجيلي سليم دون انتظار نهاية الصراع الطويل

لتطهير الكنيسة، تعرضوا للأحكام الظالمة بالحبس والسجن في إنجلترا، وناقشوا مشاريع الرحيل والاستقرار في أمريكا، قبل أن يهجروا إنجلترا للعيش في هولندا عام 1608. وكما هي حال كثير من المسيحيين الإنجيليين الذين يقومون في عصرنا هذا على تربية أبنائهم في لوس أنجلوس وأمستردام، انتابهم القلق على أبنائهم من تحدث لغة أجنبية، والنشأة في مجتمع يبيح كل شيء.

افتقر الانفصاليون للسلطة والوضع الاجتماعي، ومع ذلك أقاموا علاقات مع أصحاب النفوذ في لندن؛ ممن كانت لديهم الرغبة في تقديم يد العون لهم، لترتيب الانتقال إلى العالم الجديد. وتراءى لبعض أصحاب النفوذ الآخرين أن من الأفضل إبعاد الانفصاليين عن طريقهم؛ إن تم دون إزعاج أي مستعمرة ناشئة أخرى، بل قد يعود عليهم بعض المال من صيد الأسماك وتجارة الفرو مع الأمريكيين الأصليين.

راجت مجموعة غامضة من الخطط الاستثمارية و«براءات الاختراع» لإقامة المستعمرات في بعض المناطق، فعندما أبحر ما يقرب من مائة شخص على متن سفينة ميفلاور (Mayflower) في عام 1621 من بليموث في جنوب إنجلترا، كانت هناك خطة أخرى في انتظار موافقة الملك. ومع بدء المهاجرين تجهيز أول بيوتهم وبنائه، أعلنوا ميثاقاً يحكمون به أنفسهم في صورة ترتيبات مؤقتة، إلى أن تحظى بالموافقة أو تتم ترتيبات أخرى في لندن. واستمرت المداولات، وتعرض الموقف لعواقب كثيرة في سبيل الحصول على الشرعية. وفي الواقع، لم يكن نجاح الحكم الذاتي في بليموث إلا نتيجة لقبول لندن بما تمخض عنه الموقف، وفقدان قبضتها على مجريات الأمور في الخارج، وحاله في ذلك كحال المجلس النيابي في فرجينيا. وتوزع مستوطنو بليموث على مزارع صغيرة، واحترفوا صيد الأسماك وتاجروا مع السكان الأصليين. وتميزوا في تجارة الفرو في الشمال على ساحل مين المعاصرة. وبعد عام 1630، وقعت بليموث إلى حد ما تحت نفوذ مشروع تطهيري في منطقة بوستن، غير أنها تمسكت باستقلالها وحيويتها خلال القرن السابع عشر.

وتفوق البيوريتان الذين استقروا حول المنطقة المعروفة حالياً ببوستن على البروتستانت الحجاج في النفوذ، وزادوا عليهم بصلتهم بإنجلترا، بالإضافة إلى علاقات مع عديد من كبار المحامين في لندن، بل ومع نبلاء مقاطعة لنكن. وكانوا بارعين في التمويل والتنظيم

فقد أوفدوا في 1630 – عامهم الأول – ألف شخص إلى ماساتشوستس. وبحلول عام 1642، وصل عدد المهاجرين إلى ماساتشوستس ستة عشر ألفاً، وهو بالفعل عدد ليس بالكبير طبقاً للمعايير التاريخية، إلا أنه كان كافياً لتأسيس مجتمع استيطاني والتوسع في أراض جديدة. كما نجحوا في اتخاذ مزيد من الخطوات الرسمية نحو الحكم الذاتي الإمبريالي، وكتبوا ميثاق شركة خليج ماساتشوستس على نحو جعلهم في ريادة من لهم حق التصويت من المشاركين فيها، وأخذو معهم وثيقة الميثاق إلى ماساتشوستس، وراوغوا في الاستجابة لطلب إعادتها إلى إنجلترا.

لم تترك الحرب الأهلية التي شهدتها الأربعينيات من القرن السابع عشر فرصة للملك أو البرلمان للنظر في أمور المناطق الخارجية. وليس من السهل إدراك مدى تفوق الأمن خلال الحكم الذاتي لشركة ماساتشوستس على نظيره في فرجينيا أو بليموث. وفي الحالات الثلاث أسهمت أحداث الأربعينيات والخمسينيات في تراكم خبرتهم وبناء تجربتهم في الحكم الذاتي، الذي كان في ماساتشوستس أشبه كثيراً بحكومة ذاتية تديرها الأقلية المتدينة الصالحة، فكان الرجال الأحرار الذين لهم حق الانتخاب هم أعضاء الكنيسة الذين يدينون بالولاء الكامل لها، ولا يصير الشخص عضواً بالكنسية إلا باليقين وإقناع كبار الكنيسة بعفو الله المخَلِص له. وفي العقود اللاحقة صارت مناطق أخرى من نيوإنجلاند مستعمرة لسكان الحدود الذين تاجروا مع الأمريكيين الأصليين عبر نهر كونيتكيكت ولونغ أيلند، كما سكنها مجموعة من البيورتانيين في نيوهيفن (مدينة في كونيكتيكت حالياً)، وكانوا أكثر تشدداً في عقائدهم وشعائرهم من أتباع مذهبهم في ماساتشوستس، كما كانت سكناً للاجئين من أتباع البيورتانيين، الذين كانوا أول من نادى بالفصل التام بين الدين والدولة، واستوطنوا منطقة تعرف حالياً برود آيلاند.

وغالباً ما صُوّر الاستيطان الأوروبي لفرجينيا كما لو أن هناك حداً أو خطاً يتجه غرباً بتقدم الأوروبيين وتراجع الأمريكيين واستسلامهم للأوبئة والأمراض، لكنهم كانوا أحياناً يردون مقاومين. وفي الحقيقة لم تشهد الأرض خطاً فاصلاً على الإطلاق، بل كانت مساحة واسعة ظلت فترة طويلة من الدهر، بمثابة «منطقة وسطى»، لا تخضع للسلطان التام لأي من الطرفين. وتواصل القادمون الجدد والسكان الأصليون، بل جمعتهم أحياناً

علاقات طيبة. وهذا أمر ظاهر في ماساتشوستس قبل وصولهم إلى بليموث حيث تعامل الأمريكيون الأصليون مع الصيادين العابرين والمستكشفين، وكان لديهم ولوع بشراء المُدى والبضائع المعدنية ورؤوس الفؤوس وأواني الطهي. وكانوا يبيعون الزائرين أحياناً الغذاء، إلا أن السلعة الأكثر رواجاً في السوق الأوروبية كانت فرو القُنْدُس. وتم التوجه إلى الفرو الرقيق المقاوم للماء في صناعة اللباد اللامع المضاد للماء، وهو المادة التي كان يفضل الأوروبيون استخدامها في صناعة القبعات من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر.

واستمر اتساع المنطقة الوسطى، عبر سعي المستوطنين إلى إقامة مشاريع خارج قراهم ومزارعهم، وتعايشهم مع المجتمع الأمريكي الأصلي وتجارتهم معه، وزواجهم من أبنائهم، في حين اعتنق بعض الأمريكيين الأصليين المسيحية، واستقروا في قرى «الهنود المتقين». وكانت للمنطقة الوسطى أهمية كبيرة بالنسبة إلى شمال ماساتشوستس وجنوبها، حيث يقود نهر سانت لورنس ونهر هدسون نحو قلب الثروة في القارة، مما أوجد في عام 1650 أو 1700 منطقة تجارية تميزت باختلاف الثقافات والأعراق؛ وصلت إلى البحيرات العظمى ونهر المسيسبي.

من عام 1624 حتى 1626، أقام الهولنديون مراكز تجارية على نهر هدسون وفي جزيرة مانهاتن، ومنطقة ألباني المعاصرة. وكانت هذه المراكز متميزة في موقعها فاستفادت من شبكة الطرق البرية لتجارة الفرو، إلا أن تقدم المستعمرة اتسم بالتذبذب والتعثر. وحتى عام 1640، لم يفد إليها إلا قليل من المستوطنين ويعود ذلك إلى رخاء هولندا، وسعة صدر أهلها، كما احتكرت شركة الهند الغربية حكم المستعمرات، ولم تسمح لأفراد المستعمرات بالمشاركة في تجارة الفرو. وأثارت التوسعات التي حققتها التجارة والمستعمرة الهولندية في الأربعينيات من القرن السابع عشر هجمات مضادة شنها في شمال المكسيك بعض كبار أثرياء الأمريكيين الأصليين المنظمين المعروفين بالإيروكواس (Iroquois)، الذين تمكنوا بعد ذلك من طرد الهولنديين.

وبعد ذلك نهج الهولنديون نهجاً حذراً كمبدأ في تعاملهم مع الإيروكواس، محافظين على تجارتهم في الفراء. وبالقرب من نيو أمستردام (عاصمة المستعمرة الهولندية)

تدهورت العلاقات مع شعب الألجونكين (Algonkian) وسكان ديلاوير (Delaware) نظراً لوصول مزيد من المستعمرين الهولنديين، إذ هاجر كثير منهم لإقامة مزارع صغيرة، وسوروا حقولهم الزراعية تاركين خنازيرهم وأغنامهم تعيث في الغابات فساداً، وتعتدي على الحقول الزراعية المفتوحة التي يملكها الأمريكيون الأصليون. واشتكى كثير من الأمريكيين للسلطات في نيو أمستردام دون جدوى، فقاموا بهجمات متقطعة دفعت الهولنديين في عام 1641 إلى الرد بهجوم على قرية للأمريكيين الأصليين، شنه جنود هولنديون مسلحون، وراح ضحيته أكثر من مائتي أمريكي قطعت أوصالهم حتى الموت أو أحرقوا داخل بيوتهم. ودارت حرب عصابات عنيفة حتى عام 1645 أتت بالكامل على تجارة الأمريكيين في الفراء، والمؤن الغذائية المتجهة لنيو أمستردام. بيد أن الأعداد الغفيرة للإنجليز أخذت عاماً بعد الآخر في دفع الهولنديين خارج وادي نهر كونيتكيكت. واستسلم الهولنديون في عام 1665 دون إطلاق رصاصة واحدة، بعد أن وجهت إحدى سرايا السفن الحربية الإنجليزية مدافعها صوب قلعة نيو أمستردام، التي أضحت نيويورك.

أدى وجود الهولنديين في هدسون إلى حدوث العديد من التغيرات بالنسبة إلى الأمريكيين الأصليين جنوب بحيرة أنتاريو، وكانوا خمس مجموعات تملك لغة وثقافة واحدة، وأطلق عليهم خمس أمم من الإيروكواس. ومع وصول البضائع التجارية إليهم، ضربتهم الأمراض بعد استيطان الهولنديين في ألباني عام 1624. وهو الأمر الذي فقد الإيروكواس على إثره نصف قومهم. وكانت عادتهم في تأبين الأقارب الذكور أن يشنوا حرباً على غيرهم، ويأسروا منهم رجلاً يجبرونه على العيش داخل المجتمع أو يعذبونه حتى الموت. وكانت خسارة الإيروكواس البشرية الفادحة، واستمرار حاجتهم إلى البضائع التجارية التي أصبحت تشمل البنادق ومسحوق البارود والطلقات دافعاً وراء شنهم هجمات عنيفة ضد جميع جيرانهم في الاتجاهات كافة، بما في ذلك الهولنديون المقيمون على طول نهر هدسون والأمريكيون الأصليون، الذين تاجروا مع الفرنسيين على نهر سانت لورانس. وتبعثر الأمريكيون الفارون من هذه الحروب وسط القارة، مما شكل أرضاً متوسطة للتجار، اتسمت بتعدد ثقافات الأمريكيين الأصليين.

وبحلول الستينيات من القرن السابع عشر، تقاتل الإيروكواس فيما بينهم، كما واجهوا

القوات العسكرية الإنجليزية والفرنسية المتزايدة. ولأجيال طويلة، حافظوا على سيادة السلام بينهم بعقد اجتماعات دورية بين قادتهم خلال حفلات تأبين موتاهم، بالإضافة إلى الخطب التي كانوا يلقونها. فنجحوا في تحويل هذه الحفلات إلى منبر لصناعة السلام بينهم، ومع الفرنسيين والبريطانيين. وكان استقبال القادة القادمين لمثل هذه الاجتماعات يتم بحفاوة بالغة، عبر تبادل الهدايا وتقديم واجب العزاء لأقارب المتوفى، وإقامة حفل للتفريج عن أهل الميت، وتكريم القادمين من بعيد. واحتل تأكيد العلاقات الشخصية مرتبة تفوق كل مرتبة. وتحكي إحدى الروايات الفرنسية أن واحداً من الماهوك (Mohawk) أخذ بزمام رجل فرنسي، ووضع يده بيده، وأمسك بيده الأخرى يد الجونكوين (Algonquin) قائلاً: «هذه هي العقدة التي تربطنا إلى الأبد، وإن ضربها برق فلن يفرق بيننا، فإن قطعت اليد التي تربطك بنا، أمسكنا بعضنا باليد الأخرى» فاستدار وأمسك بكل من الفرنسي والجونكوين من أيديهما وضمهما إليه حتى بدا وكأنه لا يريد تركهما أبداً».1

ويبدو أن حكام المستعمرات الإنجليزية رأوا في حضورهم هذه الاجتماعات نوعاً من بناء نظام للالتزامات تجاه السيادة الإنجليزية على الشعوب الأمريكية الأصلية. وبالنسبة إلى المشاركين عن الإيروكواس، كان الهدف من هذه المناسبات هو تأكيد العلاقات باللقاء وجهاً لوجه، حتى وإن كانت مع عدو سابق. وتدل على ذلك تلك الكلمات لأحد قادة الإيروكواس: «على فرض أنها لم ترق إلى مستوى الطموحات، ألا نعانق السعادة التي أتت إلينا؟ إنه السلم يستبدل الحرب؟ نعم، فلنعفُ عما بدر من الأشرار، فلنصافح شعب السينيكا (Senecas)، ولنمد يدنا إلى لا بيرا (La Barre) (قائد فرنسي)، ولنقذف بفؤوسهم وسيوفهم في بحر لجي»2.

كان نهر سانت لورانس طريقاً تتخذه السفن نحو مونتريال (Montreal) العصرية. فقدمت زمرٌ كبيرة تضم زهاء 1500 صياد برتغالي وإسباني وفرنسي، جاءت لصيد أسماك القد، وكان أفرادها يجففون صيدهم -أحياناً- في المستعمرات الساحلية المؤقتة، التي تقع على ساحل نيوفاوندلاند (Newfoundland). وسرعان ما انضم إليهم صائدو الحيتان. ولم ينشئ الأوروبيون لهم مستعمرات دائمة، إلا أن الأمريكيين الأصليين سرعان ما أدركوا إمكانية مقايضة الفراء بالمُدى والأواني. وتصف إحدى الرحلات البحرية الاستكشافية

الفرنسية بقيادة جاك كارتيه (Jacques Cartier) مواجهة مع الأمريكيين الأصليين وقعت عام 1534 «وفي اليوم التالي، جاء بعض هؤلاء الهنود في تسعة قوارب. وبوقوع نظرهم علينا، شرعوا في الهرب بعيداً، مصدرين إشارات تدل على أنهم أرادوا مقايضة البضائع معنا، ورفعوا بعض الفراء الرديء القيمة، فبعثنا برجلين إلى الشاطئ، عرضا عليهم بعض المُدى والسلع الحديدية الأخرى بالإضافة إلى قلنسوة حمراء أخذاها إلى رئيسهم. وما إن رأوا ذلك حتى أرسلوا بعضاً منهم بالفراء، وتبادل الفريقان البضائع». وفي التسعينيات من القرن السادس عشر، يروي قبطان إنجليزي أن الشعب المحلي أصبح شعباً وسطاً، مستخدماً قوارب صيد الحيتان الأوروبية، ولبس أفراده العديد من الثياب الأوروبية، واستخدموا لغة تجارية مهجنة من الباسكية والهندية».3

تأسست المستعمرة الفرنسية فيما يعرف حالياً بمدينة كيبيك عام 1608. ولم يكن يصلح للزراعة على امتداد نهر سانت لورانس سوى شريط ضيق. وعلى غرار فرنسا، كان هذا الشريط من نصيب الملاك أشباه النبلاء (quasinoble seigneurs)، الذين أجروها للمزارعين، وامتلكوا المطاحن، وبسطوا سيطرتهم على الساحة المحلية بالكامل. وعاش الجنود والمسؤولون في هذه المدن القليلة التي خلت من المجالس النيابية. وكان للكنسية الرومانية الكاثوليكية حضور قوي على الساحة، فكانت تملك ثلث أرض المزارعين في المستعمرة. كما خلفت بعثتها التبشيرية بين السكان الأصليين بعض الكتابات الدينية الرائعة؛ خطها المبشرون، وعُني بعضها بالمعتنقين، وكثير من الصراعات التي وقعت بين مجموعات العشيرة الواحدة، التي اعتنق بعضها المسيحية دون بعضها الآخر.

وأعظم ما ميز نهر سانت لورانس أنه كان بمثابة درب فتح الآفاق نحو قلب القارة. وأخذ الفرنسيون عن السكان الأصليين صناعة القوارب من خشب البتولا. وبعدها أصبح الطريق مفتوحاً أمامهم، بداية من مونتريال حتى نهر أتاوا، لنقل السفن براً إلى بحيرة نبسينج، ومنها إلى البحيرات العظمى، واشتهر الطريق الأيسر بنقل القوارب من نهر ميتشيجان إلى نظام نهر الميسيسبي. ويبدو أن القارة لم تخل من حيوان القندس أو السكان الأصليين الذين من شيمتهم الكرم. وأصبح الفرنسيون، الذين أخذوا عن السكان الأصليين الإبحار بالقوارب الخشبية السريعة (runners of the woods)، وعاشوا بينهم،



خاف الرجال في البحر من الحيتان الضخمة التي تأتي من القاع. وتعرف الأوروبيون على كثير من المحيطات والسواحل خلال صيدهم للحيتان من أجل الزيت الذي يستخرج من شحمها. ويحمل أحد الكتب الألمانية الصادرة في الخمسينيات من القرن السادس عشر صورة لنزع الشحم من جيفة حوت، أطرتها مشاهد مروعة لحادثة هاجم فيها حوت سفينة، نزل بحارها على ظهر الحوت خطأً ظناً منهم أنه جزيرة. مكتبة الكونجرس.

وتأقلموا جيداً في المنطقة الوسطى. وبحلول 1611، ركبوا القوارب في بحيرة ميتشيجان، وفي عام 1660 وصلوا بحيرة سوبيريور، ثم نهر الميسسبي عام 1673. وخلال التوسع الأخير لمنطقة التماس، تعطل لديهم قاربان في الستينيات من القرن السابع عشر، وأرشدوا الإنجليز إلى خليج هدسن، ليكتشفوا عالماً جديداً من تجارة الفراء، يُعرف حالياً بكندا الغربية.

ومع تأسيس ماريلاند وبنسلفانيا، فُتحت أبواب الثروة والنفوذ مصحوبة بالانشقاقات الدينية. فأعلن جورج كالفيرت (George Calvert) تحوله إلى الكاثوليكية الرومانية في عام 1619، وتزامن ذلك مع زيادة المشاعر والسياسة المعادية للكاثوليكية. ومن خلال علاقاته

المتينة مع المحكمة الإنجليزية ومؤسسي فيرجينيا، حصل في عام 1632 على منح سخية من الأراضي في ماريلاند، وهي البقعة الوحيدة التي كانت تتبع رسمياً الحكم البريطاني، وفيها تمتع الرومان الكاثوليك بحرية العبادة. وبحلول عام 1650، وصلت إلى المستعمرة أعداد غفيرة من المستوطنين البروتستانت والكاثوليك، وواجهوا عداء الحكومة المتشددة في لندن، وأقر مجلس لورد بلتيمور وماريلاند حرية العقيدة والعبادة للمسيحيين كافة.

وكانت بنسلفانيا (Pennsylvania) منشأً لحكومة إنجليزية أجنبية دينية تبوأت مكاناً جيداً، ولم تعارض نفي المشاغبين بعيداً إلى المستعمرات النائية. وكان ويليام بن (William Penn) هو نجل لورد أدميرال إنجلترا، وأحد كبار الداعين إلى عودة الملكية في عام 1660، كما كان أحد أفراد الكويكر البروتستانتية (Quaker))، وهي إحدى أكثر الحركات المتشددة، والمناهضة لهيئة الكهنوت في المسيحية الانجليزية، سلمية. وفي عام 1675، بدأت مجموعة قليلة من أفراد المجتمع البروتستانتي في الاستيطان على امتداد نهر ديلاور، وتشجع ويليام، وسعى جاهداً إلى الحصول على أرض في أمريكا، حيث يستطيع أفراد المجتمع البروتستانتي اللجوء إليها. وقد حظيت الفكرة بإعجاب كل من الملك تشارلز الثاني وأخيه جيمس دوك يورك، بل إنهما رأيا فيها تعويضاً عن حق لم يدفع للأدميرال، وأبديا تسامحاً مع الرعايا المشاغبين، وكرماً في التعامل معهم. وحال نجاح المستعمرة، تم توطين بعض هؤلاء الرعايا في مناطق بعيدة عن لندن. وفاق كرمهما كل التوقعات، فكانت مساحة المستعمرة 45,000 ميل مربع، ولم يجد بن بداً من تنفيذ قراراهما بتسميتها بنسيلفانيا، إذ بدا من القرار أنه كان بمثابة تكريم للأدميرال الراحل. ولم تكن السلطات الممنوحة لبن بموجب الميثاق مطلقة مثل سلطات لورد بلتيمور (Lord Baltimore) في ماريلاند بالجنوب، إلا أن هذا لم يمنعه من تشكيل الأمور حسب رغبته.

وسرعان ما شرع بن في الحديث عن مستعمرته باعتبارها «تجربة مقدسة» مكنت المجتمع البروتستانتي من ممارسة مبادئه على أرض الواقع. ولا يفاجئنا أن نرى مثل هذا التشكيل العجيب – الجامع بين تراث القدسية، والانفتاح على التجارب – الذي استلهم من التقوى، والفردية الراديكالية لمنهج المجتمع البروتستانتي. وأتاح تشكيل الحكومة التي أقرت بالفعل لكثير من المستوطنين التصويت على أعضاء المجلس، الذي تشارك

السلطة مع أحد المجالس الأصغر. وأبحر بن بنفسه إلى بنسلفانيا عام 1682، ليجد مستعمرته آخذة في الازدهار، وهي الموهوبة بالمناخ وثراء الطبيعة. وجاهد بن للتعامل مع السكان الأصليين في ديلاور على أساس الصداقة والمساواة، وكان شديد الإعجاب بهم. «فعلى مستوى الأشخاص تميزوا بطول القامة واستقامتها، وقوة البنية، والمشية المذهلة، فتميزت خطواتهم بالقوة والذكاء، وغالباً ما كانوا يسيرون ومعهم سلاسل ضخمة. وبالنسبة إلى اللغة، فقد كانت مدهشة، لكنها بدت محدودة واتسمت بسمات العبرية. أما السخاء فلا يدانيهم فيه أحد، فليس عندهم ما يمنعونه أصدقاءهم، فإذا أعطيت واحداً منهم بندقية جميلة أو معطفاً أو أي شيء آخر، فإنها تمر على عشرين يداً قبل أن تلتصق بواحدة منهم، ولقد تمتعوا بخفة الظل وقوة الوجدان، فلم يطمعوا قط بالكثير، ولم يكونوا يملكون الكثير.4 كما تطرق إلى وصف بلاغتهم وإجراءاتهم التي اتبعوها في مجالسهم، ودفعه إعجابه بهم إلى محاولة توفيقهم ضمن الرواية الإنجيلية للبشرية.

اشتاق المهاجرون إلى أوطانهم، وشعروا بالندم على مغادرتها، على الرغم من أن كثيراً منهم فعلوا ذلك بإرادتهم إلى حد ما، إذ كان كل ما يتعين فعله على آباء الحجاج أن يكونوا أفراداً مخلصين لكنيسة إنجلترا، كي يعيشوا حياة مطمئنة في إنجلترا. ولم تكن هذه هي حال الأفارقة المنفيين. ونأخذ تجربة نموذجية لإفريقي أحضر إلى البرازيل؛ تتضمن تعرضه للأسر في الحرب أو غارة إلى داخل ما يعرف حالياً بأنجولا، ثم يجبر على السير طويلاً نحو الساحل، ليقع نظره أول ما يقع على منظر مخيف لسفن ضخمة ومراجل عملاقة على الشاطئ كانت تستعمل في إعداد الطعام للعبيد، إلا أن بعضهم تسرب إليه اعتقاد بأنها صنعت لطهي العبيد أنفسهم. ثم تأتي المعاناة الطويلة عند نقلهم عن طريق البحر، إذ يحشرون معظم الوقت في مستودعات سفينة مترنحة، بعد أن يرمى بهم وراء أبواب موصدة. وسريعاً ما تنتشر الأمراض المعدية بين العبيد مع المعاناة من دوار البحر والأمراض المعوية. وعند الوصول إلى الميناء يعرض العبيد في مزاد أمام المزارعين، ليستعبدوا في مزارع السكر طوال أعمارهم، حتى يحررهم الموت.

تنوعت أشكال الرق واختلفت أنواع العبودية. ففي المجتمعات الإفريقية التقليدية، استعبد قليل من الناس ببعض أنواع الرق، وليس منها ذلك النوع الذي استعبد به الأفارقة

في العالم الجديد، والذي يعتبر العبد بموجبه مجرد ملكية ولا حق له ككائن بشري. وحقيقةً، لم يكن للعبيد في المجتمعات الإفريقية الحق في مغادرة قراهم أو الإخلال بأدوارهم الاجتماعية، وكانت مكانتهم وضيعة، إلا أنهم عوملوا كبشر ينتمون إلى الجنس البشري. وقد تمتد وضاعة مكانتهم لتشمل أبناءهم. وتقلد بعضهم وظائف مرموقة في عائلة الملك أو جيشه.

كان التحكم في البشر أهم مظاهر الثروة والسلطة في إفريقيا، إذ كان وضع اليد على قطعة من الأرض لا يعني شيئاً، نظراً لفقدانها خصوبتها بعد زراعتها لسنوات قليلة. فالرجل القوي ليس من يملك الأرض، وإنما من كثرت عائلاته التي تتنوع بين أطفال وأسرى حرب ومدانين بانتهاك القانون العرفي. ولم يكن بيعهم لرئيس آخر أو قرية أخرى أمراً شائعاً. ووجدت أنواع من تجارة العبيد امتد بعضها إلى مسافات طويلة، فعندما نزل البرتغاليون على الساحل الغربي لإفريقيا، استغلوا تجارة الرقيق الموجودة فعلاً في الشمال، بالإضافة إلى تجارة الذهب والعاج.

اشترى التجار البرتغاليون الرقيق من الموانئ الإفريقية، وأحضروا بعضهم إلى المستعمرات الإسبانية والبرتغالية في الأمريكتين. وفي جزيرة ساو تومي بغرب إفريقيا، وبعدها في البرازيل، بدأ البرتغاليون استخدام الرقيق في مزارع السكر، حيث كان قطع القصب وغلي السكر لا يتوقفان خلال موسم الحصاد، تحت لهيب الشمس المحرقة. ويعتبر هذا هو المفتاح الاقتصادي الذي دفع الطلب الأوروبي على اقتناء العبيد الأفارقة من البدايات المتواضعة له في القرن الخامس عشر حتى العصر الذهبي لزراعة قصب السكر، وازدهار تجارة العبيد في البحر الكاريبي في القرن الثامن عشر. واعتمدت قطاعات كبيرة من الاقتصاد في الأمريكتين على العمالة الإفريقية، كما استخدم أفراد عائلة كورتيس (Cortes)؛ (فاتح المكسيك وبيرو)، العبيد الأفارقة إلى جانب العمالة المحلية في حقول السكر قبل عام 1550. وتعتبر مناطق باهيا وبيرنامبوكو – التي تعرف حالياً بمنطقة البرازيل الشمالية الغربية – أولى المراكز الرئيسية لهذا المجمع الزراعي، وتعد بمثابة إحدى القوى العظيمة للتكامل العالمي في بداية العصور الحديثة، إذ جمعت بين العمالة القسرية الرخيصة وإنتاج البضائع الاستهلاكية الجديدة وتوجيهها إلى الأسواق البعيدة.

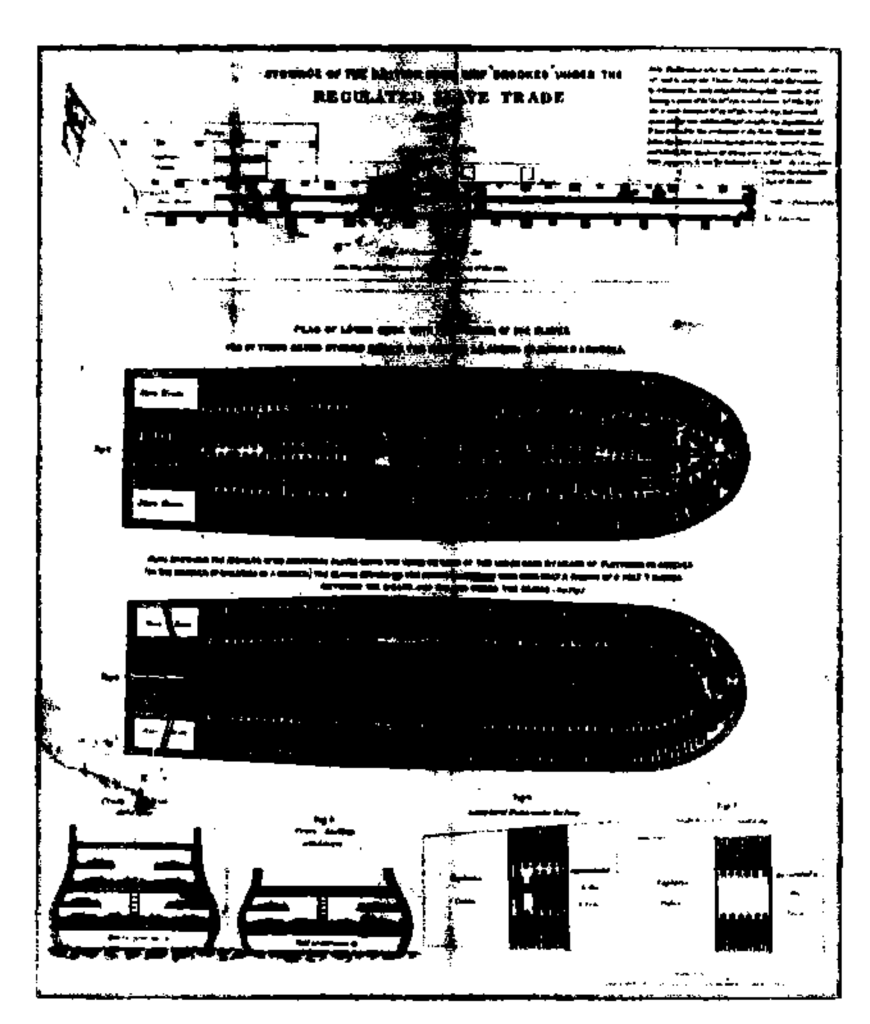
وعندما طُرد الهولنديون من البرازيل بعد احتلال أجزاء منها في القرن السابع عشر، أخذوا معهم هذا المجمع إلى جزر البحر الكاريبي، وسرعان ما زاد إنتاج السكر، وتوسعت عمالة العبيد بعد الخمسينيات من القرن السابع عشر. وتكمن أهمية العبيد الأفارقة أنهم كانوا بمثابة سفن نقلت الخبرة المعرفية في إنتاج السكر من ساو تومي إلى البرازيل وباربادوس وهيسبانيولا وجامياكا وغيرها من الجزر الكثيرة. وفي أجزاء أخرى من الأمريكتين، كانت قيمة الأفارقة في المهارات التي جاؤوا بها من إفريقيا، والتي منها على سبيل المثال صناعة الحديد والتعدين والبحث عن اللؤلؤ تحت الماء، ورعي الماشية وركوب الخيل في أثناء رعي الماشية. أما العبيد الذين يعملون في المدن، فاحترف الرجال منهم مهناً مثل الحدادة وجر العربات الخشبية وغيرها من الحرف المتقنة، أما الإماء فغالباً ما كن يبعن السلع في الأسواق، وكان يُسمح لهن بالتنقل بحثاً عن عمل، طالما يدفعن للسيد الجزء المتفق عليه، بل كان يسمح لهن ببعض الحياة الاجتماعية والانتماءات الدينية.

وحتى القرن السابع عشر، لم يتجاوز عدد العبيد الأفارقة الذين نقلوا إلى أوروبا والأمريكتين أكثر من 200,000. ووصل عددهم بين القرنين السابع عشر والثامن عشر 1,200,000، منهم 600,000 بين عامي 1676 و 1700، وتم توجيه 300,000 منهم إلى مناطق إنتاج السكر السريعة النمو في جزر البحر الكاريبي. واحتفظ الحكام والتجار الأفارقة بالسيطرة الدائمة على التجارة في الطرف الإفريقي. وفي الثمانينيات من القرن السابع عشر، اشترى الإنجليز كثيراً من عبيدهم من ساحل «ويندورد»، وهو في الغالب ساحل ليبيريا وساحل العاج المعاصرتين. ولم يكن يشتمل الساحل على قلاع أو مراكز تابعة للإنجليز، بل كانوا يعتلون برجاً في سفنهم إلى أن يبعث التجار الأفارقة إشارة باستخدام الدخان دلالة على وجود عبيد لديهم للبيع. وبعيداً في الشرق عند وايده؛ دولة بنين حالياً، احتفظ حاكم المنطقة بقبضة محكمة على التجارة، وحشد العبيد جميعهم في حظائر أشرف عليها رجاله، حتى بيعهم وقبض ثمنهم واقتيادهم إلى السفن الأوروبية. وفي الكنغو، بدأت علاقة بين ملوك البرتغال والكونغو من خلال المراسلات، إلا أنها انتهت بعد تورط فرقة سليف ريدرز (slave-raider) في الحرب الأهلية الطاحنة، بالإضافة إلى استمرار استيراد العبيد بأعداد كبيرة من لواندا.

كان الرق وشراء البشر وبيعهم بالنسبة إلى الأفارقة المشتغلين بتجارة الرق، نوعاً من الأنشطة المعتادة. وفي بعض الأوقات أدركوا وجود فرق بين بيع بشر يقادون بعيداً على متن السفن، وبيعهم إلى جيران يبعدون مائة ميل عنهم، غير أنهم لم يملكوا تصوراً واضحاً عن الأهوال التي عانى منها العبيد في أثناء نقلهم في البحر، أو الطريقة التي عوملوا بها باعتبارهم قطع أثاث مملوكة، لا يختلفون فيها عن الماشية، ولا حتى باعتبارهم كائنات بشرية دونية. وبحلول 1650 أو 1700، تعود الحكام والتجار الأفارقة استعمال المنتجات المستوردة بالتجارة بداية من الرم (شراب مسكر) وقبعات اللباد والمسكيت (بندقية قديمة)، ولم يحاولوا الاستغناء عنها. لم تكن المسكيت ذات ضرورة ملحة في الحروب الإفريقية، لكن لم يكن لدى أي من الملوك استعداد للمخاطرة بخسارة حرب لمجرد أنه لا يملكها، فينتهي به المآل إلى عبد ينقل في عرض البحر.

وغالباً ما كان يفضل قبطان سفينة العبيد المحافظة على حياة الرقيق، فكل واحد منهم كان بمثابة استثمار حيوي، وهكذا فضل بعضهم العودة على متن سفينة مكتظة بالعبيد يعيش منهم أكثر ممن يموت. وكان العبيد يحشرون تحت سطح السفينة معظم الوقت، وهم يعانون الكثير من الأمراض الفتاكة. وقيل إنه يمكن التعرف على سفينة العبيد من بعيد، من رائحتها التي تأتي بها الريح. ويعرض الناجون من الرحلة في مزاد علني، تتبعه رحلة أخرى برية أو بحرية، ليبدأ العبيد بعدها رحلة العمل الشاق. وتطلبت معظم أنواع الأعمال الرجال أكثر من النساء. ولقد كان بيع أحد الزوجين من العبيد يفرق بينهما أحياناً، حتى وإن كانت بينهما وشائج وأبناء. أما العقوبات التي تنزل بهم فتعسفية ووحشية، وكان متوسط عمر العبيد الذين يعملون في مزارع السكر سبع سنوات، كما اكتسب العبيد الشباب قيمة خاصة، نظراً لقوتهم في أعمال الحقول، وكذلك الشابات من الإماء لقدرتهن الإنجابية. ولقد قضى كثير من العبيد نحبهم قبل الخامسة والعشرين أو الثلاثين من أعمارهم. ومن المحتمل أن يكون عبيد المزارع من مناطق مختلفة في إفريقيا، ولا تجمعهم لغة واحدة.

ومن المثير للدهشة أن العبيد رغم هذه الظروف العصيبة، تمكنوا من المحافظة على بعض مناحي التراث الإفريقي، وأظهروها في بعض الأنماط الاجتماعية والثقافية والدينية



تظهر صورة حشد العبيد في رحلة عبر المحيط الأطلنطي كفاءة مفزعة، فقد دعا بعض الخبراء إلى حشد أكبر عدد منهم. وحتى إن زاد عدد الضحايا من العبيد، فإن الأرباح تكون أكثر. مكتبة الكونجرس. **LC-USZ62-44000**

الإفروأمريكية، ولاسيما الإفروكاريبية والإفروبرازيلية. وقد تأتي إحدى السفن التي تجلب العبيد إلى جزيرة ما بشحنة من البشر من ميناء أو اثنين في إفريقيا، يكون بينهم تشابه في اللغة والثقافة. وكان امتلاك العبيد قطعاً من الأراضي للحصول على الغذاء، أوفر على أصحاب المزارع من جلب جميع غذائهم. وكانت ثمة مزارع يتحدث عبيدها لغة إفريقية مشتركة، وتربطهم علاقات مصاهرة مستقرة. ولاحظ المراقبون وجود الأساليب الإفريقية في تسريحات الشعر والملابس والأواني والموسيقى. وانتاب الأسياد القلق بخصوص الطبول،

إذ رأوا فيها دلالة تمرد، لكنهم كانوا أكثر تسامحاً مع الغناء والآلات الوترية.

ولم تندثر الثقافات واللغات الإفريقية كافة، وإن لم يحفظ التاريخ إحداها كاملة. ففي مدن امتدت من البرازيل إلى فيرجينيا، وفي مناطق ريفية وملاجئ نائية أقام بها العبيد الهاربون مجتمعاتهم، شكل أصحاب الأصول الإفريقية ثقافات العالم الجديد ومجتمعاته. وكان كثير من الأفارقة نتاجاً لعالم من التجارة الساحلية، انتشرت فيه العديد من اللغات التي تشمل اللغات الأوروبية. واعتنق بعضهم المسيحية في إفريقيا وكثير منهم في الأمريكتين. ولم تختلف سلطات قديسي الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وأعضائها تمام الاختلاف عن سلطات الآلهة القديمة. ففي المدن الأمريكية الإسبانية، نظم العبيد أحياناً بعض الاحتفالات الدينية التي أعلوا فيها من شأن قديس كاثوليكي، تميز بمسحة من التراث العرقي الإفريقي. وفي منطقة غرب إفريقيا، شاعت علاقات النسب مثل علاقة الأبوين والأبناء والأعمام والعمات، ولاتزال حتى يومنا هذا. وكانوا يستعينون بها في إعادة بناء العلاقات البشرية التي مزقتها العبودية. ومازالت ثمار ذلك ماثلة بين أيدينا؛ نشاهدها في نطاق غني باللغات واللهجات الأوروإفريقية، وفي العادات والفن الشعبي والمقطوعات الشعبية الدينية الإفريقية في هايتي وكوبا والبرازيل.

تمرد العبيد في السفن والمزارع. لكن غالباً ما كان يتم إخضاعهم باستخدام العنف والقسوة قبل عام 1700. ومن وسائل المقاومة الأكثر تأثيراً، اللجوء إلى الهروب لتكوين مجتمعات إفريقية في المناطق الجبلية، وأحياناً تم ذلك بالتحالف مع الشعوب الأصلية، فأقام العبيد الهاربون مجتمعاً استمر عقوداً في منطقة جاميكا الجبلية الوعرة. وفي بالميرز داخل المنطقة الشمالية الشرقية في البرازيل، أسس العبيد الهاربون مجتمعاً تميز بالاكتفاء الذاتي وقوة دفاعه، فصمد ما يربو على مائة سنة، حتى عام 1694. وفي المستعمرات الزراعية الفرنسية والهولندية والإنجليزية التي تقع على الساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية، هناك احتمال بإقامة بعض العبيد مجتمعات في الداخل بحلول عام 1700. ومازالت ذريتهم تقيم هناك حتى يومنا هذا، وهم يحتفظون بثقافة إفريقية مختلطة. وفي نهاية الحديث عن الهجرة الإفريقية يمكننا القول إنها عنصر رئيس في تشكيل الأمريكتين منذ الفترة التي سبقت القرن السابع عشر حتى يومنا هذا.

وبحلول عام 1200، برز حول المحيط الهندي وبحر الصين الجنوبي نوع مختلف تماماً من الهجرة وهو النوع الطوعي. ويخبرنا ابن بطوطة؛ مؤرخ الرحلات العربية عندما أقام في كوز هيكود على الساحل الجنوبي الغربي للهند في الثلاثينيات من القرن الرابع عشر، أن هذا المكان استقبل عشر سفن صينية تجارية ضخمة أو أكثر كل عام. وقبل عام 1200 تقريباً، عينت شامبا، وهي تقع في فيتنام الجنوبية، مسؤولين قيل إنهم نازحون صينيون، لكنهم لم يكونوا قط عملاء لأسرة سونج الحاكمة في الصين، منيطة بهم مسؤولية التجارة وسلع الترفيه المستوردة. وعثر على قطع من البورسلين الصيني تعود إلى ما قبل عام 1400 على الشواطئ وفي المقابر وحطام السفن، التي كانت متجهة من الفلبين إلى الساحل الشرقي لإفريقيا. ويقال إن الملك المؤسس لمملكة أثوياه في 1350 تقريباً ولد لأم صينية، وتعرف هذه المملكة حالياً بتايلاند. لكن التماسك الذي رسم للمرحلة الأولى من الهجرة الصينية التي امتدت بين عامي 1100 و 1400 تقريباً، يبقى أمراً غامضاً إلى حد بعيد. فعلى الرغم من تميز الصينيين عالمياً في حفظ السجلات التاريخية الموثوقة، لم يصلنا سوى قصاصات من المصادر الصينية تتحدث عن الهجرة الصينية في جنوب شرق آسيا قبل عام 1400. وليس القرنان السابع عشر والثامن عشر بأفضل حالاً من ذلك. وعلى الرغم من أن الدولة الصينية والنخبة الحاكمة فيها لم تنشطا في معاداة التجارة البحرية، إلا أنهما قليلاً ما شجعتا عليها، لذا فضل المشتغلون بها الحفاظ على سرية المعلومات ذات القيمة التجارية في شبكات خاصة.

وعقب الهجرة الأولى الغامضة، بعث الإمبراطور الثالث (الذي حكم بين 1402 حتى 1424) وهو من أسرة مينج (Ming) الحاكمة، بأساطيل بحرية ضخمة أبحرت إلى مناطق بعيدة تمتد إلى الهند، ونجحت الأساطيل في إلحاق الهزيمة بأحد الرجال الصينيين الأقوياء، الذي سيطر على الساحل الجنوبي الشرقي لجزيرة سومطرة، وخلف وراءه عدداً كبيراً من المستوطنين تمكنوا من إدارة بعثات الولاء الموفدة إلى الصين من ولايات مثل سيام ومالاكا وتشامبا وغيرها من الدول الساحلية في جنوب شرق آسيا. وبعد الاحتفالات التي يقدم فيها حاكم صغير الولاءَ «لابن السماء» الصيني، كانت هذه البعثات بمثابة القناة الشرعية الوحيدة للتجارة البحرية بعد منع أباطرة مينج السفن الصينية والشعب الصيني

من ممارسة أي من أشكال التجارة البحرية خشية نفوذ القراصنة اليابانيين وأقرانهم الصينيين. واستفاد الصينيون، الذين استوطنوا جنوب شرق آسيا من موقعهم، والتوسع العالمي العظيم في التجارة البحرية خلال القرن السادس عشر، فساعدوا البرتغاليين في الاتصال بسيام والصين وربما في احتلالهم لمالاكا، ولعبوا دوراً أساسياً في ميناء بانتن (Banten) المفتوح، الواقع على الطرف الغربي لجاوة.

كان الصينيون يتاجرون بالفعل في الفلبين عند بداية وصول الإسبان عام 1571. واجتاح أسطول من القراصنة الصينيين مانيلا في عامها الأول، إلا أن الصينيين اكتشفوا الأرباح الهائلة التي ستعود عليهم من جلب الحرير والبضائع الصينية إلى مانيلا والعودة بالفضة الأمريكية إلى الصين. وفي مانيلا، فاق عدد الصينيين الإسبان كثيراً، فوضعوا شروط التجارة، وكان لهم الباع الأكبر في الحرف والتجارة، حتى الأوروبية الخالصة منها، مثل صناعة الخبز وتجليد الكتب. وتحول بعضهم إلى الكاثوليكية، وكان تحول الكثير منهم بحثاً عن الأمان والاحترام من الإسبان. لكن الآباء الدومانيكيين (Dominican)، الذين أُرسلوا إلى الصين، اكتشفوا إخلاص بعضهم وكياسته. وبحلول عام 1600 اعترف الإسبان بتعيين صيني مسيحي كقائد للجالية. وتعاقد الصينيون مع السلطات الإسبانية لتحصيل العديد من الضرائب على التجارة المحلية.

وعندما زار الوكلاء في بلاط مينج مانيلا عام 1603 بعد سماعهم بثرائها، اندلعت توترات حول حصيلة الضرائب الإسبانية من الجالية الصينية والضرائب التي يجمعها المتعاقدون الصينيون من الفلبينيين الأصليين. وربما كانت بداية العنف على يد الصينيين الجدد، الذين لم يكن لديهم الكثير ليخسروه، لكن سرعان ما صارت الغلبة للمدافع الإسبانية والأعداد الفلبينية التي نفذت مذبحة ضد الصينيين راح ضحيتها من 15000 إلى 25000 صيني. لكن سرعان ما أدرك الإسبان استحالة البقاء دون وجود المقيمين الصينيين والتجارة الصينية. وألقت السلطات المينجية باللوم على من رتبوا لزيارة 1603، ولم تتخذ أي إجراءات انتقامية ضد الإسبان. وتابعت تجارة الحرير والفضة ازدهارها عبر المحيط الهادي، حتى وصلت ذروتها بين عامي 1604 و 1610.

وفي الثلاثينيات من القرن السابع عشر، تمردت أعداد كبيرة من الصينيين استأجرهم

مطورو الأراضي الصينيون لبدء زراعة الأرز حول بحيرة ضخمة شرق مانيلا، لكن القوات الإسبانية والقوات الفلبينية التابعة لجأت إلى الأساليب البربرية في قمعهم. وفي عام 1662 هدد قائد التجارة البحرية الصينية، الذي طرد الهولنديين من تايوان، بالغزو. وهناك روايات غير مؤكدة حول غزو صيني حدث في الثمانينيات من القرن السابع عشر. ومع ذلك، استمرت التجارة وتعاقد الصينيون المحليون مع الإسبان لتحصيل الضرائب على التجارة في مانيلا. وفي القرون الأخيرة انتشر المتعهدون وأصحاب المتاجر الصينيون في كثير من أنحاء الجزر.

في القرنين السادس عشر والسابع عشر، قطع الصينيون مسافات بحرية طويلة ليستوطنوا مناطق نائية، وانحدر غالبيتهم من منطقة واحدة هي الساحل الجنوبي لمقاطعة فوجيان. ولقد عمموا الاستراتيجيات التي طوروها سعياً وراء البقاء والرخاء في منطقة ما. لذلك يبدو أن نظام التفاوض الذي نشأ في الصين، الخاص بأسعار المنتجات المستوردة كافة على مدار العام، تم تطويره في مانيلا واستخدم لاحقاً من جانب التجارة الصينية في ناجازاكي باليابان. وفي مانيلا، عمل الصينيون لدى الإسبان «كمحصلي ضرائب» إذ يتعاقد شخص أو مجموعة مع السلطات الإسبانية على جمع ضرائب معينة، ثم يسلمون مبلغاً متفقاً عليه للخزانة العامة، ويحتفظون بالمبلغ المتبقي. وقد انتشرت ممارسات مشابهة في بداية أوروبا الحديثة والهند، وكانت هذه الممارسات طبيعية نوعاً ما، وحتمية للأطراف كافة، فكان «استخدام محصلي الضرائب» مفيداً لحكومة تحتاج إلى العوائد ولا تسعفها مواردها البشرية المحدودة ونطاقها الإداري على تحصيلها. وبالنسبة إلى المحصلين، كان الخطر الذي يتربص بهم هو عدم قدرتهم على تحصيل المتفق عليه، فيضطرون إلى دفع جزء منه من أموالهم الخاصة. أما الدولة، فتكمن الخطورة في أنها تتنازل عن جزء من سلطتها لأطراف خاصة، وإذا ما زادت قسوة المحصلين ثارت حفيظة الناس ضدهم ليكون للدولة من ذلك نصيب. أما الخطر الثالث، فيمكن تجنب حدوثه بالاستعانة بالمهاجرين في تحصيل الضرائب، مثل اليهود في أوروبا، والمسلمين في جنوب الهند، والصينيين في مانيلا وغيرها من مناطق جنوب شرق آسيا.

أقام المستوطنون الصينيون القادمون من فوجيان في جاكرتا قبل أن تؤسس شركة

الهند الشرقية الهولندية قاعدتها العظيمة في جاكرتا غرب جاوة، وأعادت تسميتها بتافيا. وعُين تاجر يسمى سو منجانج (Su Minggang) كأول رئيس للجالية الصينية في بتافيا، وتميز بفطنته الشديدة، وأصبح فيما بعد حليفاً ومستشاراً أصيلاً لجان بيترزون كوين (Jan Pieterszoon Coen)؛ المدير العام الثاني للشركة الهولندية، الذي عرف بهيبته وقسوته وفرضه احتكارات أثرت في حياة بتافيا. ولقد طُبقت قواعد مشابهة لتلك المعمول بها في مانيلا فيما يتعلق بتحصيل الضرائب. كما أحب المقيمون الصينيون مزاولة القمار، وكان يتم تحصيل الاحتكار على قمارهم لصالح الأثرياء الصينيين، وعُد بمثابة مصدر رئيسي لدخل الهولنديين. فوجهت الضرائب القليلة التي فرضت على الجالية الصينية إلى تمويل أعمال البناء، التي كدح فيها الفقراء الصينيون لكسب وعاء من الأرز، وتوفير احتياجات أحد المستشفيات الصينية.

وعندما أسس الهولنديون مركزاً تجارياً على ساحل الجنوب الغربي لتايوان في 1624، قدم التجار الصينيون المتمركزون في اليابان الاستشارة لهم، وجلبوا إليهم الحرير



صورة تظهر أسواق بتافيا – جاكرتا المعاصرة – والناس يأتون من أرجاء المحيط الهندي للتسوق من المتاجر الزاخرة بالفواكه الاستوائية. وعلى اليمين في الصورة رجل صيني وامرأة جاوية (من جاوة بإندونيسيا) والببغاء من أستراليا، التي لا نكاد نعرف عنها شيئاً. المتحف الوطني في أمستردام.

وصادرات أخرى. وقضّى سو منجانج نفسه بعض الوقت في تايوان لتنظيم المراحل الأولى من زراعة قصب السكر والأرز. وامتد التحول نحو الزراعة إلى منطقتي جاوة ولوزن. وحتى هذا الوقت، كانت الهجرة الصينية تبحث في معظمها عن الفرص التجارية، وركزت على العواصم الملكية والموانئ التجارية الرئيسية الأخرى. ولجأ الصينيون إلى تايوان وعملوا في حقول السكر والأرز فراراً من فوضى التمرد الذي حدث مؤخراً في مينج وغزو كينج. لكنهم لم يتعايشوا مع حكم الهولنديين وابتزازات محصلي الضرائب الصينيين مثلما تعايشوا مع كبار التجار. ففي عام 1652، تمردوا على الهولنديين الذين لجؤوا إلى الوسائل في إخماد تمردهم. وفي عام 1661، رحب كثير منهم بالاحتلال القادم من ساحل فوجيان، الذي أنهى الحكم الهولندي في تايوان. وفي عام 1662 و 1663 هدد الفاتحون الصينيون بالتقدم نحو مانيلا لمهاجمتها، لكنهم لم يفعلوا لموت قائدهم، ولكن كانت لدى الإسبان أسباب وجيهة في الخوف من مساندة الصينيين المحليين لهم.

ومن المناطق الأخرى التي امتهن المهاجرون الصينيون فيها الزراعة، منطقة دلتا ميكونج، وهي حالياً جنوب فيتنام. وهاجرت إليها أعداد هائلة من الصينيين فراراً من فوضى مينج كينج (Ming-Qing). ولم يسهم السلام الذي ساد ساحل الصين بعد عام 1680 في الحد من نزيف المهاجرين، بل ربما زاد من هجرتهم لزيادة الإحساس بأمن الطرق. وكانت المنطقة المحيطة ببتافيا محط أنظار كثير من الفقراء الصينيين الذين اشتغلوا في مزارع السكر التابعة للتجار الصينيين المعروفين، وعملوا على تغذية السخط ضدهم وضد الهولنديين، لينفجر الوضع وينقلب إلى تمرد في عام 1740.

لا يمكن لأي دراسة تتناول الهجرة أن تتجاهل اليهود، وهم من نحتت من أجلهم كلمة دايسبورا. وحدث التطور الأهم في تاريخ اليهود بين عامي 1450 و 1700، إذ تعرضوا إلى اغتراب قسري جديد عندما أجبر يهود إسبانيا والبرتغال على العيش في المنفى أو الاختفاء بفعل سطوة الاضطهاد الذي مارسه الملوك الكاثوليك ضدهم مع بداية عام 1492، بعدما ازدهرت حياتهم في ظل الحكام المسلمين. وكان في وسع اليهود والمسلمين العيش في إسبانيا والبرتغال حال قبولهم المعمودية الكاثوليكية ونظامها. ويطلق على بعض أماكن هذا المنفى سفارديم (Sephardim) (مصطلح ورد بالتوراة إشارةً إلى المنفى

الأول من القدس، إلا أنها شاعت بعد ذلك لمن يقيمون في إسبانيا والبرتغال بشكل عام).
وأقام المنفيون في أمستردام حيث صاروا من كبار المساهمين في سوق الأوراق المالية وحافظوا على حياة ثقافية مزدهرة مع كثير من التبادل مع الفنانين والمثقفين المسيحيين. وأقام الرسام ريمبرانت (Rembrandt) على أطراف المنطقة اليهودية، وكان له أصدقاء كُثر من اليهود. وفي الثمانينيات من القرن السابع عشر كتب أحد أفراد الجالية باللغة الإسبانية أول كتاب عن كيفية ربح المال في سوق الأوراق المالية. أما الفيلسوف بنيديكت دي سبينوزا (Benedict de Spinoza)، فلم يكن له معجبون في أوساط اليهود، إذ ضل بعيداً عن التقاليد اليهودية، وطرد من تجمعاتهم الدينية. وفي منتصف القرن السابع عشر، أسس السفارديم المعبد اليهودي البرتغالي المبهر، الذي مازال قائماً في أمستردام.

وكان الملجأ الأعظم للسفارديم بعد عام 1492 هو الإمبراطورية العثمانية وبخاصة إسطنبول وسالونيك. وعاش يهود إسطنبول في جالية معترف بها كأهل كتاب. وربما لم يكن كبير الحاخامات على قدر البطريرك أرثوذكس اليونان نفسه، إلا أنه كان يحظى بالاعتراف ويستشار. ومازالت بعض التجمعات السفاردية في إسطنبول قائمة حتى يومنا هذا، تنشد أشعارها باللغة اللادينو (Ladino)، وهي شكل من الإسبانية القديمة، تم تطويعه حسب احتياجات اليهود وكتب بحروف عبرية. وقبل عام 1500، كانت تصدر في إسطنبول جريدة باللغة العبرية.

وقعت مدينة القدس تحت حكم العثمانيين، وكان اليهود يصلّون عند الحائط الغربي لجبل المعبد كما يفعلون في أيامنا هذه، إلا أن أضرحة عظماء المسلمين بالحرم الشريف احتلت قمة الجبل. وكانت صفد (Safed) التي تقع بالقرب من نهر الجليل، مركزاً للاستيطان والتعليم اليهودي. وفي الستينيات من القرن السابع عشر، زعم شبتاي زيفي (Sabbatai Sevi)، وهو صوفي يهودي من إزمير في تركيا الحديثة، أنه المسيح المنتظر، غير أن وجهات نظره ومخالفاته للتقاليد اليهودية قوبلت بالإدانة من القادة اليهود على خلاف اليهود المبعثرين في الغربة، الذين تلقوا ذلك بالأمل والبهجة، وبدأوا في اتخاذ الترتيبات للانضمام إليه في القدس. ورأت السلطات العثمانية في هذا الرجل تهديداً لإمبراطوريتهم المتعددة الأعراق، ومن ثم ألقوا القبض عليه. لكنه أنقذ رقبته من الإعدام

بعد خداعه أتباعه باعتناقه الإسلام.

واجهت المجتمعات الاستيطانية وتجمعات المهاجرين والكريوليين (creole societies)، التي تتحدث الإسبانية والبرتغالية والجاليات الإسلامية المترامية -جميعاً- تحدياً مشتركاً في الحفاظ على هويتها ودينها الأصلي ولغتها الأم في عالم جديد وغريب. ويكمن الحل في تأسيس مدرسة تعليمية، وكان أحد الأهداف الرئيسية لأي جالية إسلامية جديدة، استقدام مدرس من البلدان العربية للتدريس في المدارس الإسلامية. وكان تعليم الأطفال قراءة العبرية، بجلوس معلم العلوم الدينية على طاولة الدراسة، وحوله مجموعة من الرجال، هو القلب النابض للحياة العبرية. وحرصت الجاليات المسيحية على تعليم كهنتها، فتاريخ جامعة سانتو توماس في مانيلا يعود إلى مدرسة الدومينيكان اللاهوتية، التي تأسست عام 1611. وفي عام 1636، وبعد فترة لا تزيد على 15 عاماً من وصول أول مستوطنيها، أسست الجالية البيروتانية الصغيرة المقيمة على خليج ماساتشوستس مدرسة لتدريب الكهنة؛ حصلت على دعم من خلال عطايا قدمها بيروتاني إنجليزي يدعى جون هارفارد، وشكلت النواة لما يعرف اليوم بجامعة هارفارد.

وكان الدعم الأكبر للاستمرارية والهوية يأتي من الأسرة. فالعمال وأصحاب المتاجر يتحدثون لغات مختلفة ويعبدون آلهة شتى، لذلك كانت هناك حاجة ماسة للمحافظة على اللغة والتقاليد داخل الأسرة. وكان ذلك أحد الأسباب الداعية للتشديد على الزواج من داخل الجالية، وهو أمر شاع بين مختلف المهاجرين، وبُذلت الجهود العظيمة في سبيل المحافظة على الأنساب، وكان هذا الأمر عسيراً بصفة خاصة بين المهاجرين الأفارقة، إذ كان العبيد في المزرعة الواحدة من شعوب إفريقية متنوعة، وكان بيع العبيد سبباً في تمزق الوحدات الأسرية، ومع ذلك كان هناك بعض النجاح. وبالنسبة إلى اليهود، كانت لحظة وقوف عروسين تحت مظلة الزفاف- لينضموا إلى الجالية ويسهموا في بقائها- لحظةً مميزة وتاريخية. ويأتي العشاء العائلي في عيد الصفح ليكون بمثابة حدث سنوي عظيم لتأكيد الهوية والاستمرارية. ولقد تميز العشاء بطعامه الخاص، وتجمع الأطفال حول المائدة وسؤالهم: «لماذا تختلف هذه الليلة عن غيرها من الليالي»؟ منشدين ترنيمة الشتات النهائية: «L'shanah haba-ah b'yerushalayim» أو: «العام القادم نكون في القدس».

الفصـل السادس

زمن القلاقل والاضطرابات
1640م - 1670م

في الفترة من 1630 أو 1640 حتى 1670، عاشت أجزاء عديدة من العالم، ولاسيما المترابطة على الصعيد الجغرافي، ويلات الحرب والتمرد والكوارث طوال سنوات. ففي غضون حقبة واحدة، 1640– 1650، قام رعاع فرنسا باقتحام المدينة، وتهديد الملك الصبي في غرفة نومه في قصر اللوفر Louvre Palace، كما قامت الحكومة العسكرية لثورة إنجلترا بإعدام الملك تشارلز الأول؛ إذ قام منفذ الحكم بتعليق الرأس المبتورة أمام الجماهير الحاشدة الصامتة، وظل سكان مدينة يانج شو Yangzhou، وهي واحدة من أكثر المدن الصينية ثراءً وأناقة، يعانون طوال عشرة أيام من القتل العشوائي وأعمال النهب والسلب والحرائق من جانب جنود المانشو Manchu؛ بلغتهم غير المألوفة، وجباههم المحلوقة. وبحلول 1690، دخلت كل من فرنسا وإنجلترا والصين وغيرها من البلدان الأخرى مرحلة جديدة من الاستقرار والازدهار المتنامي.

وتعزى الأزمة التي نشأت خلال القرن السابع عشر، إلى كفاح الطبقة البرجوازية المدنية الحديثة نحو اجتثاث بقايا طبقة الإقطاعيين، معتمدة في ذلك على فرض سيطرتها على الأرض والفلاحين. اعتقد بعض المؤرخين أن الانخفاض الكبير في إنتاج الفضة في الإمبراطورية الإسبانية تسبب في تقليل الوفرة النقدية اللازمة لعقد الصفقات، مما أدى بدوره إلى حدوث الكساد التجاري؛ معززاً الصراع الطبيعي من أجل البقاء. كما تسبب النمو السكاني، طبقاً لوجهة نظر أخرى، في جعل الحياة أصعب للأشخاص العاديين، وزاد من حدة المنافسة على المناصب العليا. لاحظ بعضهم أن هذه الأعوام تبدو كأنها شهدت الحد الأقصى من فترات حدوث ظاهرة البقع الشمسية، مع تكرار موجات الطقس البارد وقلة المحاصيل. ولهذه التفسيرات جميعها علاقة بتفسير العديد من حالات الاضطراب التي شهدها منتصف القرن. وفي ظل هذه الظروف، ظهر نمط



يتلو رجل الدين في الكنيسة الإنجليزية: «صلاة أخيرة على الملك المتهم تشارلز الأول» في 1649. يشاهد الموقف حشد كبير يخيم عليه الصمت وقت قطع رأسه. مكتبة الكونجرس، *LC-USZ62-77770*.

مختلف من التغيير في اليابان، أنهى دائرة الاضطرابات بحلول 1640، في حين اختلفت تبعات الاضطرابات التي ألمت بإمبراطوريات البارود الإسلامية على الجانب الآخر.

لم تضطر الصين إلى اللجوء إلى الحرب، لبناء جهاز دولة مركزية كما فعل الإنجليز أو الفرنسيون أو اليابانيون. وفي الواقع، فعندما بدأ الأوروبيون زيارة الصين وتناولوها في كتاباتهم في القرن السادس عشر، وجدوا في نمط الحكومة الصينية أنواعاً من الكفاءة، لا يسع حكام أوروبا سوى الحلم بها. لم يواجه الأباطرة الصينيون طبقة راقية بحكم الوراثة، ولا مدناً تطالب بحقوق استقلال سيادتها في الحكم.

لقد حكموا بلادهم بواسطة حكام اعتلوا مناصبهم بعد خضوعهم إلى مجموعة من الاختبارات المعقدة والصعبة، للحكم على مقدرتهم المعرفية، ومدى تمكنهم من فهم النصوص الصينية الكلاسيكية، وقدرتهم على تطبيق ما درسوه من مبادئ أخلاقية في معالجة المشاكل السياسية والإدارية التي تواجه بلادهم، وقد أبهر ذلك كثيراً أولى جماعات

اليسوعيين التبشيرية، لمعرفتهم بعدم وجود مثل هذا النظام في أوروبا حينئذ. وعبر أحدهم عن تأثره وانبهاره، وكتب يقول: «يُعترف فقط بمن حصلوا على درجة الدكتوراه، أو درجة الليسانس ليتقلدوا المناصب الحكومية بالمملكة». وقد اقترب حكام الصين بدرجة كبيرة من النموذج المثالي للإدارة الموحدة، وصولاً إلى حدود الدولة الموحدة أكثر من حكام أي جزء آخر في العالم ما عدا اليابان. تمكن الحرفيون الصينيون من إنتاج أفضل الأقمشة والخزف الصيني «البورسلين» الأوحد في العالم. وقد انتقلت تلك السلع عبر الإمبراطورية، ومن ثم إلى التجارة العالمية عن طريق التجار ذوي الخبرة والمهارة، مما عاد على الصين بالتدفق المستمر للفضة. اقتربت الصين، في أوجه عدة، من أنماط «الحداثة الأولية» للوحدة الإدارية والإنتاج الاقتصادي، أكثر من أي بلد آخر في العالم؛ إلا أنها عانت أيضاً من دائرة العنف التي تعرضت لها في منتصف القرن السابع عشر.

كان جميع العلماء الصينيين، الذين اعتلوا المناصب الحكومية، نتاجاً لسنوات طويلة من دراسة التاريخ الصيني والنصوص الكلاسيكية، التي يعود تاريخها للألفية الأولى قبل الميلاد. كان من المعتقد أن هذه النصوص قد قدمت مثالاً للحكومة الجيدة، والتناغم الاجتماعي اللذين كانا لا يزالان في وفاق في الفترة من عام 1500 حتى عام 1600. فمن وجهة نظر العالم، ومن هذا المنطلق، حكم الإمبراطور جميع أرجاء العالم المتحضر، بموافقة علوية صادرة من السماء الزرقاء البعيدة أكثر من كونها صادرة عن إله؛ أي أنها موافقة تحددها التكهنات وبخاصة تلك الصادرة عن الصفوة وعامة الناس. تتمثل المهام الرئيسية التي اضطلع بها الإمبراطور في اختيار المسؤولين الحكوميين من ذوي الدرجات العلمية الرفيعة والأخلاق السامية، والسماح لهم بالإشراف على أمور العامة بصورة أبوية، والاستفادة من مشورتهم. وفي ظل ذلك، عاش الناس في ظل نظام أسري في القرى، بتوافق بين الطبقات الغنية والفقيرة والكبار والصغار.

في هذا العالم، لم تتضح صورة أماكن التجارة ومساعي تحقيق الربح. وقد يشير أحد كتبهم الكلاسيكية إلى نبذ مبدأ السعي لتحقيق الربح في آن ما، في حين يشيد في آن أخر بما يعود على عامة الناس من فائدة إذا منحوا ما يفيض عنهم من سلع تجارية إلى من يحتاجونها. وما إن تعافى الاقتصاد الريفي مما لحق به من دمار، في عصر مينج Ming؛ إثر

حروب يوان مينج Yuan-Ming، حتى ازدهر تشجيع التخصص في الإنتاج والتجارة بين الأقاليم. ولم يعارض المسؤولون العلماء هذا الاتجاه، لكن تعليمهم وما يؤمنون به من قيم لم يكسبهم الإرشادات الكافية للتعامل معه.

وفي نهاية عام 1500، كانت حاجة الصين للفضة في ظل هذا الاقتصاد التجاري المتنامي، وحجم الطلب في الأجزاء الأخرى من العالم لما تنتجه من حرير وخزف وغيرها من السلع الاستهلاكية الجيدة- قوى مهمة أثرت في تدفق المعدن الأبيض في جميع أنحاء العالم من مصادره الرئيسية في اليابان وجبال الإنديز والمكسيك. وقد أبهرت المدن الكبرى في الصين العالم كمراكز للتجارة والثقافة الاستهلاكية، وارتفعت الأسعار مما شكل ضغطاً على المسؤولين، الذين يعيشون برواتب ثابتة، وجعلهم أكثر فساداً، وهنا ظهرت قوة المال في آخر عصر مينج في الصين. حين تمكن ملاك العقارات الأثرياء من الإبقاء على أراضيهم بعيداً عن قوائم الضرائب عبر رشوة المسؤولين، عادةً، بمساعدة الطلاب العاملين ككهنة ووسطاء للحفاظ على الجسد والروح معاً؛ حتى يحظوا بفرصة أخرى لاجتياز الامتحانات. وفي عام 1590، واجهت دولة مينج حالة طوارئ عسكرية في العديد من الاتجاهات، بما في ذلك قيام هيديوشي بغزو كوريا، وكانت في حاجة ماسة إلى إيرادات زائدة. في ظل ذلك، فضل المسؤولون العلماء قيام الحكومة بدور محدود، وخفض الضرائب كمسائل مبدئية، ولم يقدموا أي عون في مثل هذا الوضع.

ولكن منذ بداية عصر مينج، تخلى الأباطرة عن اعتمادهم على المسؤولين العلماء، عبر التحول إلى المخصيين الذين كان من المفترض أن يخدموا داخل نطاق القصور فحسب. وفي عام 1590، أُرسل المفوضون المخصيون إلى المحافظات لتحصيل الضرائب وفرضها على مصادر الدخل، التي من الواضح أنها توافرت في المناجم المزدهرة التي أظلها الاقتصاد التجاري والتجارة الخارجية وإنتاج الحرير، وغير ذلك بكثير. انسحب المسؤولون العلماء من مناصبهم احتجاجاً، وتظاهر المرشحون للاختبار خارج قاعات الدراسة. وكان من جراء ذلك أن استنكر بعض العلماء الإنفاق المرتفع، والسلوك غير التقليدي للآخرين، وتجمعوا في المنتديات الأكاديمية لتعزيز ممارساتهم الأخلاقية الكونفوشيوسية، وصياغة عرائض ضد الحكومة الفاسدة. أدى ذلك إلى تصاعد العجز في الميزانية، وفساد الحكومة،

وزيادة اعتماد الإمبراطور على المخصيين الذين لا يمتلكون نصيباً من الاستقلالية الأخلاقية والمبادئ السامية التي تمتع بها المسؤولون العلماء. وصل الأمر إلى ذروته في الفترة من عام 1621 حتى 1627، في عهد الإمبراطور الذي فضّل التجارة على الحكم، وترك السلطة بشكل كامل تقريباً في أيدي ديكتاتور خصيّ. تعرض المسؤولون المعارضون للضرب علناً في الواجهة الأمامية للقصر، وتم تعذيبهم حتى الموت على يد أفراد شرطة الخصيّ.

تمثل أحد تدابير خفض التكاليف التي اتخذتها الحكومة عام 1620، في إنهاء نظام محطات البريد الحكومية، الذي اتسم بالكفاءة، والذي استخدمه المسؤولون على نطاق واسع لنقلهم من قصر إلى آخر، فضلاً عن المراسلات الرسمية. ونتج عن ذلك طرد عدد كبير من الحمالين وسائسي الخيول وآخرين من العمل، وبخاصة في الأجزاء الفقيرة من الدولة. وبناءً على هذا، اندلعت ثورات عارمة، في مقاطعة شنشي Shaanxi شمال غرب البلاد على وجه الخصوص، مبشرة بالتحرر من الحكم الفاسد والضرائب الظالمة.

ويعد لي زيشينج Li Zicheng واحداً من أهم الزعماء المتمردين؛ فقد طُرد من وظيفته في محطة البريد، في حملة خفض التكاليف. أما المناطق الأخرى، فاتبع المتمردون فيها تعاليم مذهب زهرة اللوتس البيضاء البوذية، المتنبئة بقدوم ألفية جديدة للسلام والعدالة.

في الوقت نفسه، نشأ تحدٍّ خارجي كبير على الحدود الشمالية الشرقية للإمبراطورية، فيما يمثل الآن شمال شرق الصين. فلقد حكمت أسرة جورشن شمال الصين باعتبارها سلالة جين Jin في الفترة من عام 1127 حتى عام 1234؛ واستخدم أفرادها علاقات التبعية لحكام مينج Ming بشكل مصلحي من أجل إرسال هيئات من الممثلين الدبلوماسيين إلى بكين Beijing، وانتزاع العطايا والمزايا التجارية. وفي الوقت نفسه، نشأ تحد خارجي كبير على الحدود الشمالية الشرقية للإمبراطورية، فيما يعتبر الآن شمال شرق الصين. وبعد عام 1600، أعطى أحد فروع جورشن Jurchen نفسه اسماً جديداً هو مانشو Manchu، للدلالة على تنظيم جديد يندرج تحته جميع السكان في وحدات عسكرية تسمى الألوية الثمانية، وسن كذلك أبجدية جديدة لكتابة لغتهم. وفي عام 1616، أعلن حاكمهم نفسه إمبراطوراً لسلالة جين الأخيرة، مدعياً أنه من سلالة جين Jin، الذي حكم شمال الصين عام 1100. وبعد ذلك، في عام 1618، غزا المانشو بلدة مينج الحدودية. وانضم إليهم

مسؤولون صينيون محليون، وجنود الحدود، وكذلك القادة المغول، وسرعان ما تشكلت وحدات منغولية وصينية في الألوية الثمانية.

وفي عام 1628، إبان عهد الإمبراطور الجديد، بنى بعض الصينيين آمالهم على كفاءة مينج في توفير الموارد من أجل مواجهة هذه التهديدات الداخلية والخارجية. لكن هؤلاء الرجال الأكفاء واجهوا في ظل هذا النظام من يحاول تقويض جهودهم باستمرار عبر الصراعات الداخلية والفساد السياسي. تم السماح للمتمردين بـ«الاستسلام»، لكنهم تُركوا في معسكراتهم للاستعداد وإعادة التزود بالدعم اللازم، فثاروا مرة أخرى في أقل من سنة. أدت الثورة الأخيرة التي اندلعت ضد قوة مانشو المتقدمة إلى كشف النقاب عن مواطن العجز والانشقاق في عام 1642. أما عام 1644، فاستطاع قائد المتمردين؛ لي زيشينج، فيه الاستيلاء على مدينة بكين، فشَنق الإمبراطور الأخير لمينج نفسه على التلة المطلة على شمال القصر. ووفقاً لقصة أحدهم، كتب يقول عن لسان الإمبراطور: «ربما يحاول اللصوص تمزيق جثتي وذبح المسؤولين في حكومتي، ولكن لا تتركوهم يسرقون مقابر الإمبراطورية، أو يضرون أحداً من شعبنا»2. وقف قائد المينج على الممر الذي يلتقي عنده سور الصين العظيم بالمحيط، ونادى على المانشو ليساعدوه في طرد الثوار. وما إن استجابوا له، فر المتمردون بعد عشرة أسابيع فقط من بكين، وأوصى أمير المانشو بالعرش للإمبراطوار الصغير السن، وأعلن أن سلالة كينج عادت إلى الحكم، وسوف تستعيد السلطة والنظام، وتنتقم لموت إمبراطور المينج.

لقد تسبب انهيار النظام السياسي في عهد أسرة مينج في تزايد الصراعات والغضب في مجتمع تجاري يمر بحالة تحول سريع. وعلى الوتيرة نفسها، تراجعت عبودية عمال المزارع، وانهارت بالفعل دون رجعة بسبب ثورة العبيد في منطقة يانجتسي Yangzi المنخفضة على وجه الخصوص. كما لاقى الأغنياء المحليون هجوماً واسع النطاق ترتب عليه نهب المخازن التابعة لهم، وادعى اللصوص أنهم سرقوا الأغنياء لإعطاء الفقراء. في ذلك الوقت، لم يقتصر الشعور بالرعب من هجوم اللصوص وانعدام النظام على النخبة فقط، وإنما امتد إلى الكثير من الأشخاص العاديين الذين لم يرغبوا في أكثر من السلام والهدوء والأمان. وعلى الرغم من ذلك، أصاب الرعب الشديد النخبة، فقد كان لدى

أفرادها الكثير ليخسروه، إذ إنهم خبروا كيفية استعادة النظام، والاستفادة من ذلك.

تبنت طبقة النخبة في الصين ممارسات متقدمة للغاية في مجال التوظيف البيروقراطي والإدارة، يسرت بشكل كبير تحقيق جهودهم نحو استعادة النظام، وضمنت نجاح الأجيال المستقبلية في الحصول على فرص العمل في مناصب حكومية تسمح لهم بتعديل النظام ليتناسب مع الظروف المتغيرة. ومن حين إلى آخر، رأى المواطنون العاديون في الصين فرصاً لمنح أولادهم تعليماً جيداً، كي يشهدوا وصولهم إلى مناصب حكومية، لكنهم غالباً ما استفادوا أكثر من حالة السلام والرخاء عبر المشاركة في إنتاج أجود البضائع الحرفية في العالم، وإدارة الاقتصاد التجاري المتطور بشكل ملحوظ.

ولكن في الفترة من 1644 حتى عام 1645، برزت بعض التساؤلات حول إمكانية إطلاق ذلك الغضب المحتدم الكامن في الصدور، ومن المستفيد من رد الفعل تجاه تطبيق القانون والنظام. وكما هي الحال بالنسبة إلى جميع أجزاء العالم عام 1600، اتخذ السؤال صيغة الحكم الملكي: من سيحكم؟ وبالطبع، لم يكن يعني ذلك فرض سلطة أعلى، لكنها مسألة تقبل هذا الحكم على نطاق واسع. فإذا أبدى أحد الحكام، بصورة أساسية، استعداده لإعادة توزيع الثروة، فمن المؤكد أنه كان سيكتسب ولاء الكثير من الفقراء، وتبعيتهم له، فضلاً عن بعض العلماء المناضلين والمستائين من مظاهر الثراء الفاحش، والفساد الذي استشرى أواخر عصر مينج. وبعد أن طُرد لي زيشينج من بكين، لم يظهر أي زعيم من هذا القبيل، باستثناء قائد المتمردين زهانج إكسيانزهونجZhang Xianzhong في سيتشوان، الذي لم يبدُ أن لديه تمييزاً كبيراً بين الأغنياء والفقراء أثناء فورات القتل التي أعملها في شعبه. وفي عدة أماكن وسط الصين وجنوبها، حاول أمراء سلالة إمبراطورية مينج القديمة ادعاء أنهم كانوا الخلفاء الشرعيين للإمبراطور، الذي توفي في بكين من أجل تشكيل حكومات «موالية لأسرة مينج».

ففي بعض الأحيان، كانت هذه الحكومات في صراع مع بعضها. وواجهت دوماً التمزق على يد الفصائل القديمة، المتمثلة في المخصيين المؤيدين أو المعادين لسياسات أواخر عهد مينج. وغالباً ما تعرضوا إلى الوقوع رهائنَ في يد القادة العسكريين شبه المستقلين الذين دعموهم أو خانوهم، لذا لم يملك أي ممن تزعموا الحكم فرصة فرض

القانون والنظام على الشعب.

كان ذلك هو الموقف الذي تعقبت فيه قوات سلالة كينج الجديدة القائد لي زيتشنج في غرب مدينة بكين، مما أسفر عن انهيار قواته ومقتله؛ (وكما هو واضح حدث ذلك في الغرب وليس في بكين). قامت هذه القوات بنقل جيوشها جنوباً نحو الحقول الخصبة ومدن يانجزي المنخفضة Yangzi، وقامت بتزويد تلك الوحدات من جيش مينج بمجموعات من المقاتلين المحليين والقادة الأقوياء من كل صنف، وقد خضع الكثير منهم إلى الانضباط الصارم لنظام الألوية الثمانية في الصين.

من ناحية أخرى، رفض لواءات جيوش المينج المسيطرون على مدينة يانجزو الثرية الاستسلام، وعندما وقعت هذه المدينة في يد الكينج، أطلقوا العنان لقواتهم عشرة أيام منخرطين في أعمال سلب ونهب ومذابح.

في عام 1645، أعلن الكينج أنه يتوجب على جميع الرجال الموجودين في الإمبراطورية أن يُعربوا عن ولائهم باتخاذ قصة شعر المانشو، وذلك بحلق مقدمة الرأس وارتداء ضفيرة خلفية طويلة من الشعر – جديلة – كانت رمزاً لاستعباد الكينج، وداوم الناس على ارتدائها حتى بداية الثورة التي اندلعت عام 1911.

في القليل من مدن يانجزي الواقعة في الأراضي المنخفضة، أعرب بعض العلماء وعامة الشعب – ممن تربطهم عقيدة واحدة تتمثل في ضرورة حفاظهم على أبدانهم وشعورهم تماماً مثلما تسلموها من ذويهم – عن عصيانهم في مقاومة يائسة انتهت بسحقهم. ومع ذلك، وفي أماكن أخرى، شاهد بعض السكان المحليين بجميع طبقاتهم – دخول قوات المانشو إلى المدينة بشعورهم ولغتهم الغريبة – كيف فقد بعض المقاومين الأبطال رؤوسهم، عندما فرض الكينج القانون والنظام اللذين طالما تطلعوا إليهما.

وبحلول عام 1650، وصلت قوات الكينج إلى الجنوب الأقصى لتقيم بمدينة جوانجزو. ونتيجة لذلك، ظهرت سلطة متميزة موالية للمينج، اعتمدت على التجارة والسلطة البحريتين في منطقة الساحل الجنوبي، وبقيت بالقليل من القواعد هناك حتى ستينيات ذلك القرن، لكنها أصابت الكينج بذعر حقيقي فور ظهورها. وفي أعقاب ذلك، اندفعت قوات الكينج نحو الجبال الموجودة في الجنوب الغربي، وقامت بملاحقة الإمبراطور



فيما يبدو أن حماة المينج *Ming* كان لديهم الكثير من الأسلحة النارية العظيمة في هجومهم على المانشو *Manchu* عام 1630 تقريباً، لكن تميز المانشو *Manchu* بالتنظيم الجيد، وحصلوا فوراً على بنادقهم ومدافعهم التي حلت محل أقواسهم وسهامهم التقليدية. مكتبة الكونجرس، القسم الصيني.

الأخير الموالي للمينج في مدينة بورما Burma (ميانمار الحديثة Myanmar)، وطبقت عليه حكم الإعدام. وبحلول ذلك الوقت، اكتشف بعض المسؤولين –الذين بذلوا الكثير من المساعي، دون جدوى، لتقديم مقترحات حول جمع الضرائب بشكل أكثر إنصافاً، فضلاً عن تقديم إجراءات بيروقراطية واضحة خلال فترة حكم المينج السابق– أن حكام الكينج رغم تبنيهم الأساليب الأجنبية، تمتعوا بسمة التفكير المتفتح، وكانوا قادرين على وضع

الإصلاحات قيد التنفيذ.

كانت محكمة الكينج الإمبراطورية حتى ذلك الوقت ماتزال في بكين، وبدت بمثابة معلم شهير يحمل السمات الأجنبية؛ حيث كان الكثير من المانشو يتكلمون القليل من اللغة الصينية، ولم يتكلمها بعضهم على الإطلاق، كما أقامت الأسرة الإمبراطورية الكثير من علاقات الزواج مع الطبقة الأرستقراطية للشعب المنغولي في الشمال، وكان لمذهب البوذية التبتية تأثير ملحوظ. ففي الفترة ما بين عامي 1662 و 1667، حمل نواب المانشو – على ما يبدو – وهم المكلفون بالوصاية على الإمبراطور الصغير، العداوةَ تجاه المؤسسات الصينية وسلطة البيروقراطيين الصينيين، ولكن لا يبدو أن ذلك قد أحدث الكثير من التغيير في الحكومة. وعلاوة على ما سبق، تركت المقاومة البحرية الموالية للمينج قواعدها الساحلية، لكنها وجدت قاعدة جديدة على ساحل تايوان. وقد حاول الكينج استكمال تضييق هذا التحدي، عن طريق قطع التجارة البحرية، وتدمير قطاع واسع من ساحل جنوب الصين. وعلى الرغم من ذلك، لم تُنتهج هذه السياسات (ولم يتم تنفيذها). وفي أعقاب اتخاذ الإمبراطور الشاب السلطة لنفسه عام 1667، بدأت حالة من البحث عن مزيج محتمل من المانشو والقوى الصينية، وظل الإمبراطور متقلداً العرش حتى عام 1722، وأصبح بذلك الإمبراطور كانجكسي Kangxi الأعظم، المخطط الأساسي لعملية إحلال السلام الذي نعم به الكينج فترة طويلة.

في سبعينيات ذلك القرن، واجه الكينج تحدياً عسكرياً مرعباً من جانب ثلاثة من أعظم لواءات الصين، ممن قاموا بخدمته منذ بداية عمليات الاحتلال التي قام بها، وكانت لهم سلطات واسعة في جنوب الصين، وأقيمت أكثر هذه السلطات خطورة في أقاليم جبل اليونان Yunnan وقويتشو Guizhou الواقع في الجنوب الغربي للصين. ومع التصدي لقوات هؤلاء الألوية، بدءاً من عام 1676 وما بعد ذلك، وهزيمة آخر تلك القوى عام 1681، اتجه الكينج إلى التوظيف النظامي للنخبة الصينية، وذلك عبر عمل اختبار خاص لتوظيف العلماء من أجل تسجيل التاريخ الرسمي للمينج وغيره من المشروعات الأدبية الكبيرة. وبعد انهيار نظام الحكم الموالي للمينج في تايوان عام 1683، وبعد أن أصبحت الجزيرة جزءاً من إمبراطورية الكينج، تم رفع القيود المفروضة على التجارة البحرية.

لم يكن الإمبراطور كانجكسي Kangxi على ثقة كاملة بالعلوم السياسية التي انتهجها العلماء الصينيون المسؤولون، وإنما كانت لديه معرفة بكيفية الاستفادة منها على نحو أفضل. وبحلول عام 1700، كان من الممكن رؤية بدايات ازدهار اقتصادي عميق واضح، وكذلك أصبح من السهل كثيراً بناء مستوطنات على الحدود بزراعة الذرة والبطاطا، (وهي محاصيل جديدة عُرفت من الاتصال بالأمريكيين)، ووجود مناجم النحاس، والشاي والحرير للاستهلاك المحلي والتصدير، وغير ذلك كثير. وكان من شأن ذلك النمو أن يجعل الصين واحدة من أهم العوامل المؤثرة على مجرى أحداث ذلك العالم المترابط، الذي ظهر عام 1700 مثلما كان في عام 1500. وفي ذلك الوقت، قام حكام الكينج بتوجيه انتباههم إلى حدودهم الشمالية؛ فقد يسهم فهمهم المتميز للمجتمعات الآسيوية الداخلية، وثقافة كل منها، ومؤسسة سلاح الفرسان العظيمة التابعة لها، وأسلحتها النارية الجديدة- في القضاء على التهديد باحتلال الصين من منطقة السهول الواسعة للمرة الأولى منذ ألفي عام. وبالإضافة إلى ما سبق، تابعت طبقة النخبة، المكلفة باختبار المسؤولين قبل تقلدهم المناصب الحكومية في الصين، السيطرة على المجتمع المحلي، وتلبية احتياجات معظم المسؤولين المحليين. كانت الدلالات البارزة على التغيير منذ عهد المينج الأخير، في معظم أنحاء الصين،هي الرؤوس المحلوقة والجدائل فقط، ولكن السياق الإمبراطوري كان مختلفاً تماماً؛ فقد أعطى للصين مستوى من كفاءة الحكومة والحماية من الغزو لم تعرفه طوال عدة قرون مضت.

وبالنسبة إلى أوروبا، انتهى زمن المشاكل مع ظهور بعض الأمم الأكثر وحدة، ولكن استمرت الحروب فترات أطول من حروب الصين، وتحسنت أوضاع بعض المناطق على نحو شديد التباطؤ. كانت أهوال الحرب التي شوهدت خلال السنوات العشر التالية لعام،1600 مختلفة كثيراً عن الأهوال التي شهدها عصرنا؛ فلم تكن هناك أي أسلحة دمار شامل، أو قنابل موجهة تنطلق من الطائرات بسلام فوق الأفق. كان من الممكن أن تُلحق طلقات البنادق القديمة أو المدافع بعض الأضرار لمسافات معينة، لكن التعرض للقتل والإصابة بجروح كانا يحدثان فقط من القتال المباشر بين طرفين. وفوق ذلك، لم يكن المصابون بجراح يأخذون مسكنات للآلام، ولا مضادات حيوية، وكان بتر الأطراف

التالفة أفضل من الإصابة بالغرغرينة التي كانت تقتل صاحبها ببطء. وفي كل مكان، كان يمكنك رؤية أحد الجنود السابقين يسير مبتور الأطراف ومتسولاً في الطرقات.

أما المدنيون، فكانت مشاهدتهم مرور أحد الجيوش- ولو افترضنا أنه كان جيشاً ودوداً- تعد بمثابة نذير بحدوث أعمال سرقة ونهب واغتصاب، وتدمير للمنازل والحقول، وذبح لحيوانات المزارع. لم توجد سوى بضعة جيوش منظمة على نحو جيد، وملتزمة بقضية ما. وعندما لم يكن الجنود يحصلون على أجرهم أو قُوتِهم في الوقت المحدد، كما كان يحدث غالباً، كانوا يتولون زمام الأمور بأنفسهم. ولقد اعتاد الأمراء تجنيد أفواج منظمة على أراضيهم الخاصة، لكن لم تكن لديهم الرغبة في أن يدفعوا إليهم بأجورهم في وقت السلم؛ لذلك لم يكن هؤلاء الجنود مدربين على نحو جيد. وكانت أفضل الجيوش هي تلك التي تتألف من المرتزقة، ولم يكن جنود مثل هذه الجيوش يترددون للحظة في استيفاء أموالهم وأقواتهم المستحقة بالقوة، بل إن الأكثر من ذلك أن قادة هذه الجيوش كانوا يبيعون خدماتهم لمن يدفع أكثر.

حدث أغلب ما ذكرناه فعلياً في الحروب التي كانت تُشن في الهند أو الصين أو دول الحكم العثماني، لكن كوارث الحرب لم تكن أسوأ -في أي مكان- مما كانت عليه في أوروبا بدولها وحكامها المتعددين، وكانت الحالة الكلاسيكية لأهوال الحرب في أوروبا هي تلك الحرب التي استمرت ثلاثين عاماً، بدءاً من عام 1618 حتى عام 1648. ولمزيد من التوضيح، لم تكن هذه الحرب وراء بداية انحسار حالة الرخاء والقيادة الثقافية التي عاشتها الأراضي الألمانية في العصور الوسطى، بل أسفرت هذه الحرب - دون شك- عن تدمير ألمانيا وتأخرها على الصعيد السياسي، وتجزئتها حتى عام 1800. كانت ألمانيا مفهوماً باقياً من زمن سابق، ففي العشرة أعوام بدءاً من 1600، لم تكن هناك أي حكومة ملكية أو هيكل سياسي موحد في الأراضي التي يتحدث سكانها اللغة الألمانية، وبدلاً من ذلك ظهرت الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي لاحظ أحد المفكرين الأذكياء فيما بعدُ أنها لم تكن مقدسة، أو رومانية، أو إمبراطورية.

تألفت هذه الإمبراطورية من حكومات ملكية مستقلة تتفاوت أحجامها، فيصل بعضها إلى حجم الممالك الكبيرة وبعضها الآخر كان بمثابة قرية أو اثنتين، بما في ذلك

الحقول المحيطة بها أو بهما، كما تألف بعضها من المدن المستقلة التي كان لها تراث يُفتخر به، فضلاً عن أراضٍ يقوم على حكمها الأسقف أو رئيس الدير أو أي أمير آخر من الكنيسة الكاثوليكية. كان هناك ما يقرب من الألفين من هذه المناطق ذات السيادة داخل الإمبراطورية، وبين الحين والآخر استُدعي حكام هذه المناطق أو من ينوب عنهم لحضور مجلس تشريعي، وكان ذلك بمثابة جلسة عامة يتوجب عليها اعتماد جميع القوانين والضرائب. وعلى الرغم من ذلك، تمت هذه الاجتماعات عن الكثير من الفوضى، بما أثارته من خلافات مستمرة حول حقوق التصويت، مما كان يؤدي عادة إلى إصدار الأباطرة حكمهم دون موافقة المجلس التشريعي. ومع ذلك، كان الإمبراطور نفسه يتقلد منصباً يحصل عليه بالانتخاب؛ إذ كان هناك سبعة من الناخبين في الإمبراطورية، ثلاثة منهم من كبار أساقفة الكنيسة، وكانوا يُنتخبون بدورهم من جانب رجال كنيستهم الكاتدرائية. وفضلاً عن ذلك، كان يتم انتخاب واحد من الأمراء الأربعة غير التابعين للكنيسة– ملك بوهيميا Bohemia– من جانب الطبقات الاجتماعية البوهيمية وجمعية النبلاء وممثلي المدينة. أما العديد من المدن المستقلة، فكان يقوم بحكمها بعض المجالس التي تم انتخابها بطريقة ما.

كان انتشار السلطة بهذه الطريقة وعبر جميع الإجراءات الانتخابية– فيما يبدو– بمثابة بدايات واعدة لواحد من الأنظمة السياسية، التي ستضع تحقيق احتياجات عامة الشعب في عين الاعتبار، وكان فيه السلام والنظام الجيد من القيم الأساسية، وكان التفاهم من الجوانب الأساسية في السياسة التي ينتهجها. وخلال العشرة أعوام التالية لعامي 1500 و1600، ظهر الكثير من الكلام حول الدفاع عن «الحريات الألمانية» الغالية التي كانت تعني– في الأساس– قدرة كل وحدة ذات سيادة على تقرير مصيرها الخاص. وفي أعقاب عام 1618، اتضح أن جميع تلك الحريات كانت مراوغة إلى أبعد حد، ولم يفلح أي شكل من أشكال التفاهم والتسوية.

وتكبد الشعب الألماني معاناة مروعة استمرت ثلاثين عاماً. وكذلك، وقعت السلطات الكبيرة في ألمانيا في أيدي جميع الأمراء المُورَّثين، وكان ذلك مصدراً رئيسياً للمتاعب، وسمة مشتركة في سياسات معظم أنحاء العالم الحديث الأول. في أغلب الأحيان، كان

الملك المورِّث يأخذ فكرة محدودة عن طريقة الحكم، ولم يكن يفكر كثيراً إلا في كيفية حفاظه على ما ورثه كما هو، أو توسيعه وتوريثه لنجله أو غيره من الورثة. وسوف يفهم أي شخص سمع قصصاً عن الشؤون الأسرية أنه عند انتقال شيء ما بين الأشخاص بالتوريث، فإنه- آجلاً أم عاجلاً- سيقع في يد شخص لا تؤهله مواهبه ولا أخلاقه ولا اهتماماته كي يحافظ عليه. لم يكن أي ممن تولوا الحكم بالوراثة في الإمبراطورية حتى عام 1618 من رجال السياسة المحنكين ذوي الكفاءة الكبيرة، وإنما بدا معظم رجال السياسة المحنكين خلال فترة الحرب الطويلة من قادة المرتزقة الذين كانت أهدافهم- ببساطة- الحفاظ على حصول جيوشهم على أجور وأعمال، وإثراء أنفسهم. ومن ناحية أخرى، كان بعض هؤلاء السياسيين من الحكام والوزراء الأجانب الذين تدخلوا في النزاع الألماني وحافظوا على استمراره فترة طويلة، على الرغم من تطلع الشعب الألماني إلى العيش في سلام.

حتى ذلك الوقت، كانت أقوى الأسر في الإمبراطورية هي أسرة هابسبورغ **Hapsburg**؛ إذ استطاعت- عبر الزيجات الماكرة، والحظ الجيد في المواليد، وبقاء الأبناء على قيد الحياة- تقلد منصبين حاسمين في نظام الدولة الأوروبية، هما منصبا ملك إسبانيا والإمبراطور الروماني المقدس. ولم يكن هذا المنصب الأخير مورَّثاً- بطريقة فنية- بل تقلده أحد أفراد أسرة هابسبورغ منذ عام 1273. لقد كانت الثورة الهولندية ضد الحكومة الملكية الإسبانية هي الأكثر حدة، لكنها كانت بعيدة عن مثال التوتر الوحيد القائم بين مساعي هابسبورغ لِمَرْكَزَةِ سلطة الحكم ومذهب الانصراف الكلي **particularism** المتغطرس للمدن لكبرى والجمعيات الإقليمية. وكذلك زادت حدة العديد من النزاعات الأخرى- مثلما كانت الحال في النزاع الهولندي- بسبب الانقسامات الدينية التي عرفتها أوروبا الحديثة في أوائل عهدها. و بالإيمان الراسخ، وعبر الاستراتيجية وقوة التأثير المميزتين للمذهب الكاثوليكي الإسباني والمستمدتين من الخلفية التاريخية للحروب ضد القوى المسلمة، جعل أفراد أسرة هابسبورغ أنفسهم كبار حماة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية.

من جانب آخر، وفي فترة النزاع الطويل الذي قام في ألمانيا، ورداً على الثورة الهولندية، كانت مساعي أسرة هابسبورغ المبذولة بهدف القضاء على مذهب اللوثرية **Lutheranism**

ومذهب الكالفينية، وبهدف دعم إحياء العقيدة الكاثوليكية وتعميقها، وكانت تلك بمثابة العوامل الرئيسية وراء استقطاب الحكام والشعوب الكاثوليكية والبروتستانتية، وهو الأمر الذي يشبه استحالة الوصول إلى تسوية أو تسامح. وكذلك كان هناك العديد من المتعصبين والمتطرفين بين اللوثريين والكالفينيين، ممن كانوا يَعُدُّون البابا عدوّاً للمسيح، ونائباً للشيطان في نهاية العالم. في بعض الأحيان، كان اللوثريون والكالفينيون يكرهون بعضهم لدرجة ساوت كرههم للكاثوليك. ولقد زاد النموذج الكالفيني للسيطرة على المجتمع عبر كبرائه، وليس الأساقفة أو الحكام، من صعوبة التفاهم والتسوية، لكن الصعوبة الجذرية كمنت في معاهدة سلام مدينة أوجسبرج Augsburg، التي تم إبرامها عام 1555؛ حين اتفق أمراء الكاثوليك واللوثريين في الإمبراطورية الرومانية المقدسة على مبدأ تمكين حاكم دولة ما من فرض معتقداته الدينية على شعبه، ولا يحق لحاكم أي دولة مجاورة له معتقدات دينية مختلفة أن يتدخل في ذلك، ولكن لم تكن هناك أي مطالبة بالتسامح مع ذوي العقائد المغايرة.

امتلأ تاريخ البلاط الملكي والسلالات الحاكمة، الذي استمر إلى عام 1600 تقريباً، بالصراعات الدينية. فعلى سبيل المثال، سخر الوصي ذو المذهب الكالفيني لخدمته الأميرَ الصغيرَ الذي تربى على تعاليم الكنيسة البروتستانتية اللوثرية، وتحول الأمير من المذهب اللوثري إلى المذهب الكالفيني وحاول ممارسة حقه في فرض رأيه على الشعب، وسعى إلى أكثر من هذا بكثير.

ففي المدن والقرى قد يجد الحاكم اللوثري أن شعبه يشعر بالحماسة المتقدة تجاه المذهب الكاثوليكي عند سماع أحد الواعظين المتجولين في الشوارع، أو قد يذهب القرويون إلى مقر الأسقف الكاثوليكي ليطلبوا الموافقة على بناء كنيسة لوثرية. ويصبح هذا الأمر بطيئاً في حالة واحدة هي حالة الصحوة تجاه الخوف من الحروب الطائفية، ولكن هل فكر الناس في أوروبا خلال القرن السابع عشر أن هذا هو الحل الأمثل، كي يمارس الحكام حقهم في فرض معتقداتهم الدينية على الشعب، أو أن يسمحوا بوجود عدد كبير أو قليل من المعتقدات الدينية والطقوس. كان الهولنديون سبّاقين إلى هذا التغيير، لكن حتى في هولندا، كان العديد من الأشخاص لا يعرفون إن كانت سياسة التسامح الديني فكرة

جيدة أم لا، ونادوا بالعودة إلى تشدد المذهب الكالفيني المنسجمة مع المجتمع.

كانت براغ؛ عاصمة بوهيميا، مليئة بالصراعات مثل أي بلد في أوروبا، والعديد من النبلاء البوهيميين كانوا لوثريين، لكن الكثير منهم كانوا كاثوليكيين كذلك. وقد سعوا نحو دعم عائلة هابسبورغ التي مقرها فيينا. وكان منصب ملك بوهيميا Bohemia يتولى بالانتخاب، وكان الملك أحد الأمراء السبعة المرشحين لمنصب إمبراطور روما المقدسة. تقلد الإمبراطور الهرِم متياس Matthias الهابسبورغي مُلك البوهيميين. وبدا أن انتخاب ملك بروتستانتي للبوهيميين، بعد موته، يمكنه من أن ينضم إلى الأمراء البروتستانتيين المنتخبين ليكونوا الأغلبية ضمن السبعة المنتخبين، وبذا يتم انتخاب إمبراطور من غير عائلة هابسبورغ. قامت عائلة هابسبورغ بإعداد اجتماع أو مجلس لمناقشة مسألة الممتلكات البوهيمية عام 1617؛ حين كان فيرديناند Ferdinand– وهو أحد أمراء الأسرة الإمبراطورية– يعد خليفة البوهيميين، ولكن في عام 1618 بدأت الثورات البروتستانتية تندلع، وأصبحت براغ تحت حكم الائتلاف البروتستانتي.

توفي الإمبراطور متياس في مايو 1619، وكان السؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو: مَن يمثل البوهيميين في الانتخابات الإمبريالية الإمبراطورية. فمعظم الأمراء البروتستانتيين في الإمبراطورية أحجموا عن الترشح؛ لأنهم لا يريدون معاداة الأسرة الهابسبورغية، أو أن يقوموا بأي مجازفة جديدة.

وعثر على مرشح هو فريدريك Frederick؛ الأمير المنتخب من جانب البلاطين، وهي مقاطعة في الإمبراطورية الرومانية المقدسة وعاصمتها هايدلبرج غربي ألمانيا وقرب نهر الراين. وكان فريدريك وسيماً وساحراً، وبدا مقتنعاً تماماً بعدالة قضيته، ولم يكن متشدداً أو ذا قدرات سياسية. في أغسطس 1619 قام المجلس البوهيمي بإلغاء انتخاب فرديناند الهابسبورغي وانتخبوا فريدريك ملكاً للبوهيميين.

ووصل الخبر إلى مجلس الأمراء المنتخبين، وبعد هذا لم يكن لديهم أي بديل آخر، فوافقوا بالإجماع على اختيار فرديناند الهابسبورغي إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية.

أصبحت المخاوف التي جعلت الأمراء البروتستانتيين يتراجعون واقعاً الآن. وتحولت القضية البروتستانتية إلى تحدي سلطة فرديناند هابسبورغ وجهاً لوجه؛ إذ اعتقد العديد

من الأمراء البروتستانتيين أن إيجاد حل وسط هو أكثر أمر محتمل في هذا الشأن. أما أعداء الهابسبورغيين خارج ألمانيا، الذين نشؤوا بسبب التدخل في الصراع الألماني – وإن استمر هذا حتى بعد أن سعى معظم الألمان للسلام– فلم يكن هذا الأمر محتملاً من جانبهم على الإطلاق. وفي النهاية، كان تعهد فريدريك للبوهيميين مقوضاً لسيطرة البروتستانت على البلاطينين، وبدا هذا مفتاح بقاء جيوش إسبانيا، التي تهدد هولندا دون إمدادات أو تسليح. وكانت نتيجة هذا أن الأمراء البروتستانتيين أعطوا وعوداً شفهية فقط لفريدريك. ولم تفعل فرنسا أي شيء آخر؛ لذا فقد اندثر في التاريخ وأصبح اسمه الملك البوهيمي «وينتر كينج» **Winter King**. وكان قد ابتهج بسبب سيطرته الجديدة، وقام بعمل احتفالات رائعة بعد وصوله في نهاية عام 1619، وأفنى أمواله بحلول مارس عام 1620. كما قامت جيوش هابسبورغ بغزو البوهيميين في يوليو وتحطم الجيش البوهيمي، وأُجبر فريدريك على الرحيل في نوفمبر. انشغل البلاطينيون بالقوات الإسبانية، وطالبت إنجلترا وإسبانيا فريدريك بالتخلي عن المشروع البوهيمي، والعودة إلى حكم البلاطين تحت حمايتهم، لكن فريدريك رفض قضية البروتستانت بثقة، ووجد حلفاءَ ألماناً جدداً.

ولما كانت الحرب مستمرة، فقد حدثت عمليات نهب كثيرة في الأماكن التي مر الجيش بها، كما أنه نقل أمراضاً بشرية وحيوانية من الأماكن التي جابها، واندثرت التجارة بسبب عدم الأمان في السفر، وانخفاض سعر السبائك التي صهرت كنقود؛ إذ سعى الحكام إلى تسديد فواتيرهم بأي طريقة، لكن القليل من الناس صاروا أغنياء جدّاً، وهم المتخصصون في سك العملة وموردو السلع للجيوش ومقرضو الأموال، الذين أقرضوا الحكام المتعثرين، وقبل كل هؤلاء كان قادة المرتزقة هم الأكثر ثراء، وكان أقواهم ألبريشت فون والينشتاين؛ إذ قام بزيادة ممتلكاته، وانتزع الإمدادات بكفاءة شديدة، وسمحت له مصادره الخاصة بإطعام جيوشه وإعطاء أفرادها رواتبهم، في حين لم يستطع الحاكم الذي يحاربه فعل هذا، مما سمح له بإقراض فريديريك هابسبورغ مبالغ كبيرة. وفي عام 1625 عندما أصبح الإمبراطور فرديناند الهابسبورغي في مأزق كبير، قرر فون فالنشتاين von. **Wallenstein** أن يدافع عنه بـ 50,000 جندي. فجنوده منضبطون أكثر، وأفضل تغذية، وإمداداً، على الرغم من أن قواته كانت –بدايةً– أقل تدميراً من قوات المرتزقة الآخرين.

بيد أن فرديناند لم يثق به قط، وقام بنفيه في 1630، ثم في 1632 أُعيد بشروط فالنشتاين، وفي 1634، قتل وسط حالة من الشائعات التي تدور حول تآمره على إسقاط الإمبراطور.

لكن الحرب أخرجت السلطة -في ذلك الوقت- من أيدي والينشتاين وفريدريك الهابسبورغي، ومن أيدي الحكام الألمان بشكل عام، ولأجيال عديدة.

كان حكام فرنسا البوربون Bourbon يرون في عائلة هابسبورغ عدوهم اللدود، الذي يهددهم من ناحية الحدود الجنوبية، ومن جهة إسبانيا، والحدود الشمالية من ناحية هولندا، وفي أجزاء عديدة غرب ألمانيا. لكن انتباههم كان منصرفاً عنهم بسبب الاضطرابات الداخلية، مما منعهم من القيام برد فعل مؤثر. أما في ذلك الوقت، وتحت توجيه الكاردينال ريتشيليو Richelieu، فقد بدأوا في دعم كل الجيوش المعادية للأسرة الهابسبورغية. وعلى الرغم من أن القوات الهابسبورغية كانت كاثوليكية، فإن البابا -الغاضب بسبب تدخل إسبانيا في شؤون إيطاليا- دعم الجهود الفرنسية ضدها، معلناً نضاله ضد الهابسبورغيين وسيطرتهم على ألمانيا، وقال في إعلانه إن هذا ليس هجوماً على المذهب الكاثوليكي.

وأحرزت قوات والينشتاين تقدماً في شمال ألمانيا حتى عام 1629 عندما طلبت مدينة تقع على الساحل البلطيقي المساعدة من السويد. وكانت معظم أوروبا تعتقد أن السويد بلد فقير يكاد يكون معدماً، لكنه مر بالعديد من الإصلاحات في العقود السابقة، مما جعله مملكة موحدة، وكان ملكه غوستاف أدولفوس Gustavus، وهو قائد عسكري عبقري حاز وجهة نظر ورؤية سياسية أخذتا بعين الاعتبار. وقبل أن يموت في إحدى المعارك سنة 1632، أظهر بوادر رغبة في تعديل بنية الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والاستعداد لتبني تسامح ديني أكبر.

اجتاحت جيوشه ألمانيا من الجنوب والغرب. وحتى بعد موته، ظل الجنرالات ممسكين بزمام الجيش السويدي في ألمانيا.

وبدا -حينها- أن الحكام الألمان يسعون إلى السلام، لكن صراعات الهابسبورغ الداخلية والبوربون حالت دون هذا، وجعلت الحرب مستمرة. مات العديد من الفلاحين وفر بعض آخر في كثير من مناطق ألمانيا، وكان الحل الوحيد لجعل وحدات

الجيش تطعم نفسها هو أن تستقر في الربيع وتزرع محصولاً، وتنتظر في هذا المكان حتى موعد الحصاد. وقد تجول الجنود المرتزقة من وحدة إلى أخرى، وبدا لهم أن الحياة وسطها محتملة، ولم يكونوا يكترثون في أي جانب يحاربون، فلم يكونوا يعرفون سوى حياة الحرب. في 1641، دعا الإمبراطور إلى مجلس إمبراطوري، وأعلن أنه يسعى إلى السلام، لكنه لم يكن مستعداً للتخلي عن سياسته، وأعلن في 1629 استعداده لإعادة كل الأراضي التي أخذت بالقوة من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية منذ اتفاقية السلام، التي قام بها أوغسبرغ في 1555. وقد أُهمل هذا في التسوية الأخيرة للسلام.

في 1644، بدأت مفاوضات رسمية للسلام، لكن لم تُوقع المعاهدات لمدة أربع سنوات، ولم تحدث هدنة خلال المفاوضات، فقد سعى كلا الجانبين إلى التأخير؛ على أمل أن تتحول أحداث ساحة المعركة إلى صالحه. ولم يسأل أحد الشعب الألماني ماذا يريد، وعلى أي حال كان يوجد على الأقل 33٪ من الألمان هناك منذ أن بدأت الحرب، وفي بعض الأماكن كانت الخسائر أكبر، وتم الاعتراف باتفاقية السلام للتسوية.

واعترف باستقلال الاتحاد الهولندي، وحق كل ملك من ملوك الإمبراطورية الرومانية المقدسة في اختيار حلفائه. لذا، فقد قُلص حجم الأراضي الخاصة بالإمبراطورية الرومانية المقدسة بشكل مباشر، وأصبحت عائلة هابسبورغ مسيطرة عليها، وأصبحت هذه العائلة مندمجة باعتبارها كتلة كاثوليكية مركزها فيينا. وغدت معاهدات السلام نافذة، وبشكل خاص معاهدة غرب فاليا، التي نُظر إليها أنها تعطي شكلاً متكاملاً للنظام الأوروبي الدولي بشكل متساوٍ ومستقل بالنسبة إلى كل دولة منفردة، وهو نظام نشرته السلطات الأوروبية والأمريكية حول العالم في القرن الثامن عشر، ومازالت أوروبا حتى الآن تحاول تغييره بشكل أساسي. كانت الولايات المتحدة هي التي تدخلت في الكوارث التي أثرت في ألمانيا خلال الحرب، كما سعت فرنسا –بشكل خاص– والسويد swedish إلى الوحدة الداخلية والسلطة الدولية، وانضمت إليهما إنجلترا. كانت النمسا هابسبورغية، وغدت واقعة في صراع القوة هذا، ونشأت كدولة جديدة هائلة من حطام الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وحتى وقت قريب، ألقى الألمان باللوم علي حرب الثلاثة عشر عاماً التي جرت لهم وصعبت أمر توحدهم وتحديثهم، بيد أن ذلك الربط وما تعلق به من خراب أمران

مبالغ فيهما، ومع هذا فقد تركت الحرب ألمانيا -بكل تأكيد- محطمة ومقسمة إلى العديد من الدويلات التي بها دوائر مغلقة للحكم. وبالطبع، ترك هذا للعالم درساً لا يُنسى عن أهوال الحرب، وفظائع التدخل الأجنبي في حروب الشعوب الأخرى ووحشيته.

شاهد سكان الجزر البريطانية حرب الثلاثة عشر عاماً من مكان قريب، وانخرطوا فيها أحياناً، وقد كانت لديهم صراعاتهم الطائفية أيضاً، لكن ما حدث فيما بعدُ بدا مختلفاً إلى حد ما. كانت الأحداث الدرامية البريطانية في القرن السابع عشر ذات شأن مهم للجميع في كل مكان في العالم، لا بسبب أنها درست جيداً وتنوعت نظريات التغيير التي تمت تجربتها عليها فقط، وإنما بسبب العواقب التي حدثت في المستقبل أيضاً، وبزوغ نظام حكم جديد يضع حدوداً للنظام الملكي وسلطة البرلمان الفعلية التي مازالت مؤثرة بشكل كبير حتى اليوم. ومن أوتاوا إلى مدريد ولاجوس ودلهي وطوكيو؛ انتشرت مجالس الشعب وأصبح لها حصة من الازدهار الاقتصادي في المدن مثل فينيسيا، وأصبحت هذه المجالس تمثل العديد من المدن والمقاطعات مثل هولندا، التي استطاعت التضامن بشكل فاعل مع هذا الجزء الجديد من السلطة الناشئة في أوروبا.

وهكذا فعل أصحاب السلطة في البرلمان الإنجليزي، الذين ارتبطوا بالملكية الوراثية المتنفذة، وبدت العلاقة بين البرلمان والملكية مطروحة بقوة.

كانت الحرب أمراً بعيد الاحتمال، بعيد وفاة الملكة إليزابيث عام 1603 عن عمر يناهز السبعين، التي كان رفضها للزواج أمراً ضرورياً؛ كي تظل تصرفاتها وسياساتها غامضة، لكن هذا جعلها بالطبع بلا وريث. لم تنهر المملكة -على غير المتوقع- بسبب الحرب الأهلية والنزاع على الخلافة، فقد كان هناك الأسكتلندي جيمس السادس، الذي كانت جدة جدته ابنةً لهنري السابع؛ ملك إنجلترا. وقد كان مرحباً به ومقبولاً بشكل عام. وفي عام 1605 تم اكتشاف مؤامرة رومانية كاثوليكية للإطاحة بالملك والبرلمان. ولقرون عديدة احتُفل بعيد «جاي فاوكيس داي» باستخدام الألعاب النارية، فكانت مؤامرة البارود أمراً معتدلاً بالنسبة إلى التوترات التي نشأت حينذاك بين أصحاب السلطة الملكية، ونمو الإحساس بالحرية البرلمانية، وحقوق الرجال الإنجليز الأحرار. أضف إلى ذلك طبقة أخرى من المناهضين للكاثوليكية والمعادين لها، فقد كانت تعد، لقرون عديدة، ميزة

للعامة من الإنجليز.

كان الملك جيمس يحب إنفاق النقود، وغدت موافقة البرلمان على معظم الضرائب أمراً واجباً، لكن سلطة البرلمان نمت بشكل متوسط فحسب في فترة حكم جيمس، وقد قام بإدارتهما معاً ليتجنب طريقة القمع القاسية التي كان يتبعها الروم الكاثوليك، وكي يزداد نمو الحركة البروتستانتية. وأصبح هذا خطيراً في السنوات الثلاث الأخيرة من حكمه بعد اندلاع حرب الثلاثة عشر عاماً. لذا، فقد احتاج إلى الأموال ليقوي جيشه ويعزز مكانته، ويدعم الحلفاء في أوروبا، بيد أنه احتاج أيضاً في دبلوماسيته مع فرنسا وإسبانيا إلى السرية والغموض؛ حيث تتزايد أعداد الأتباع الداعمين لفريدريك البوهيمي الذي كانت زوجته ابنة جيمس. وقام البرلمان بمنح الأموال، لكنه غدا مرتعاً واسعاً للمحتجين والمتظلمين من أصحاب التبعيات الفردية. لم يكن من المفترض أن تصبح الالتماسات ونصوص الشكاوى أمراً متاحاً لكل القراء، وبخاصة الذين وجدوا في المطبوعات الواسعة الانتشار ضالتهم. أصر ملك وأساقفة الكنيسة الإنجليزية على أنه ليس من حق البرلمان مناقشة القضايا الدينية، لكن هذا لم يمنع الأعضاء البروتستانت من فعل هذا. وفي عام 1621، قرر البرلمان القيام باحتجاج للمطالبة بحق فحص كل القضايا التي تتعلق بالسياسة الملكية، لكن الملك رفض.

في 1625، توفي جيمس الأول، واحتاج ابنه تشارلز الأول إلى الأموال من أجل الحرب مع فرنسا، لكن البرلمان قابل الطلب بالرفض. وفي عام 1628، حصل على القروض التي كان يحتاج إليها، ولكن بثمن مرتفع، ووافق على عريضة حق البرلمان، وهو الأمر الذي كان محظوراً من بين كل المحظورات الملكية، وتمثل في فرض كل أشكال الضرائب دون موافقة البرلمان، والسجن دون غرامة محددة. في مارس عام 1629، وضمن الجلسة التالية، تحول البرلمان كليّاً، فأصبح في مواجهة مع الملك، رافضاً أوامره الخاصة بالموافقة على القرارات البروتستانتية، وأعلن أن الذين قاموا بإلغاء الضرائب غير البرلمانية، والأشخاص المعادين للكنيسة للبروتستانتية هم أعداء للمملكة.

قام تشارلز بحل البرلمان، واعتقل العديد من القادة، وفي عصر الرخاء والسلام كان يحكم دون البرلمان حتى عام 1640؛ إذ استمر المعادون للسياسة البروتستانتية.

وأصبح استقطاب التاج الملكي والبرلمان أمراً خارجاً عن السيطرة، ففي عام 1640 حدثت العديد من الاضطرابات في إسكتلندا وإيرلندا، مما جعل تمويل البرلمان أمراً لا مفر منه. وقد رفض البرلمان الذي تم تشكيله لفترة قصيرة أن يعطي أموالاً، فَحُلّ، وتبعه برلمان آخر استمر فترة طويلة من الزمن، وكان يشكل ثورة حقيقية، واستمر في السلطة من عام 1640 حتى 1660. وقد منح البرلمانُ الملكَ بعض الأموال، لكنه دُفع للموافقة على محاكمة وإعدام اثنين من مستشاريه، وتطلب هذا استدعاء البرلمان كل ثلاث سنوات، وتحريم حل البرلمان دون موافقته. لذا، فقد تحول البرلمان من كونه مجلساً يخدم البلاط الملكي إلى مصدر مستقل لتشريع القرارات السياسية. لكن هذا لا يعني أن البرلمان كان متحدياً، فطبقاً لما حدث فيما بعد، وفي نهاية 1641، حدثت احتجاجات كبيرة يمكن أن تلخص المظالم المتراكمة للبروتستانتيين وغيرهم من الذين لم يكادوا يعبرون عن آرائهم. والعديد من الأعضاء لم يكونوا مستعدين فعلاً للتعامل مع البلاط الملكي بهذا الشكل. وأخفق الملك في القبض على القواد المعادين للملكية، غير أن الطلب التالي الذي تم تقديمه للبرلمان في يونيو 1642 كان أبعد من ذلك، فقد تطلب موافقة البرلمان على التعيينات في المناصب الملكية والزيجات الملكية، والتغيير في السياسات الدينية.

وقد رفض الملك تشارلز ذلك، فتحرك البرلمان ليستخدم جيشه، ومما لا شك فيه أن الحرب الأهلية التي حدثت فيما بعد كانت طويلة ومليئة بالأهوال مثل حرب الثلاثة عشر عاماً التي كانت تدور في القارة. لكن الكثير من الدمار حدث، وانقسمت المجتمعات والعائلات بشكل قاسٍ. وبنهاية عام 1645، فازت جيوش البرلمان في العديد من المعارك الرئيسية، وكانت تسيطر على الوضع بشكل محكم؛ لكن البرلمان الذي قام بتشكيل الجيش، لم يكن المتحكم فيه، فقام الجيش بتطهير البرلمان من الأعضاء الذين كانوا يرأسونه، وشكل –بدوره– محكمة حكمت على الملك بالموت، فأعدم في يناير 1649.

كانت الشخصية المهيمنة على إنجلترا في خمسينيات القرن السابع عشر هي أوليفر كرومويل، وهو قروي مهذب بيوريتاني المذهب، وقائد جيش موهوب وسياسي محنك. ولم يكن مفكراً متعمقاً، لكنه كان صارماً في دعواته المنادية بحظر الاختلافات في التعاليم المسيحية. ومن أقواله: «هل أنت منزعج من أن المسيح قام بالتبشير؟»، و«ادعاؤك الخوف

مؤشر خاطئ على خطواتك المضطربة، فأنت مثل رجل احتفظ بالنبيذ خارج البلدة خشية أن يكون الرجال في حالة سكر». في 1653 أصبح أوليفر Oliver حامي الرب في الكومنولث في إنجلترا وإسكتلندا وإيرلندا. وتم استدعاء البرلمان، لكن أوليفر كرومويل وجده غير متعاون ونبذه، والتمس تشكيل حكومة جديدة في نهاية عام 1660، عندما خرج أحد الجيوش من إسكتلندا واستولى على لندن، ودعا تشارلز الثاني إلى العودة من المنفى، وهو ابن تشارلز الأول الذي تم إعدامه. جُمع الباقون من البرلمان الذي استمر فترة طويلة، وتمت الموافقة على العديد من قراراتهم. وفي فترة ترميم البرلمان وتجديده استمرت الاضطرابات بين السلطة الملكية والحقوق البرلمانية، لكن كلا الطرفين تفهم أنهم يجب أن يعملوا وفق النظام، وأن يقدموا المرشحين في الانتخابات، ويعملوا عبر البرلمان، ويكونوا حلفاء أكثر، فأصبح الأمر أشبه بالأحزاب السياسية الحديثة.

لذا، فقد تشكل استقطاب السياسة الإنجليزية في منتصف القرن السادس عشر عن طريق بزوغ نوع جديد من سلطة التشريعات السياسية هو البرلمان، وكان هذا نظاماً جديداً ظهر بعد الحرب الأهلية.

من بداية عام 1620 وما بعدها، تجادل الإنجليز حول السياسات الدينية منذ بداية ظهور النشرات الإخبارية والعظات والعرائض المطبوعة، فضلاً عن الإجراءات البرلمانية. وأسهمت الطباعة في انتشار وجهات نظر دينية راديكالية radical؛ إذ أصبح حق الناس في التعبير عن هذه الآراء مكفولاً، فرأوا أن المسيح سوف يأتي قريباً. وقد حاول نظام أوليفر كرومويل وبقايا الملكية فرض رقابة على المطبوعات، لكن الطباعة كانت تكنولوجيا بسيطة، ويمكن حملها بسهولة، وبدت خارجة عن سيطرتهم بشكل كبير.

حاول البروتستانتيون الذين يتحكمون في نظام أوليفر كرومويل Oliver Cromwell التضييق على الشعب، فمنعوا المسرحيات والرقص في الكرنفالات الريفية. وكان لدى البروتستانتيين الحق في الظن أن رقص الناس حول مغطس، وهم يحملون لافتات للاحتفال في فصل الربيع، أمر له علاقة بما سبق ظهور المسيحية، لكن حظر هذا التقليد المحبب لم يكسبهم أي أصدقاء، فحاولوا بذل الجهد لاكتساب القبول الشعبي من قبل الكومنولث، وكي يحوزوا الترحيب من جانب البلاط الملكي.

كان الوقت العصيب في روسيا يسمى «فترة الأزمات»، وقد نشأ في بداية القرن السادس عشر، وبدا وقتاً طويلاً من الاضطراب والفراغ السياسيين من عام 1584 إلى 1689، وأثر في قطاع كبير من الناس، كان أقلهم من أهل المدن، وبدت تلك الفترة من أكثر الفترات غموضاً في ملامحها؛ إذ قرر الشعب ألا دفاع آمن ضد الفوضى إلا عن طريق نظام ملكي قوي. وقبل هذه السنين وبعدها، وجد اثنان من الملوك العظام الأُوَل، هما إيفان الرهيب (1533–1584) وبيتر الأكبر (1689–1725)، وكان حكم كل منهما ذا جانب استبدادي وحشي.

لقد أسهم التاريخ الروسي –إبان القرون المبكرة– في أسلوب الحكم الاستبدادي وتحول الروس إلى الديانة اليونانية الأرثوذكسية، وهي إحدى المذاهب المسيحية، وكانوا مبهورين بروعة طقوس الحاشية، وسلطة الأباطرة في القسطنطينية. وبدءاً من تولي إيفان الرهيب السلطة، استعمل الروس اسم القيصر (الإمبراطور)، وقد اشتقت هذه الكلمة من الكلمة اللاتينية: «قيصر». وفي عام 1453، بعد أن قام العثمانيون بفتح القسطنطينية، سيطرت فكرة أن المسيحية الأرثوذكسية الحقة هي في روسيا فقط، وأصبحت موسكو روما الثالثة. ولقد قضى القياصرة العديد من أيامهم في الطقوس الكنسية الرائعة. وأدى خوف الروم الكاثوليك من انتشار الأرثوذكسية، الذي كان قوياً في بولندا، إلى المساهمة في الميل إلى وضع حدود في العلاقات مع بقية أوروبا.

وتوسعت موسكو والبلاد الروسية الأخرى على امتداد النهر، ومن خلال الطرق التجارية التي كانت تربط البلطيق ببحر قزوين والبحر الأسود.

كانت البيئة قاسية، وبها العديد من الغابات، والشتاء طويلاً في الشرق وفي الجنوب؛ لذا كانت في الغابات مراعٍ شاسعة. بدأ أمير موسكو يزيد من سلطاته، بصفته يرأس إمبراطورية منغوليا العظيمة. كان الروس مصممين على أن يخطوا إلى الأمام وألا يواجهوا هذا الخطر مرة أخرى. وفي عام 1552، هزموا خاناتي الكازاني وهو من التتار من بلدة ذات تراث إسلامي، وجزء منها ذو تراث منغولي أيضاً. وأدت حروب التتار اللاحقة إلى السعي نحو توفير الإمدادات اللازمة للجيش، وأصبح هذا أمراً ذا أولوية في الولاية الروسية. وتم تقديم خدمات إقطاعية للنبلاء رفيعي المستوى والمحاربين الشرفاء، ولم تكن هذه الأمور مختلفة

تماماً عن فترة الحكم العثماني؛ فقد كان لديهم الحق في الحصول على الخدمات والمنتجات الزراعية من عدد معين من الفلاحين، في الحالات التي تعود فيها حملات الجيوش وهم على رأسها. ولقد نشأت المشكلة من كون الغابات الروسية والمراعي بعيدة كليّاً عن الزراعة، إذ غادر الفلاحون ممتلكات النبلاء من البويارز boyars إلى الأراضي الشاغرة، وجعلوا للفرسان وضعاً مميزاً بإعطائهم المراعي. وأدت طريقة الحياة شبه البدوية إلى حياة «القوزاق» Cossack المستقلة، وشنت حملة لتقويض المحاربين تحت إشراف قوادهم، مما أعطى فكرة جيدة لجيرانهم من البدو. وقد وفرت الغابات غطاء جيداً لمستوطنات المنشقين على الدين، وتعلم بعض سكان الغابات كيف يمكنهم أن يكسبوا عيشهم عن طريق اصطياد حيوان القاقم والحيوانات الأخرى ذات الفراء. وأصبح هؤلاء الناس جزءاً مهماً في اقتصاد روسيا، وكان من الصعب السيطرة عليهم.

وبحلول عام 1650، حدث تشابك لأنهار سيبيريا على طول الطريق، وصولاً إلى المحيط الهادي، وأصبح توافر الخدمات الإقطاعية أفضل من انعدامها بالنسبة إلى الفلاحين فحسب، ومن ثَمّ غدت روسيا واحدة من أوائل حالات العالم الحديث، مثلها كمثل غرب إفريقيا وسيام والإنكا Incas أيضاً، التي كانت سلطة الشعب فيها هي المصدر الأعظم للثروة والنفوذ. ولقد دعم القياصرة النبلاء من البويارز واضعين قوانين تمنع الفلاحين من مغادرة الممتلكات، وبينما كانت بقايا العبودية تندثر في غرب أوروبا، بدأت عبودية الفلاحين في روسيا، فألزموهم الأرض. واستكملت العملية، عبر وضع مجموعة جديدة من القوانين في 1649. ولم يكن لدى أي من الفلاحين أو أصحاب الأراضي حافز لزيادة الإنتاج. ويقيس هذا مدى دعم السلطة العليا للنبلاء من البويارز، لكن ذلك لم يجعلهم منقادين إلى القياصرة.

سعى إيفان الرهيب إلى مقاومة نبلاء البويار عبر تشكيل لجنة وطنية يكون بها ممثلون من المدن وتجار وقليل من النبلاء، لكن هذا –بداهةً– كان أمراً استبدادياً وخرقاً لسلطة التقاليد، وسابقةً بالنظر إلى البرلمان الإنجليزي أو المجالس الأوروبية الغربية الأخرى. وفي 1564 دفع نبلاء البويارز إيفان للفرار من موسكو، لكنه حشد حلفاءه وعاد.

ولقد قَتَل (إيفان الرابع) العديد من نبلاء البويارز المعادين له، ورسا في مدينة نوفغورود



إيفان الرابع *Ivan VI* الرهيب يستقبل سفيراً دانماركياً في البلاط الملكي، وتم إدخال الزوار من باب خلفي لرؤية القيصر بمظهر الناسك المدهش، محاطاً بصفوف من النبلاء- مكتبة الكونجرس.

Novgorod القديمة التي شك في صداقتها لبولندا، وسحب نصف الولايات الروسية من نبلاء البويارز، وسحب خدمة الإدارة الإقطاعية، وبنى بجيشه مملكة استبدادية، واستخدم إداراته وسياسات الترهيب الأخرى. وأدى هذا إلى إحداث توازن، لكنه لم يقِ إيفان من الموت، فبسبب ضعف ابنه، أصبح نبلاء البويارز هم الممسكين بزمام السلطة.

وعندما مات ابنه لم يكن هناك وريث، فاختار نبلاء البويارز خلفاً للملك، لكنه تحول ضدهم سريعاً. وأسوأ وقت في فتره الأزمات هو ما تبع موت القيصر في عام 1604؛ حين

وافق العديد من نبلاء البويارز على المطالبات التي تشك في وجود «ديميتري المزيف»، الذي قيل إنه ابن أخي إيفان الرهيب، لكنه قتل، فظهر مدعون جدد، وتصاعدت احتجاجات القوزاق والفلاحين. وعندما أصبحت روسيا مهددة من قبل السويديين والبولنديين، دعا نبلاء البويارز وغيرهم إلى الاتحاد، وعقدوا مجلساً وطنياً سنة 1613، واختاروا ميخائيل رومانوف، وحكم خلفاؤه حتى ثورة عام 1917. وهذا ما سيكون علامة على أسوأ فترات الأزمات، لكن ميخائيل وخلفاءه لم يكونوا حكاماً أقوياء، فقد حدث تمرد كبير ضد العبودية والضرائب والفساد عام 1648.

وجرت تعديلات في الطقوس الكنسية جعلت المؤمنين القدامى يرفضون الانصياع لها، فارين إلى الغابات حيث قاموا بتكوين مجتمعات حاول القياصرة قمعها. وفي عامي 1670 و1671 قام القوزاق بثورة، وتم قمعها بصعوبة.

سيطرت العائلات النبيلة من البويارز على بلاط القيصر في موسكو عبر صلاتها بالبيت الحاكم عن طريق المصاهرة، والحرس الذين كانوا جنوداً متخصصين يعملون بدوام كامل مثل الإنكشارية في إسطنبول. وعندما مات القيصر ثيودور Theodore في عام 1682، ولم يكن له وريث، تدخل الحرس، وطالبوا بأن يسمى الولدان المراهقان إيفان وبيتر مساعدين للقيصر، لكن السلطة الحقيقية في البلاط الملكي كانت في يد أخت إيفان، وبيتر الواعد الذي اضطر للبقاء بعيداً عن البلاط الملكي حتى عام 1689، عندما قام النبلاء والضباط الأجانب بانقلاب ضد أخت إيفان، وأعطوا السلطة كاملة لبيتر. وقد أبدى بيتر اهتمامه بالعالم الخارجي، ورغبته في أن تصبح مملكته على اتصال به.

استمر حكم بيتر العظيم حتى عام 1725، وفرض العديد من التغييرات على جميع المستويات، مما فتح روسيا على أحدث الأفكار التكنولوجية في أوروبا، وجعلها تشارك بشكل أساسي في صراع القوى في أوروبا.

الفصل السابع

نحو بدايةِ العالم الحديث
1700 - 1670

في عام 1528، أخذ كابيزا دي فاكا Cabeza de Vaca، بتجسيده التحولات السريعة التي عرفها المجتمع الأمريكي الإسباني؛ يشاهد الصيادين وجامعي الطرائد في ساحل تكساس، يقومون بمزاولة واحدة من أقدم سبل العيش التي عرفتها البشرية. وبحلول عام 1700، لم يرد تقريباً ذكر تلك الشعوب وشعب الكارانكاوا Karankawa وغيرها؛ في السجلات التاريخية، كما خلفت الأمراض التي حملها الإسبان معهم نسباً مفزعة من الخسائر في الأرواح، في حين تعرض بقيتهم للاختفاء في المناطق الحدودية الشمالية الإسبانية، المعروفة آنذاك بمجتمع الكريول Creole. ومع قدوم عام 1700، لم تتبق شعوب عديدة في العالم لم تتغير حياة أفرادها جذرياً؛ نتيجة التفاعل والتبادل فيما بينها، وشمل ذلك شعوب بعض المناطق مثل أستراليا وغينيا الجديدة وماوري Maori في نيوزيلندا وشعوب هاواي وغيرها في جزر المحيط الهادئ. وبحلول عام 1700، حقق فرسان المانشو انتصارات عظيمة في أراضي منغوليا النائية، وأنشأ حرس الحدود الروس محطات لتجارة الفراء على امتداد الطريق المؤدية للمحيط الهادئ، كما سلك تجار الفراء الأوروبيون وحلفاؤهم الأمريكيون الأصليون الأنهار عبر سهول أمريكا الشمالية.

فتحت هذه الطرق الجديدة عالماً أكبر في أذهان الناس؛ فقد رسم اليسوعيون خريطة دقيقة للعالم، لحساب الإمبراطور كانجيكسي Kangxi، وقام رجل ثري من أمستردام يدعى نيكولاس ويتسن Nicolas Witsen بجمع المصادر حول التقدم الروسي في آسيا، ووضعت خريطة تفصيلية لسيبيريا. وقد دفع هذا العالم المتسع الذي سيطرت عليه القوى الأوروبية بعض المسلمين إلى التصميم على الدفاع عن عقيدتهم، ويظهر ذلك في قيام أورنجزيب بمنع الممارسات الأكثر تسامحاً التي تبناها أجداده المغول، في حين جعل هذا التوسع الأوروبي فئات أخرى، وتحديداً في إسطنبول، تدرك بقلق ضرورة الرد بطريقة أو

أخرى على مهارات الأوروبيين وقوتهم. ولم تكن تلك المهارات والقوى الجديدة على الخرائط فحسب، وإنما في عقول الناس. وليس الأمر محصوراً في العقول العظيمة مثل إسحق نيوتن Isaac Newton، وإنما في عقول هؤلاء الناس الذين كانوا يقرؤون الكتب والأسفار والتفسيرات المبسطة للأفكار العلمية الجديدة والحجج حول التسامح الديني بعد قرون من الحرب العقائدية. وقد استطاع الكتاب الصينيون –الذين تناولوا المشاكل العملية التي واجهت حكوماتهم، وكذلك الكتاب اليابانيون الذين دونوا أدلة إرشادية عن مدنهم السريعة النمو– تغيير قيم الشعوب وإدراكهم للعالم. وبحلول 1700، كان عالمنا المعاصر –المترابط بالفعل– قد بدأ في التبلور في ظل أولى اتجاهات «العصر الحديث»؛ التي لم يقتصر ظهورها على أوروبا فقط، وإنما في أجزاء أخرى كثيرة من العالم أيضاً.

وفي بداية القرن الحادي والعشرين، شكلت روسيا والصين أكبر رقعتين في العالم تضمان أطيافاً متنوعة من البشر والبيئات والتضاريس والثقافات والأديان. فقد أخذت كلتاهما في التوسع نحو حدودهما البرية الحالية في الفترة ما بين عامي 1600 و 1700. وكان تقدم روسيا التي تمتد مساحتها اليوم لتشمل إحدى عشرة منطقةً زمنية هو الأكثر إثارة على وجه الخصوص. فقد كانت البقعة الشاغرة الهائلة من الغابات الباردة والتندرا، التي نطلق عليها سيبيريا Siberia واسمها مأخوذ من سيبير Sibir؛ إحدى عواصم الدول التي خلفتها القبيلة الذهبية المغولية Mongol Golden Horde وتقع بالقرب من مدينة توبولسك Tobolsk الحديثة ناحية الشرق من جبال الأورال Ural Mountains. فقد افتتح الغزو الروسي لتتار خان قازان Tatar Khanate of Kazan في عام 1552 الطريق لحركة التوسع السريع، متجاوزاً منطقة الأورال Urals، وهو الأمر الذي لم يتوقعه حكام موسكو مطلقاً في منطقة لم يحكموا زمام سلطتهم عليها. وقد مثل القوزاق Cossacks العوامل الأساسية للغزو؛ كما كان هناك أيضاً المنشقون الدينيون الفارون من القمع والرهبان الساعون إلى العزلة عن العالم المليء بالتجاوزات والآثام، والفلاحون الهاربون من العبودية، الذين انعدمت لديهم الرغبة في أي علاقة مع الدولة الروسية، وحتى بعض السجناء السياسيين الذين أرسلتهم الدولة القيصرية إلى الحدود، كما أرسل الكثير منهم إلى سيبيريا Siberia في القرنين التاسع عشر والعشرين.

وتحت قيادة يرمك Yermak، قام القوزاق Cossacks بغزو سيبير في عام 1581، وأكملوا سيطرتهم على المناطق المحيطة عام 1598. وانطلقوا عاماً بعد الآخر متتبعين فروع الأنهار العظيمة، التي تصب في اتجاه المحيط المتجمد الشمالي Arctic Ocean؛ حيث أقاموا الحصون عند التقاطعات الرئيسية ونقاط نقل السلع من نهرٍ إلى آخر، فيما يشبه تجار الفراء داخل أمريكا الشمالية ولكن في قارة أكبر عدة مرات من جانب المساحة والمناخ الأشد قسوة من مينيسوتا Minnesota أو مانيتوبا Manitoba الحديثتين. وقد حصد السكان الأصليون بعض المحاصيل في فصل الصيف القصير، وساقوا قطعان الأيائل، وقاموا باصطيادها ونصبوا الفخاخ في الغابات الكبرى. كما نصبوا بعض الفخاخ كذلك لاصطياد أفضل حيوانات الفراء في العالم، ومنها السمور وفرو القاقم، حيث اعتادوا منذ زمن طويل تداول الفراء بالسلع الغذائية، والأدوات المعدنية وأكثر من ذلك بكثير، أو تقديم أنفس الفراء تقرباً للأسياد من خارج مناطقهم، مثل خانات سيبير Khans of Sibir، ومختلف الحكام من السهول المنغولية Mongolian ناحية الجنوب.

وقد واجهت المسيحية الروسية مجموعات دينية متنافسة بين شعوب سيبيريا. وكانت بعض الشعوب السيبيرية تدين بالإسلام. وقد تحول شعب البورياتس Buryats إلى البوذية التبتية، التي أصبحت ذات تأثير كبير بين المغول. واستفادت الدولة الروسية بشكل كبير من السيطرة على تجارة الفراء الخارجة من سيبيريا إلى أسواق أوروبا، وفي سنوات القرن السابع عشر، بدأت تجارة الفراء الجديدة إلى الصين. وقد أدرج القياصرة بعض القوزاق على قوائم أجورهم، وأرسلوا مسؤولين رسميين إلى قيادة الحاميات ذات الحصون الصغيرة.

وخلال أربعينيات القرن السابع عشر، سمع مستوطنون في قاعدة أمامية متجمدة –يطلق عليها ياكوتسك Yakutsk وتقع على نهر لينا Lena River؛ حيث لا تصلح زراعة الحبوب– عن مناطق لزراعة الحبوب بامتداد ضفة نهر آمور Amur River ناحية الجنوب. واعتقدوا –عندها– أن من الرائع مزاولة أعمال التجارة هناك وشراء الحبوب. وكانت أولى الحملات التي قاموا بها عام 1643 بمثابة الكارثة، فقد انتهت بقيام القوزاق بأعمال نهب وسلب للمدن الداخلية بحثاً عن الطعام، وقد ذكرت التقارير بأنهم قد أكلوا الأسرى

ومواطنيهم القوزاق. وبالطبع لم تختلف الحملات التالية في وحشيتها، إلا أنها أدت إلى تسوية الأمور مع الروس في ألبيزاين Albazin على نهر الآمور.

تعامل بعض من رجال الحدود هؤلاء، الذين يقدر عددهم بالمئات، والموجودون على مسافة تبعد عن موسكو براً ما يساوي ثلث مساحة الطريق حول الأرض، كما لو كانوا يتعاملون مع أعداد صغيرة من الصيادين ورعاة قطعان الأيائل. وفي الواقع، تعثروا على الضفاف الشمالية لموطن شعب المانشو، الذين كانوا في خمسينيات القرن السابع عشر في آخر مراحل غزوهم المذهل لبقاع الصين كافة. كانت هذه البقعة، التي تمثل الآن المقاطعات الشمالية الشرقية من جمهورية الصين الشعبية، أرضاً سهلية متنوعة الموارد؛ حيث من الممكن زراعة المحاصيل ورعاية القطعان، كما توجد الجبال والغابات المملثة بالحيوانات ذات الفراء وغيرها من حيوانات الصيد كما أنها تعتبر المصدر الرئيسي في العالم لجذور الجينسنغ الطبية، وكذلك الأنهار المليئة بالأسماك. وقد استفاد الحكام المختلفون من هذه المنطقة لفترات طويلة، بما فيها من ثروات وتجارة مع كل من كوريا والصين. وتولى اثنان من شعوب هذه المنطقة، وهما خيطان Khitan وجورشن Jurchen؛ حكم سهل شمال الصين كله من عام 1000 حتى عام 1230، أو أجزاء منه، وظهر منهم بعض من أقدر وزراء الإمبراطورية المغولية العظمى.

قام المانشو بإعادة تنظيم هائل لأجزاء كبيرة من موطن شعب الجورشن Jurchen، وأحكموا سيطرتهم على الكثير من هذه الأراضي، وهم على دراية بكيفية التعامل مع الشعوب المتصلة بهم على الحدود، بيد أنهم لم يكونوا مستعدين أو مؤهلين للتسامح مع التعدي على هذه الحدود من جانب مئات الهمجيين القادمين من شمال المنطقة المتجمدة. لذا صنعوا الزوارق للقيام بحملة على الأنهار وإخلاء السكان المحليين، حتى لا يجد القوزاق من يسرقونه؛ كما أخرجوا الروس من نهر الآمور عام 1658. ومع ذلك بدأ القوزاق المطرودون في التسلل مرة أخرى إلى داخل البلاد عام 1665، وفي سبعينيات القرن السابع عشر، كانت شعوب المانشو تحارب دفاعاً عن حياتها ضد المتمردين في الصين. ومنذ عام 1681 فصاعداً، وعند ضمانهم البقاء في الصين على قيد الحياة، عادوا مرة أخرى إلى الحدود الشمالية الشرقية، وخططوا بدقة، وبنوا مخازن الحبوب لقواتهم

الخاصة، وقاموا بإجلاء بعض السكان المحليين وطالبوا الروس بالانسحاب والخروج من البلاد.

حاولت موسكو إرسال تعزيزات، لكنها لم تستطع السيطرة على جماعات الهمجيين في أراضيها من تلك المسافة البعيدة. وفي عام 1685، قام ثلاثة آلاف جندي من المانشو الذين سموا بـ «ألبازين» بمحاصرة الروس وإجبارهم على الاستسلام مرة أخرى. وتسللت مرة أخرى بعض مجموعات الروس، وقاموا بحصار آخر في عام 1686، مما جعل موسكو وبكين تصممان على السيطرة على الوضع والاتفاق على تسوية سلمية؛ وقد التقى مبعوثو موسكو والصين عام 1689 في نيرتشينسك Nerchinsk، وتم التوقيع على معاهدة لترسيم الحدود، وتطلب الأمر تدمير ألبازين، واتخاذ الإجراءات اللازمة لمزاولة التبادل التجاري السلمي.

وقد أظهر حكام شعب الكنج Qing، بقيادة الإمبراطور الشاب البارز كانغزي Kangxi، قدرة أكبر بكثير في التنظيم والتخطيط ضد خصومهم الروس. ويرجع ذلك إلى ابتعاد الروس وقتها عن عاصمتهم فضلاً عن أن معظم مرات وجودهم كانت نتيجة اختراقهم الحدود بطريقة غير قانونية. ومع ذلك اعتمد شعب الكنج على التقاليد البيروقراطية والوثائقية للصين والموهبة الآسيوية اللازمة لبناء دولة وشعب جديدين، التي اتصف بها شعوب المانشو في مستهل القرن السابع عشر. إذ لا يمكن تجاهل التهديد الذي واجهته أراضي شعوب المانشو. كما أدرك كل من شعب المانشو والروس ضرورة المحافظة على السلام مع بعضهما، حتى لا تواجه شعوب المانشو جيوش الروس المتحالفة مع قوات فرسان شعوب المغول، أو العكس.

انضم بعض المغول بالفعل إلى كيان إمبراطور الكنج، الذي يضم حينئذ وحدات سلاح الفرسان والمسؤولين المغول. وقد كانت جدة الإمبراطور كانجكزي تمتاز بحدة الذكاء والقوة، ودُعيت الإمبراطورة الأرملة «إكسياوزونج» Xiaozhuang، وكانت من عائلة الإمبراطور المغولي جنكيز Chinggis. وفي ثمانينيات القرن السابع عشر، أخذت العلاقة القائمة بين شعوب الكنج والمغول منعطفاً خطيراً للغاية. وكان جالدان Galdan حاكم المجموعة الغربية للمغول، التي تسمى أويراد Oirad؛ زعيماً عسكرياً بارعاً، تلقى

تعليماً رفيعاً حول عقيدة البوذية التبتية على يد الدالاي لاما Dalai Lama الخامس. هاجم جالدان حلفاء شعوب الكنج من المغول في ثمانينيات القرن السابع عشر، وبحلول عام 1690 كان قد وصل إلى شرق منغوليا كما وصل به الأمر إلى أن يهدد بكين نفسها. وفي عام 1690، أخفقت إدارة حملة إمبراطور الكنج في السهول. ولكن في عام 1697، قاد الإمبراطور بنفسه حملة أكثر ضراوة، وقامت جيوشه بمطاردة جالدان Galdan وقتله.

واصلت شعوب أويرادس معارضة الكنج تحت قيادة آخرين، لكن انخراط شعوب الكنج في الشمال والشمال الغربي وجميع البقاع لفترة طويلة كان امتداداً لسيطرتهم التي تجاوزت الحدود الشمالية الغربية الحالية لجمهورية الصين. وكانت شعوب الكنج قد أحكمت سيطرتها على هذه المنطقة الشاسعة؛ وهي تسمى حالياً بمنطقة شينجيانغ Xinjiang، وقامت بتنميتها جزئياً بإرسال السجناء السياسيين إلى مزرعة السجن واستغلال السجناء المتعلمين كمسؤولين محليين، مثلما فعل الروس في سيبيريا. وبالنسبة إلى المجتمع المحلي، فكان، على العكس من سيبيريا، مجتمعاً متعلماً ومتحضراً ويحظى بالعديد من الارتباطات الثقافية المتعددة، وبخاصة مع العالم الإسلامي.

تظهر الخريطة الكاملة لما شهده العالم خلال أواخر القرن السابع عشر تلك التغيرات في المناطق الداخلية القارية في آسيا، ولكن ليس بنفس سيناريو اكتشاف الأوروبيين أو غيرهم لبقاع جديدة عن طريق البحر. شاهد الرحالة الإنجليز والهولنديون -عبر البحر- أجزاء من ساحل أستراليا، لكنهم لم يجدوا أي سبب يدفعهم إلى البقاء أو العودة إلى هذه المناطق. لقد واصلت سفن مانيلا الإسبانية Spanish Manila رحلاتها السنوية ذهاباً وإياباً عبر المحيط الهادي، وبقدر ما نعلم، لم يتمكنوا من اكتشاف جزر هاواي كما لم تكتمل معرفتهم بشمال سواحل المحيط الهادئ حتى طرف ولاية باجا كاليفورنيا. كما أن ازدياد المعرفة بالمناطق الداخلية من القارات الكبرى اعتمد على الأخبار التي كان مصدرها القوزاق، وكوريرز دو بيوس coureurs de bois، والكشافة البرتغاليون الذين أسهموا في نشرها وتنقيتها ببطء، وتقديمها إلى كتاب التقارير ورسامي الخرائط.

ولذلك إذا أردنا تتبع ما حدث من تغييرات من خلال مسارات تدفق البضائع والشعوب عبر المحيطات في أواخر سنوات القرن السابع عشر، يجب أن نلحظ تزايد

الاستيطان الطوعي للصينيين في جنوب شرق آسيا والهجرة غير الطوعية للأفارقة باتجاه العالم الجديد. وكان من بين البضائع التي تم نقلها عبر رحلات بحرية طويلة، السكر والتبغ البرازيلي وسكر جزر الهند الغربية والحبوب والأخشاب من أمريكا الشمالية والقطن والأقمشة الحريرية الهندية. في ذلك الوقت، بدأ الأوروبيون في تذوق الشاي القادم من الصين والقهوة من اليمن. ولم تشهد طرق التجارة الآسيوية الداخلية الشهيرة، التي نطلق عليها اسم طريق الحرير، أي تقدم بل تعرضت للتهديد من آن إلى آخر، نتيجة الاضطرابات التي خلفها الزحف الروسي داخل آسيا، وكذلك أصبحت الطرق في ظل حكم كل من الإمبراطورية المنغولية والصفويين والعثمانيين أقل أماناً لعبور قوافل التجار.

وفي آخر سنوات القرن السابع عشر، كانت مدينة إيدو (طوكيو الآن) أكثر المدن حداثة وأمناً. وعلى الجانب الأخر، لم تكن إسطنبول مدينة حديثة، لكنها ظلت مثاراً للإعجاب بسبب مبانيها الرائعة وأسواقها التجارية الغنية بالبضائع وتنوع شعبها وتعدد الديانات فيها. برزت كل من دلهي؛ عاصمة المغول، وأصفهان في إيران، كمدينتين حديثتين اشتركتا في تبني المفاهيم الإسلامية للحكم وتوفير الأمان لغير المسلمين. وقد اكتسبت أمستردام الثروة والسلطة لكونها أحد أكبر المراكز التجارية، التي تستقبل البضائع من مختلف أنحاء العالم.

وبحلول عام 1700، كانت أمستردام ولا تزال مركزاً مزدهراً للتجارة والتمويل، وينبغي ألا ننسى أن المركز التجاري الأسرع نمواً هو مدينة لندن. تعمل جميع هذه المدن إلى حد ما كموانئ تجارية؛ وأكثرها إسطنبول، وذلك بسبب موقعها على مفترق طرق، أما إيدو Edo فمعروفة بتجارتها داخل اليابان فقط، نظراً للقيود المشددة على الاتصال الخارجي. وكانت بكين عاصمة لواحدة من أكثر الدول تطوراً ونجاحاً في ذلك الوقت، ومركزاً تجارياً من جهة الحدود الشمالية وجنوب الصين المزدهر، إلى جانب المدن الجنوبية مثل سوجو Suzhou التي لاتزال حتى اليوم وجهة سياحية عظيمة بالقرب من شنغهاي، وقد بنيت بها الحدائق المسورة، التي يمتلكها الأغنياء، وبها السفوح الرائعة أيضاً، التي تجمع بين الهدوء والجمال في المناطق الريفية، حيث كانت مقصداً لأصدقائهم، في حين توجد خارج بوابات هذه الحدائق حياة صاخبة تعج بالحيوية، فهي بالفعل مدينة تجارية

كبيرة، أضف إلى ذلك ورش العمل الكبرى المختصة في الأقمشة الحريرية، وما في هذه الحياة العملية من متاعب وضجيج في بعض الأحيان.

لكن تلك المدن لم تكن تفرض سيطرتها وهيمنتها في ذلك العالم الحديث مثلما هي الحال الآن. ففي أواخر سنوات القرن السابع عشر، انشغل معظم الناس بالزراعة ولم يسافروا أكثر من 10 أميال بعيداً عن منازلهم. فضلاً عن أن المنتجات التكنولوجية قد طُورت وعُدلت لتفي بمطالب الأسواق الجديدة، لكن دون أن تتصل بالتغييرات التي بدأت تصبغ إدراك الإنسان للطبيعة.

كان كوبرنيكوس Copernicus وجاليليو ونيوتن من أشهر العلماء، في الفترة ما بين عامي 1500 و1700، وهم الذين وضعوا أسس الدور المحوري للعلوم والتكنولوجيا، التي اعتمد عليها العلم الحديث في عالمنا المعاصر. وتشير عبارة ثورة كوبرنيكوس Copernican Revolution إلى تغيير الصورة التقليدية للشمس والقمر والكواكب والنجوم التي تسير في مدارات نموذجية حول الأرض، إلى تلك الصورة التي تبرز سير الأرض والكواكب الأخرى في مدار حول الشمس، ودوران القمر حول الأرض، وهي الصورة التي وجدها المدافعون عن التقاليد المسيحية مخالفة في أساسها لتصورهم الخاص عن السموات الخالدة فوق الأرض، والجحيم أسفلها. وهكذا فإن عبارة ثورة كوبرنيكوس غالباً ما تستخدم كتعبير مجازي يشير إلى الثورات العلمية التي تتحدى التقاليد آنذاك أو لاحقاً. إن ثورة كوبرنيكوس العلمية، التي كانت جزءاً من «الثورة العلمية» الأوسع نطاقاً من حيث التأثير، والتي وقعت أحداثهما في أوروبا، وأصبحت في القرون الأخيرة ظاهرة عالمية، لهي نتاج للتواصل والتفاعل على المستوى العالمي، السابقين لعام 1700. وقد حافظ العالم الإسلامي على المعارف والعلوم اليونانية الكلاسيكية حول الطبيعة والسماء، وأضاف إليها الكثير من التعليقات والملاحظات الفلكية، التي انتقلت كلها إلى أوروبا المسيحية.

وفي العالم الرحب الذي تم اكتشافه عن طريق الرحلات البحرية عبر المحيطين الأطلسي والهندي، وجد الأوروبيون في كل مكان أناساً يعرفون بيئتهم المحلية جيداً، فحتى تلك الشعوب التي تقطن البيئة البدائية مثل شعب الكارانكاوا في ولاية تكساس، والعديد مدونوا ملاحظاتهم الفلكية، وقوائم للنباتات الطبية وأكثر من ذلك بكثير،

تميزوا بالدقة والاهتمام كما اتصف الأوروبيون. وقد قام العلماء في روما بدراسة كتب الأعشاب الطبية التي خلفها شعب الأزتك زهاء عام 1600. وفي أجزاء كثيرة من العالم، شاهد الأوروبيون براعة الشعوب وإبداعها في إنتاج السلع الجيدة، ووفرة العمالة التي تماثل إجراءاتها المتقنة في مجال التعدين والتكرير ومحطات ضخ المياه في الصين وإنتاج المنسوجات الأجود صنعاً، كمثيلاتها الأوروبية في كل من الهند والصين. لكن التواصل انعدم تقريباً بين العلماء مثل كوبرنيكوس ونيوتن، لمتابعة الحقائق الراسخة حول الطبيعة وعالم الإبداع والإنتاج العملي في أي مكان، بما في ذلك أوروبا، حتى ما بعد عام 1700. ويمكن اعتبار تطبيق المعرفة الفلكية في الملاحة عبر المحيطات حالة استثنائية نادرة.

وقد قدم الفلكي البولندي نيكولاس كوبرنيكوس تحديه لوجهة النظر التقليدية للكون، باعتباره محاولة محدودة لتنقية وجهة النظر التقليدية واستكمالها، لكنها لم تلق سوى استجابة محدودة. بيد أن سيلاً تراكمياً ومطرداً من الملاحظات والمتابعات التي لا تتلاءم مع الصورة التقليدية كان قد بدأ، وتبنى تطويره تايكو براهي؛ الفلكي الدانمركي Danish، الذي بنى له ملك بلاده أفضل مرصد فلكي في أوروبا، إلى جانب جهود يوهانس كبلر Johannes Kepler؛ المنظر الألماني، الذي ورث من براهي Brahe أكواماً من البيانات الدقيقة. وأسهمت ملاحظات المراقبة المتراكمة مع العمليات الحسابية الأكثر دقة من أي وقت مضى حول المدارات، في الوصول إلى نتائج لا يمكن أن تنسجم ببساطة مع النظرية التقليدية.

وكان غاليليو غاليلي Galileo Galilei عضواً في دائرة المحققين العلمية في روما، التي كانت تدعى «أكاديمية النظرة الحاذقة» The Academy of the Lynx-Eyed»، والتي حدا الأمل أعضاءها أنهم سيصبحون من أصحاب البصر الحاد مثل الوشق. ولقد شجع الأعضاء بعضهم في تبني الملاحظة الحاذقة بجميع صورها. كما كتب غاليليو باللغة الإيطالية – وهي لغة مفهومة أكثر من اللغة اللاتينية لدى عامة الشعب – شرحاً رائعاً للصورة الجديدة للكون. لقد ركز على الملاحظات السابقة حول كيفية صنع التلسكوب، وبالفعل قام بصنع أحدها بنفسه، مما أُعتبر اختراقاً للحاجز بين العلوم البحتة والصناعة. فقد رأى الأشياء التي لا يمكن أن تناسب الصورة التقليدية والمثالية وغير القابلة للتغيير

للجبال والسماوات على سطح القمر، والنقاط المتحركة على الشمس، والأقمار الأربعة التي تدور حول كوكب المشتري Jupiter. وتملق في تقريره عائلة ميديتيشي في فلورنسا، التي عينته عالم فلك وفيلسوفاً في بلاطها، بأن أطلق على هذه الأقمار الأربعة اسم «أقمار ميديتشي»، وقد قام أفراد العائلة بتوزيع كتاباته والتلسكوبات من خلال علاقاتهم الدبلوماسية. لكن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية Roman Catholic Church أجبرت غاليليو في عام 1632، على التبرؤ من الاستنتاجات التي توصل إليها كوبرنيكوس في كتاباته. وفي المحاكمة أكد لهم بقوله: «لكنها تتحرك»، مما جعلهم يحكمون عليه بالإقامة الجبرية في منزله مدى الحياة.

حظي كل تقليد من التقاليد العظيمة بأساليبه في مقاومة التغير ومعاقبة المبدعين. وكانت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في تلك الفترة – وقد صممت على عدم تغيير ما تبعه من إجراءات لقمع المعارضة من خلال النضال الطويل ضد البروتستانتية– متفردة في صرامة جهودها المركزية والتشريعية للدفاع عن تقاليدها. (قد نتساءل ما إذا كان الإسلام –في المدى الأوسع– أكثر تسامحاً مع المعارضة، عبر تركه مجالاً أوسع لتصرفات الفرد المؤمن، وإعطائه الكثير من الفرص في تفسير القرآن الكريم Quran، أوالذهاب إلى الحج في مكة). بالفعل رأى أعضاء أكاديمية النظرة الحاذقة أنفسهم مدافعين عن الأدلة التي تدركها الحواس ضد العقائدية dogmatism التقليدية، التي لا تعير أي اهتمام لما حولها.

وقد تمت ترجمة كتابات غاليليو وإعادة نشرها في أنحاء أوروبا والعديد من المراكز إلى لغات عديدة، مما جعل منه عالماً شهيراً، والصدمة التي أحدثتها إدانته أقنعت العديد أنه لا بد للعلم والعقل أن يتمسكا بموقفهما، وأن لا يلجآ إلى التقاليد الصارمة والفكر المتعصب. وقد اجتمع في ظل هذا المشهد الدرامي ظهور الطباعة، وتأسيس الأكاديميات، التي يجتمع تحت لوائها المؤمنون بفكر واحد، وقيام رجال البلاط برعاية الفن والعلم في عالم أوروبا المتعدد المراكز، وصناعة الأدوات العلمية، والولع بالتميز في علم الحساب، والشعور بثقل وطأة قمع الكنيسة لأي فكرة جديدة تظهر على السطح.

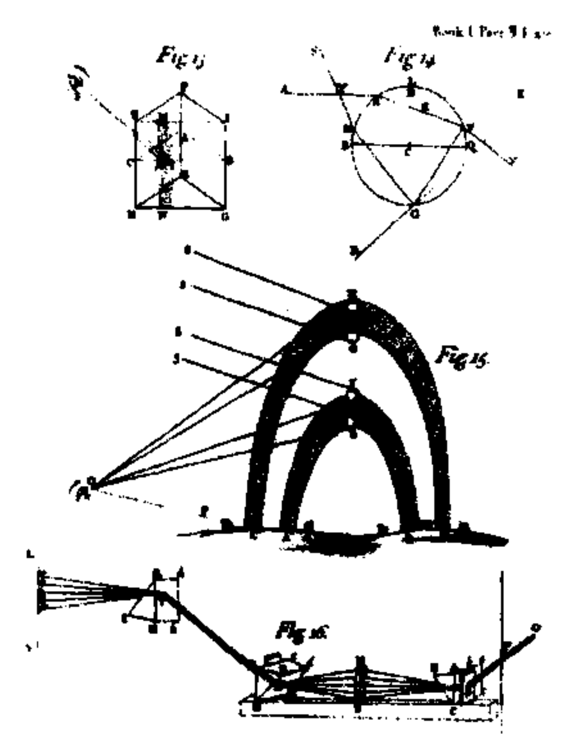
كانت الرغبة في فهم نظرية الأرض والشمس والقمر والنجوم موجودة في جميع الحضارات. وقد حرصت الحضارة الصينية على الاحتفاظ بتقويم دقيق وتوقع لموعدي

الكسوف والخسوف، كما اهتمت بصورة كبيرة بالأساليب الجديدة التي جاء بها المبشرون اليسوعيون Jesuit. وإذا تطلعنا إلى القرن الثامن عشر، فسنرى حجم الاهتمام بالنتائج الفلكية الجديدة التي توصل إليها الفلكيون في اليابان، والهندوس في الهند. ويبدو أن كوبرنيكوس نفسه قد نهل من الجداول الزمنية والتفسيرات الجديدة لملاحظات العلماء المسلمين، بما في ذلك ملاحظات أولوغ بيج في سمرقند. ولم تخل إسطنبول من مرصد فلكي مماثل تماماً لمرصد «تايكو براهي» في الوقت نفسه تقريباً، في سبعينيات القرن السادس عشر. شهد هذا الحدث نهاية فترة الحكم الطويلة للخليفة العثماني «سليمان» القانوني، الذي سن القوانين والتشريعات، وعزز أسس المذهب السني. لكن سرعان ما هُدم المرصد نتيجة القتال بين الفصائل في البلاط العثماني، وتوجيه الانتقادات إلى القيادات الدينية التي صرفت اهتمامها إلى تعلم العلوم غير الدينية، متبعةً منهجاً يقترب كثيراً من علم التنجيم. واجهت أوروبا المسيحية معارضة مماثلة لتعلم العلوم الجديدة، ولكن مع ظهور الكثير من مراكز القوى المستقلة، برز بقوة مصدر جديد لرعاية علماء الفلك ودعمهم كما حدث في الدنمارك مع العالم «براهي»، وفي فلورنسا مع العالم «غاليليو»، وفي لندن مع العالم «نيوتن»، وغيرهم كثير.

امتلك كبلر إحساساً حاداً بالمسارات البيضاوية للكواكب، لكنه لم يتمكن من إتقان علم الحساب، الذي كان علماً ضرورياً للغاية لاستكمال جمع الملاحظات الدقيقة والنظريات الرياضية للكون والفلك، التي من شأنها أن تجعل الرؤية الجديدة دامغة ومؤكدة. قام إسحق نيوتن بالعمليات الحسابية اللازمة، ويعتبر كتابه عن المبادئ الحسابية للفلسفة الطبيعية، المكتوب باللاتينية Principia وقد نشر باللغة الإنجليزية عام 1687، قمة الانتصار للبحث والسعي الجادين اللذين بدأهما كوبرنيكوس. ويعتبر نيوتن نتاج نظريات عالم اتسم بنظرة تشبه كثيراً نظرة علماء العصر الحديث، مما جعله يسبق كبلر وجاليليو. وقد أسهمت أستاذيته في جامعة كامبريدج، حيث لم تدرس الكثير من مناهج العلوم، كثيراً وعادت بفائدة إعطائه الوقت والأمان للتفكير في بعض المشكلات الكبيرة.

وشهد عصره نشر عدد من المجلات العلمية بصورة دورية ومنتظمة، إذ نشرت إحدى هذه الدوريات في فرنسا وأخرى في انجلترا؛ وقد ضمت كل من باريس ولندن

أوساط المهتمين بالبحث والتحقيق حول حقيقة هذا العالم وطبيعته، كما جمعتهم هذه اللقاءات لسماع ورقات العمل وما تم التوصل إليه من استنتاجات عن الاكتشافات الجديدة وتفسيراتها ومشاهدة تطبيق التجارب عملياً. وقدم نيوتن بحثاً مهماً جداً في علم البصريات في الجمعية الملكية Royal Society، لكنه اتسم بحساسية شديدة تجاه النقد والطروحات والردود عبر هذه الاجتماعات. وقد نُشر عمله العظيم، على الرغم مما ساوره من الشكوك الكثيرة والتردد بسبب قيام عالم أصغر منه وهو «إدموند هالي Edmund Halley»؛ وقد تميز بالاجتهاد والعطاء، بتنقيحه وتحريره بعد حصوله على دعم من الجمعية الملكية. وبمجرد صدور الكتاب، انتشرت الملخصات والاستعراضات حوله في المجلات الفكرية والعلمية، وعززت مكانته وتأثيره، كما وجد غيره من الكتاب



توضح هذه اللوحة من كتابه المعنون «أوبتكس *Opticks*» لعام (1704)؛ انحراف الضوء من خلال مجموعة من الأشكال الموشورية وأقواس قزح. مكتبة الكونغرس، إل.سي – يو.إس.زد 62 – *Library of Congress, 95334*
LC-USZ62-95334

قنوات ملائمة لعرض نتائجهم الحسابية المركبة في وسائل تيسر للناس فهمها بشكل أكبر.

هذه هي قصة «بداية العصر الحديث»، ومن السهل بالتأكيد أن نبرز إنجازات العصر «الحديث» وننسى «بداياته الأولى». ولقد اهتم نيوتن نفسه وأظهر شغفاً كبيراً بمجال الكيمياء وبالفروع الروحانية للمسيحية. وتساعد المخططات والرسوم الجميلة لأعمال نيوتن القارئ على فهم عقليته الحسابية.

وخلال سنوات القرن الثامن عشر، رفض كثير من الناس نظريات نيوتن. وقد أسهمت المدارس التي تدرس بعض أساسيات هذا العلم الجديد في ابتكار قواعد التكنولوجيا وأسسها خلال سنوات القرن الثامن عشر، مثل المحركات البخارية الأولى، لكن الصلة بين العلم والتكنولوجيا كانت أقل بكثير مما أصبحت عليه في سنوات القرن التاسع عشر. أصبح نيوتن وجاذبية فكره جزءاً من ثقافة جديدة قائمة على عقد الآمال حول العلوم، والملاحظات، وانتقاد التقاليد. كما لم يتم تأسيس العلوم في الجامعات والمختبرات والمعامل إلا في سنوات القرن التاسع عشر. وقد أراد بعض المؤرخين استخدام عبارة «الثورة العلمية» فقط من أجل الإشارة إلى التطورات التي وقعت خلال سنوات القرن التاسع عشر. ولكن، لاشك أن من الصواب أن نشير إلى حدوث بعض المستجدات المبدئية بحلول عام 1700 ولاسيما من ناحية التغيير التي خلفتها نظرية كوبرنيكوس المتعلقة بمكان الإنسان في هذا الكون، وما طُرح من نقاش حول ذلك في الجمعيات والمجلات التي شكلت البذرة الأساسية للسعي المستمر للباحثين، الذي يمثل العصب الرئيسي للعلم.

شاهد إسحق نيوتن ثورة علمية أخرى من بعيد، ويمكننا التأكد عبرها من الأهمية الحاسمة للطبيعة المتعددة المحاور للسياسة الأوروبية والطباعة والفكر العام في هذه السياقات الأوروبية. ومرة أخرى، ترجع أهمية القصة بالنسبة إلينا؛ لأنها تبرز بداية ما حدث من تطورات، وكذلك تعتبر النظريات الديمقراطية السياسية أجزاء مهمة من تاريخ أرجاء العالم كافة في عصرنا هذا. ففي عام 1688 انتهت سياسة الاستقطاب الخطيرة لإنجلترا في القرن السابع عشر–التي دفع ملك رأسه ثمناً لها، إلى جانب العديد من الجنود والمدنيين الذين لقوا حتفهم في الحرب الأهلية البغيضة– إلى قرار مثير للدهشة، يتمثل في ما نطلق عليه الثورة المجيدة، لا لأن جميع من شاركوا فيها تصرفوا ببطولة وإيثار، وإنما لأن أحداً لم

يقتل، كما أن التسوية التي أعقبتها وضعت أسس حقوق البرلمان المنتخب المكلف باتخاذ القرارات الأساسية حول الحكومة. اعتلى كل من ويليام William وماري Mary العرش بفضل الثورة المجيدة من خلال إعلان الحقوق Declaration of Rights في عام 1689؛ الأمر الذي أدى إلى إنشاء البرلمان المنتخب كهيئة عليا لدراسة الضرائب والتشريعات، ووضع حدود واضحة للسلطة الملكية.

وواصلت عملية استعادة النظام الملكي تحت راية تشارلز الثاني Charles II في عام 1660 توطيد دعائم الدولة المركزية التي كانت قد بدأت تحت كرومويل Cromwell. وكان كرومويل سياسياً ذكياً، ومن الذين عقدوا آمالهم على تطبيق سياسة التسامح الديني ضمن نطاق واسع، وتحت رئاسة ديكتاتورية عسكرية لها قاعدة سياسية ضيقة ومطالبات محدودة، تدعو إلى الشرعية. وبعد وفاته عام 1658، لم تكن المسألة سوى قضية وقت؛ حتى أدى التجمع الصحيح للمناورات العسكرية والبرلمانية إلى اعتلاء تشارلز الثاني عرش والده من جديد وسط ابتهاج واسع النطاق. كانت فترة الإصلاح وإعادة البناء تحت راية تشارلز الثاني تناقضاً مسرفاً للقمع الأخلاقي البروتستانتي، فقد ضرب الملك مثالاً للجميع في كيفية الحصول على المحظيات والتمتع بحياة الفخامة المترفة. وكان من الواضح أن بلاطه يتطلع إلى فرنسا التي يحكمها لويس الرابع عشر، حيث كانت فرنسا متعاطفة مع الكاثوليكية الرومانية. عانى المنشقون على الاعتقاد والممارسات الأنجليكانية Anglican الصارمة بسبب العديد من المعوقات القانونية.

وقد أدت معارك الحرب الأهلية خلال أربعينيات القرن السابع عشر–وما تبعها من حصار المدن والقلاع، وتقسيم العائلات وحرمان أفرادها من آبائهم– إلى القمع الهمجي تحت راية كرومويل، ثم التحول للنقيض عبر فترة استعادة نظام الملكية وإعادة تأسيسه، وعدم الاستقرار حول احتمال مصادرة العقارات واستردادها، وتصفية حسابات سياسية قديمة. وللمفارقة، فقد شهدت سنوات حكم الكومنولث وإعادة تأسيس نظام الملكية، وضع الأسس لسنوات من الازدهار لم يسبق لها مثيل في إنجلترا، وهي التي لعبت الدور الأكثر أهمية في السياسة الدولية الأوروبية مقارنة بدورها في بداية هذا القرن، ولاسيما في ظل اتساع بقعة النخبة الذين اعتادوا المشاركة في صياغة القرارات السياسية الوطنية،

وذلك عام 1688. واستمرت الخلافات الدينية والمسائل المتعلقة بحقوق التاج والبرلمان في إثارة الالتزام الحماسي في هذه السنوات. وسعى ملاك الأراضي جاهدين لتحسين إنتاجية حقولهم. وبدأت سياسات جديدة لتعزيز التجارة الخارجية للمملكة على حساب سياسات المنافسين وبخاصة المنافسة الهولندية، تحت راية كرومويل، وقد استمرت في ظل حكم تشارلز الثاني. أصبحت لندن بوتقة لبواكير الحداثة والتطورات الأولى، حيث كان يمكن بث الآراء السياسية وعقد الصفقات التجارية في المقاهي، وكذلك نشطت الحياة المسرحية والأدبية عبر سلسلة من العروض المستمرة، فضلاً عن الدراما السياسية المسجلة في النشرات والصحف الواسعة الانتشار.

مال الملك شارلز الثاني إلى المذهب الكاثوليكي الروماني، إرضاءً في أغلب الأحيان لملك فرنسا، مما جعله يلتزم إجمالاً بالسياسات المؤيدة للمذهب الكاثوليكي. لكنه كان على يقين بتزايد رفض شعبه له. ومع ذلك لم يتحول للكاثوليكية إلا على فراش الموت. وعلى الجانب الآخر، صرح شقيقه جيمس؛ دوق يورك، علانية وعلى مرأى الناس ومسمعهم، باعتناقه المذهب الكاثوليكي الروماني. ولم تزل التنازلات التي قدمها تشارلز الأول بغية البقاء على العرش نافذة؛ فقد حاول النظام الملكي التوجه دوماً نحو فرض القيود الدستورية والبرلمانية.

بيد أن تشارلز الثاني لم يكن حكيماً في إصدار قراراته للتغلب على الانقسامات التي حدثت في إنجلترا، ولم تكن عنده سعة الصدر الكافية لاحتواء مثل هذه المواقف. وقد انكشفت هذه المؤامرات فجأة عام 1678، في إطار الانكشافات المثيرة عن «مؤامرة باوبوية» لاغتيال الملك، وقد أُطلِق عليها بعد ذلك مذبحة البروتستانت، بهدف تنصيب جيمس ملكاً، ومعه مجلس شورى من اليسوعيين. وعندما كانت الفرصة سانحة للملك تشارلز الثاني لإصدار قانون من شأنه أن يُقصِي شقيقه عن حكم البلاد، قام بحل البرلمان لقطع الطريق على المتطرفين والمناهضين له. كانت فكرة استبعاد أخيه عن الوصول إلى الحكم ثورية بحق، إذ أتاحت الفرصة لتدخل أعضاء البرلمان المستبعدين في شؤون النظام الملكي القائم على الوراثة، حين نظموا أنفسهم بشكل فاعل حتى تم انتخابهم، وصارت لهم الأغلبية في مجلس العموم؛ ومنذ ذلك الحين أُطلِق عليهم «الليبراليون»

Whigs، أي أولئك الذين يدينون بالولاء والطاعة لحزب المحافظين الملكي. وكانت محاولات الاستقطاب التي من شأنها أن تفجر الثورة، الجارية عام 1688، قد تبلورت، إذ طرد تشارلز الثاني أعضاء البرلمان وانفرد بالحكم وحده دون شريك، واستمر ذلك حتى وفاته في فبراير/شباط عام 1685. لكن الملك تشارلز الثاني، قبل وفاته بثلاثة أعوام وتحديداً في عام 1682، بدأ في استغلال صلاحياته الواسعة لمصلحته الشخصية، فقد قام بتكليف المؤسسات بإعادة تشكيل البلدية المحلية، وحاول جاهداً القضاء على خصومه من السياسيين، حتى يضمن أنهم سينتخبون الأصوات المؤيدة للبلاط، ليكونوا أعضاء البرلمان في المستقبل.

ومن ثم أصبح اليمينيون في حالة من الفوضى العارمة، ذلك أن مشكلتهم الأساسية أنه لا يوجد سوى عدد قليل من الثوريين لديهم، ليتمكنوا من مناهضة النظام الملكي ومحاربته، فهم من أشد المعارضين لخلافة جيمس ووصوله إلى الحكم. ولذلك الأمر، كانوا يتساءلون فيما بينهم: إذا اعترضنا على خلافة جيمس فمن ذا الذي سيقوم بحمايتنا؟ وكان جيمس دوق مونموث Duke of Monmouth؛ النجل غير الشرعي للملك، يتمتع بشعبية واسعة، يد أن الدراية الواسعة والخبرة بمثل هذه الأمور غابت عنه، ولم يكن له قبول من جانب غالبية الناس. وفي عام 1683، تورط بعض اليمينيين في مؤامرة لاغتيال الملك ودوق يورك في أثناء وجودهم في راي هاوس Rye House؛ وعلى إثر ذلك تم إعدام بعضهم، واكتسب البلاط سلطة وقوة كبيرتين.

اعتلى جيمس دوق يورك العرش في عام 1685 على أرضية ثابتة وراسخة؛ الأمر الذي تسبب في قلق كل المعادين للمذهب الكاثوليكي، حتى قبل أن يصدر أي قرارات. وأعرب عن أمله في التوصل إلى نوع من الاتفاق حول التخفيف من قوانين محاربة الشعائر الدينية الكاثوليكية، والتصريح للكاثوليك باعتلاء مناصبهم في الحكومة والجيش. وظن أن من الملائم عرض مقترحاته بشأن التسامح على جهات أخرى خارج كنيسة إنجلترا، بما في ذلك طائفة الكويكرز Quakers الراديكاليين. وقد اتفق معه وليام بن William Penn، أما بالنسبة إلى العديد من الإنجليز المحافظين، فكانت فكرة التسامح مع المسيحيين المتطرفين مرفوضة تماماً، مثلها كمثل فكرة التسامح مع الكاثوليكيين. بدأ جيمس في حشد القوات

تحت قيادته، بما في ذلك القوات الكاثوليكية من إيرلندا. لكن كان هناك العديد من الناس القلقين من أوجه الشبه مع النظام الملكي الصارم للملك لويس الرابع عشر، الذي لم يفصل بينهم وبينه سوى بحر المانش واضطهاده للبروتستانت. مارس جيمس سلطته للحد من القوانين المناهضة للكاثوليكية، ولكن عندما تكرر هذا الحرمان في مستهل عام 1688، رفض سبعة أساقفة من كنيسة إنجلترا قراءة هذا الخطاب على المنبر، ومن ثم فقد كان السجن منتهاهم. وقتها، ركعت حشود ضخمة من الناس تبركاً بالأساقفة الذين تمت قيادتهم إلى سجن برج لندن.

في أجزاء كثيرة من العالم، كان النظام السياسي رهينة ولادة أحد أفراد العائلة المالكة، أو حياته وموته، فهو قائم على التوريث. ولم يحظ الملك جيمس بوريث ذكر، لكن ولياً للعهد ولد يوم 10 يونيو 1688، ليحسن فرص الملك جيمس في أن يحظى بوريث شرعي ذكر، مما زاد من قوة المذهب الكاثوليكي في بلاطه. كانت ماري ابنة الملك جيمس زوجة لوليام حامل راية هولندا المتحدة. وقد صرح ويليام عن استعداده للتدخل في الأزمة السياسية الإنجليزية، إذا حصل على طلب خطي من النبلاء ورجال النفوذ آنذاك. وبحلول نهاية شهر تموز/يوليو، حصل على الطلب، مع تأكيدات العديد من الأطراف الذين لن يوقعوا على هذه الوثيقة بدعمهم له.. لم يكن مضموناً الحصول على دعم حكومة الأقاليم المتحدة التي تتسم بالحذر واللامركزية في ظل مغامرة محفوفة بالمخاطر، ولكن عندما فرضت الحملة الفرنسية قيوداً جديدة على التجارة الهولندية في موانئها، أدركت أمستردام الوضع.

وفي نهاية تشرين الأول/ أكتوبر أبحر أسطول هائل، لكن الحظ لم يحالفه فقد اضطر إلى العودة مرة أخرى بسبب العاصفة والظروف الجوية السيئة، لكنه أبحر ثانية. اكتسحت «رياح المذهب البروتستانتي» هذا الأسطول، وأبحرت السفن عبر القناة الإنجليزية بحثاً عن مرسى آمن لا يقع تحت نطاق المعارضة على الساحل الجنوبي الغربي لإنجلترا. كما نشر وليام إعلاناً يوضح فيه أسباب تدخله، وتم توزيع ما لا يقل عن ستين ألف نسخة في جميع أنحاء إنجلترا. لم تواجه قواته المتقدمة تقريباً أي معارضة مسلحة، وحضر المزيد والمزيد من كبار الرجال لتقديم ولائهم له، بمن فيهم بعض المقربين من الملك جيمس. وفي يوم 17

ديسمبر، وصلت أفواج ويليام إلى لندن، وتم إبعاد جيمس إلى المنفى في فرنسا.

استجاب عامة الناس في لندن إلى هذه الأحداث المثيرة والإشاعات المضادة للمذهب الكاثوليكي والدعاية، عبر إثارة أعمال شغب وحرق كنيسة كاثوليكية في إحدى السفارات ومكاتب مطبعة للملك. حاولت لجان من المسؤولين والنبلاء والتجار في لندن الحفاظ على النظام خلال هذه الفترة الانتقالية. وقد جعل هروب الملك جيمس الطريق ممهداً نحو العرش لوليام وماري. لم تكن شروط الاتفاق واضحة؛ فهل تنحى جيمس عن العرش؟ أم اضطر إلى التنازل؟ وكيف يمكن استدعاء البرلمان، دون وجود الملك المطالب بالختم على بطاقات الاستدعاء؟ في 26 كانون الأول/ ديسمبر، قام وليام بعقد مجلس غير رسمي ضم نظراءه وأعضاء البرلمان المتعاطفين معه، وعرض عليهم جدول أعمال الاجتماع بوضوح، لكنه سعى في الوقت نفسه إلى الاستماع لنصائحهم. قدمت فترة إعادة الملكية 1660 نموذجاً للأحداث السابقة المماثلة. كما انتُخب «أعضاء اجتماع» بطريقة لا تختلف كثيراً عن البرلمان، رداً على رسائل الاستدعاء التي أرسلها ويليام.

التقى أعضاء الاجتماع في 22 يناير 1689. واستعد حزب اليمين الراديكالي؛ ورثة أصحاب المذهب الإقصائي، الذي كان موجوداً قبل عشر سنوات، لإعلان وليام ملكاً بكل بساطة. ولكن، لم يتسامح الكثيرون مع فكرة الملكية القائمة على الانتخاب الصرف، بل عدوه حقاً وراثياً، وسعوا إلى الحصول على دور لماري بموجب حق التوريث. ومن هنا، تم منح التاج لكليهما. قال أحدهم للآخر: «إنني أتطلع إلى أن يكون هذا اليوم وبالاً على النظام الملكي في إنجلترا، لأننا جعلنا الوصول إلى التاج قائماً على الانتخاب. لكن هناك ضرورة مطلقة لوجود الحكومة، وأنا لا أرى أي احتمال آخر غير هذا، ويجب ألا نترك أنفسنا للرعاع».

قام أعضاء الاجتماع بتمرير لائحة الحقوق، التي تم تقديمها إلى وليام وماري في نفس وقت تقديم التاج لهما. كان ذلك بمثابة إعادة تأكيد شامل للائحة «حقوق الحريات القديمة»، التي تشمل البرلمانات المنتخبة بحرية تامة في حدود صلاحيات الملك المزعومة. وتم إقرار تشريع يحمل اسم «لائحة الحقوق» في نهاية عام 1689. أعلن ويليام أنه لم يأخذ التاج بشروط، لكن تمت قراءة إعلان الحقوق في بداية حفل تتويج وليام وماري يوم 13

فبراير. لم يكن الأمر في حاجة إلى مزيد من التوضيح بأن وليام وماري اعتليا العرش بموافقة رعاياهما المنتخبين، وبشروط أقرتها الرعية.

اعتلى وليام السلطة في إنجلترا نتيجة غزو مسلح، بيد أن هذا الغزو كان متبوعاً بقليل من الدماء. ولقد سجل تاريخ بداية العالم الحديث الكثير ممن سعوا إلى الغزو والحروب، ومنهم الخاسرون مثل كابيزا دو فاكا Cabeza de Vaca ورفاقه الثلاثة، ومنهم المنتصرون مثل محمد الفاتح الذي كان يمتطي حصانه في شوارع القسطنطينية. لم يكن الإمبراطور كانجكزي (Kangxi) حاكماً وعالماً فحسب، وإنما فاتح أيضاً. لم يضطر كانجكزي، كوريث لشعب المانشو الغزاة وغاز لقبائل الأورياد المغوليين، إلى أن ينظم انتخابات استرضائية بعد توليه سدة الحكم، ضماناً لحقوق أسرة الكينج في حكم الصين أو المغوليين. ولا أعتقد أن اليسوعيين، الذين قاموا بتعليمه الكثير عن الفكر الأوروبي والعلوم والسياسة، قد أخبروه عن إجراءات الانتخاب لمنصب القاضي الأول في مدينة البندقية، أو عن نظام الملكية القائم على الانتخابات بقدر كبير، وهو ما نتج عن الثورة المجيدة عام 1688. تشكلت شخصيته بفضل التقاليد الآسيوية القائمة على استخدام مجالس المحاربين والتقاليد الصينية، التي قاوم في ظلها الوزراء طغيان الاباطرة، وفرضت على كل من الحكام والوزراء التعاون من أجل مصلحة عامة الشعب. لكنه وجد الانتخابات الرسمية للممثلين، والأصوات الرسمية في المجالس التمثيلية مثيرة للحيرة وبغيضة. فربما كان مهتماً بأشكال جديدة من الطباعة المستخدمة في أوروبا؛ فقد قام هو نفسه بترويج عدد من المشاريع التاريخية، والقواميس والموسوعات العلمية، التي أبقت عشرات من العلماء البارزين منشغلين لإنجازها وصدرت في طبعات ضخمة مازال علماء الصين يلجأون إليها للاستفادة من محتواها.

درس كانجكزي الكثير حول المسائل المتعلقة بالثورة العلمية، دون أن تتضمن مستحداثتها النظرية الرئيسية، فالكنيسة الكاثوليكية لم تزل ترفض نظريات كوبرنيكوس، وغاليليو، وكتابات اليسوعيين، التي جاء ذكرها باللغة الصينية والتي علموها للإمبراطور حسب علمنا، واعتمدت على استخدامهم أعلى تقنيات مراقبة الفلك والتنبؤ، وظلوا بعيداً عن النظريات الكبرى. أظهر كانجكزي شغفاً بالأرصاد؛ وكان يصطحب أحياناً

أحد اليسوعيين معه خلال رحلة صيد صيفية، ويطلب منه أن يثبت له معدات المراقبة، ليقيس موقعه الحالي في نهاية يوم طويل قضاه ممتطياً ظهر جواده. ولطالما عكف منذ عام 1670 على دراسة خريطة كبيرة تصور العالم، وهي التي رسمها له أحد اليسوعيين المتعددي المواهب، مما يظهر مدى معرفة الأوروبيين الحديثة بالعالم، وحتى بالأمريكتين، علاوةً على كتابة تفاصيل الخريطة باللغة الصينية.

وابتداءً من عام 1700، قام كانجكزي بتوظيف اليسوعيين لجمع بيانات أطلس ضخم من الخرائط التي ترسم حدود إمبراطوريته، التي تعكس مدى براعتهم ومهارتهم الفائقة في مسح الأراضي، والتوصل إلى نتائج قياس خطوط الطول والعرض. قام اليسوعيون بقيادة فرق ومجموعات مسح الأراضي وجمع المعلومات، لرسم حدود الأقاليم إلى جانب إعطاء توجيهاتهم للصينيين والمانشو للقيام بدورهم في البحث والاستقصاء. وبالنسبة إلى فنون الحكم الصيني وتقاليده، حظيت الخرائط بأهمية استراتيجية بهدف تقييد تحركات أي شخص غريب قد يدخل إلى الإمبراطورية ويتجسس على منافذها والطرق الصالحة لدخول الغزاة إليها. أدرك كانجكزي كل هذا، كما عرف أشخاصاً قد يستعين بمهاراتهم.

أطلع اليسوعيون كانجكزي بأقل قدر ممكن من المعلومات على الانقسامات الدينية التي عانت أوروبا من بلائها في الفترة ما بين عامي 1500 و 1600. وإذا حالفنا الصواب، فإن أحد العوامل التي أثارت تلك المتاعب هو المقاومات المحلية والاستياء من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بثروتها الكبيرة وسلطتها المركزية، وكان كانجكزي يوشك على المرور بتجربته الخاصة في هذا الشأن. ومن آن لآخر في عام 1600، حاولت سلطة الكنيسة في روما التعامل مع نقاط الخلاف التبشيرية المتعلقة بمدى ملاءمة التنازلات التي يقدمها اليسوعيون، وإيجاد الحلول لها، لتتواءم مع التقاليد والشعائر العقدية الصينية. فلم يساور الشك السلطات الرومانية حول حقها في اتخاذ مثل تلك القرارات، رغم جهلهم العميق بشؤون الصين. وفي عام 1705، أرسلوا مبعوثاً بابوياً إلى بكين، وهو ما أثار غضب الإمبراطور بسبب جهله وإصراره على اتخاذ القرارات الصحيحة للمبشرين ومن تحولوا للديانة المسيحية. وقد أدى قيام كانجكزي بإقالة المبعوث البابوي وإلغاء قراراته، وردود الفعل البابوية المتعنتة إزاء ذلك، إلى زعزعة المذهب الكاثوليكي في الصين، والحرمان من

الممارسة الشرعية العلنية لشعائره أكثر من مئة سنة، وحصراً في المناطق الريفية النائية.

ومع ذلك سمح الإمبراطور العظيم وخلفاؤه لليسوعيين بمواصلة عملهم في مجال الأرصاد ورسم الخرائط. تعلم الإمبراطور كانجكزي الكثير من اليسوعيين. وأمرهم الملك بتأليف الكتب عن الفلك الغربي وهندسة إقليدس بلغة المانشو، وغالباً ما قضى العديد من ساعات اليوم يدرس برفقتهم. درس معهم كيفية صنع المدفع، كما قضى بعض الأوقات المرحة بجانب نافورة متصلة بآلة الأرغن الموسيقية حيث حضر دروس العزف على القيثارة. وقد تعلم قياس المسافات والزوايا على ضفاف النهر عند خروجه في جولات تفقدية بمحاذاة القناة الكبرى، وهو يشرحها لمسؤوليه. ووفق التقاليد الصينية، كان التحكم في المياه واحداً من أخطر مسؤوليات الحاكم وكبار المسؤولين، فالأساطير تذكر قصة الإمبراطور الحكيم يو Yu، الذي كان يسيطر على الماء قبل الطوفان العظيم في عصر ما قبل الميلاد، إذ استطاع الإمبراطور–الذي كان هو نفسه الفاتح، ووريث لاثنتين من الثقافات ولغتين: الصينية والمانشو– أن يجمع الثقافات المتباينة، والغرباء الذين يتحدثون لغات أخرى، كما آمن بمعتقدات لم يعلن عنها لأحد، لتحسين عمل موظفيه وواجباتهم التقليدية الأكثر أهمية. عرف حكام شعوب الكنج كيفية تشكيل هذا العالم المتغير بالطرق الخاصة بهم، وبرعوا في الاختيار بين ما تقدمه الشعوب الأخرى في عالم متغير وتفاعلي ومتطور قبل الأوان.

مسرد تاريخي

استيلاء العثمانيين على القسطنطينية / إسطنبول في 1492.

استيلاء الحكام المسيحيين على مدينة غرناطة، واستكمال الاستيلاء على شبه الجزيرة الليبيرية.

كولومبوس يعبر المحيط الأطلسي، ويبدأ في استكشاف الكاريبي.

فاسكو دا جاما يصل إلى الهند عن طريق البحر، حول قارة إفريقيا.

إحياء الشعائر التعبدية للإله سري كريشنا كايتانيا 1502—1524.

عهد الشاه إسماعيل؛ مؤسس السُلالة الصفوية، إيران.

عهد هنري السادس عشر، إنجلترا، انفصل عن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، 1533—35.

استيلاء العثمانيين على القاهرة 1517—1520.

انفصال مارتن لوثر عن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

استيلاء هرنان كورتيز على مدينة تينوشتيتلان (مدينة مكسيكية حديثة).

تعاليم وانغ يانغ مينغ الحديثة 1530.

إغناطيوس لويولا يؤسس جمعية يسوع (اليسوعيون).

بيزارو ينتصر على إمبراطورية الإنكا (بيرو الحديثة) 1533—1584.

عهد إيفان الرابع «الرهيب» في روسيا 1556—1605.

عهد أكبر مؤسس للأسرة المغولية، الهند 1558—1603.

عصر إليزابيث الأولى، إنجلترا 1567—1609.

هولندا تثور على الحكم الإسباني وتؤسس المقاطعات المتحدة.

تويوتومي هيديوشي يغزو كوريا 1601.

انتصار توكوغاوا إياسو في موقعة سيكيجاهارا، وتعيين الحاكم العسكري (شوغون)، الذي حكم اليابان حتى 1868.

تأسيس شركة الهند الشرقية الهولندية 1607.

إنشاء الإنجليز مستعمرة في مدينة جيمس تاون 1608.

إنشاء الفرنسيين مستعمرة في مدينة كيبك 1618.

حرب الثلاثين عاماً في أوروبا 1627.

الحرب بين الشمال (لي و تريني) والجنوب (نغوين) في فيتنام.

عهد لويس الرابع عشر، فرنسا 1644.

استيلاء مانشوس على بينانغ، وتأسيس سُلالة تشينغ.

إلغاء أوليفر كرومويل للملكية الإنجليزية «حكومة الوصايا».

عهد الإمبراطور كانغزي من سلالة تشينغ، الصين.

عهد أورانجزيب، سلالة المغول، الهند.

عهد بطرس العظيم، روسيا 1687.

نيوتن ينشر كتاب المبادئ 1688.

«الثورة المجيدة» في إنجلترا تطيح بجيمس الثاني، و تؤكد حقوق البرلمان.

ملاحظات

تمهيد

ألفار نونييز كابيزا دي فاكا، «سجل الكوارث،» في أليكس دي كريجر، جئنا حفاة وعراة.

رحلة كابيزا دي فاكا عبر أمريكا الشمالية (أوستن:

مطبعة جامعة تكساس، 2002)، 199—200.

الفصل 1

جياكومو تيدالدي، دون لقب، في طبعة وترجمة جيه آر ميلفيل جونز، حصار القسطنطينية 1453: سبعة سجلات مُعاصرة (أمستردام:

أدولف هاكيرت، 1972)، 6.

«الشيعة،» «شيع» والشيع هي تهجئة متكررة وجدت في الكتابات باللغات الغربية.

كاثرين بابايان، الصوفيون، والملك، و يسوع المسيح:

المشاهدات الحضارية لإيران الحديثة; كامبريدج MA:

مطبعة جامعة هارفارد، 2002: الثامن والعشرون، 312.

إيران الحديثة كما تدعى أيضاً بفارس في العديد من الكتب.

«فارسي» تستخدم هنا فقط للغة، اللغة الفارسية الحديثة.

طبعة وترجمة ويلر إم ساكستون، بابر ناما:

مذكرات بابور، الأمير والإمبراطور (واشنطن العاصمة:

معرض فرير للفنون وأرثر ساكلر، مؤسسة سميثسونيان، ونيويورك:

مطبعة جامعة أكسفورد، 1996)، 50—333.

هذه هي باندا آتشيه، لاتزال حصن الإسلام.

تعرضت للدمار خلال تسونامي 26 ديسمبر 2004.

أظهر العالم الفرنسي الكبير فرناند براوديل عدد الجوانب المشتركة بين ضفتي البحر.

يوميات كولومبوس، تم الاستشهاد بها في صمويل إليوت موريسون، كريستوفر كولومبوس، مارينر (نيويورك:

الناصح، 1956)، 114.

ترجمة برنال دياز دل كاستيلو، ألفرد مودسلي، اكتشاف وغزو المكسيك، 1517–1521 المكسيك، 1517–1521 (نيويورك:

دا كابو، 1996)، 190–91.

ترجمة أوكتافيو باز، بواسطة مارجريت سايرز بيدن، سور خوانا، أو فخاخ الإيمان (كامبريدج، MA:

مطبعة جامعة هارفارد، 1988)، 157.

غوميز دي إيانس دي زورارا، تم الاستشهاد بها في بيتر راسيل، الأمير هنري «البحار».

حياة (نيو هافين CT:

مطبعة جامعة هارفارد، 2001)، 246.

كانت مملكة الكونغو بالقرب من مصب نهر الكونغو العظيم، في أقصى شمال أنغولا الحديث.

سانجاي سوبراهمانيام، الإمبراطورية البرتغالية في آسيا:

التاريخ السياسي والاقتصادي (لندن:

لونجمان، 1993)، 59.

مذكرات الرحالة دا جاما، تم الاستشهاد بها في جوان– بو روبيز، السفر و الإثنولوجيا في عصر النهضة:

جنوب الهند بعيون الأوروبيين، 1250–1625 (كامبردج و نيويورك:

مطبعة جامعة كامبريدج، 2000)، 166.

جوفين ألكسندر بيلي، الفن في البعثات اليسوعية في آسيا وأمريكا اللاتينية، 1542–1773 (تورنتو:

مطبعة جامعة تورنتو، 1999)، 123.

الفصل 3

واين شوماخر، علوم السحر والتنجيم في عصر النهضة:

دراسة في الأنماط الفكرية (بيركلي:

مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1972)، 32–225، اقتباس من 225.

استخدم الاسم المشهور «كريشنا» بدلاً من الاسم الأكثر دقة.«Krsna»

تعني تقريباً «المُبجل»

إدوارد سي ديموك الابن، ترجمة وتعليق، تشايتنيا تشريتامرت أوف كرشن داس كفيراج:

ترجمة و تعليق (كامبريدج، MA:

مطبعة جامعة هارفارد، 1999)، 134.

وينج تسيت شان، ترجمة، تعليمات للحياة العملية والكتابات عن الكونفوشسية الجديدة بقلم وانغ يانغ مينغ– (نيويورك:

مطبعة جامعة كولومبيا، 1963)، 193، 239.

ريتشارد ماريوس، مارتن لوثر:

المسيحية بين الله والموت: (كامبريدج، MA:

مطبعة جامعة هارفارد، 1999)، 53.

إليزابيث أينشتاين، ثورة الطباعة في أوروبا الحديثة (كامبردج:

مطبعة جامعة كامبريدج، 1983)، 150.

ماريوس، مارتن لوثر، 284

الكلمات لم تظهر في السجلات الأولى لكنها توضح مقصده.

قرية فيندلشتاين في فرانكونيا، ألمانيا، 1524، تم الاستشهاد بها في بيتر بليكلي، «حركة الإصلاح الاشتراكي:

زفينغلي، لوثر، وجنوب الإمبراطورية الرومانية المُقدسة، في طبعة أر. بو–تشيا هسيا، «كتاب كامبردج عن تاريخ المسيحية».

الإصلاح و التوسع، 1500–1660 (كامبريدج:

مطبعة جامعة كامبريدج، 2007)، 69–75، 80.

الفصل 4

جوزياه تشايلد، مقالة عن طبيعة، استخدام مزايا التجارة (لندن:

راندال تايلور، 1694)، 30.

أليساندرو فاليجنانو، وريتشاتم الاستشهاد بهما في كونراد توتمان، اليابان الحديثة (بيركلي:

مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1993)، 9–40.

بول جي ستاندوود «كتاب الصلاة كأدب»، في تشارلز هيفلينغ كينسيا شاتوك، دليل أكسفورد لكتاب الصلاة المشتركة (نيويورك:

مطبعة جامعة أكسفورد، 2006)، 140–49، في 143.

«إلى القوات في تلبري، «1588،» في طبعة جورج بي رايس، العامة يتحدثون عن الملكة إليزابيث:

مختارات من عناوينها الرسمية (نيويورك:

مطبعة جامعة كولومبيا، 1951)، 96–97.

الفصل 5

ماري دروكي بيكر، «الأذرع المُتشابكة:

هيكل دبلوماسية قبائل الايروكوا، في طبعة دانيال ريختر «خلف سلسلة العهد»:

الإيروكوا و جيرانهم في الهنود في أمريكا الشمالية، 1600–1800.

(جامعة بارك:

مطبعة جامعة بنسلفينيا، 2002)، 39–29، في 29.

الموهاوك و الجونكون كانتا اثنتين من المجموعات المكونة لقبيلة الإيروكوا.

ريتشارد هان، «العهد والإجماع

الإيروكوا والإنجليزية، 1676–1760»، ريختر وميريل، 41–57، في 49.

مارغريت كونراد وجيمس هيلر، كندا الأطلسية
لمحه تاريخية موجزة (دون ميلز، أونتاريو:
مطبعة جامعة أكسفورد، 2006)، 31، 33.
ويليام بين، رسالة إلى لجنة المجتمع الحر من التجار (لندن، 1683)، تم الاستشهاد بها في ويلز، 1688:
التاريخ العالمي (نيويورك:
نورتون، 2001)، 204

الفصل 6

نيكولاس تريجولت، أس. جي.، تم الاستشهاد بها في دونالد لاخ و إدوين جي. فان كلي، آسيا في
صناعة أوروبا، المجلد الثالث في أربع كتب (شيكاغو:
مطبعة جامعة شيكاغو، 1993)، 1582.
ملاحظات على صفحة 50–120
فريدريك واكمان الابن، «التهرب من فترة خلو العرش 1644» في جوناثان دي. سبينس و جون ويلز الابن.، من مينغ إلى تشينغ:
الفتح، والإقليم، واستمرارية الصين في القرن السابع عشر (نيو هافين، CT:
مطبعة جامعة ييل، 1979)، 39–87، في 51.
كان كانغ تسمية لسنوات حكمه، و ليس الرجل، «الإمبراطور العشرون» هو معيار استخدام لأسرتي مينغ وتشينغ.
كريستوفر هيل، جودز إنجليش مان:
أوليفر كرومويل والثورة الإنجليزية (نيويورك:
هاربر و رو، 1970)، 126.

ويلز، 1688، 192.

ملاحظات على صفحة 123—152—159

قراءات إضافية

أعمال عامة وتمهيد

كاميرون إيوين، طبعة أوروبا الحديثة:
تاريخ أكسفورد.
نيويورك:
مطبعة جامعة أكسفورد، 1999
المسيحي، ديفيد.
خرائط الزمن:
مقدمة في التاريخ الكبير.
بيركلي:
مطبعة جامعة كاليفورنيا، 2004.
كريجر، أليكس دي. جئنا حفاة و عراة:
رحلة كابيزا دي فاكا عبر أمريكا الشمالية.
أوستن:
مطبعة جامعة تكساس، 2002.
ليبرمان، فيكتور.
التوازي الغريب:
جنوب شرق آسيا في السياق العالمي، 800—1830.
كامبريدج ونيويورك:
مطبعة جامعة كامبريدج، 2003.
ماركس، روبيرت. نشأة العالم الحديث:
قصة العالم وعلم البيئة.

الطبعة الثانية. لاندهام:
رومان و ليتل فيلد، 2007.
ميكنيل، و دابليو إتش ميكنيل.
الشبكة البشرية:
نظرة شاملة على التاريخ البشري.
نيويورك:
نورتون، 2003
نيوكومب، الابن. هنود ولاية تكساس من عصور قبل التاريخ إلى العصور الحديثة.
أوستن:
مطبعة جامعة تكساس، 1961.
أوبرين باتريك، أطلس تاريخ العالم.
نيويورك:
مطبعة جامعة أكسفورد، 1999
بوميرانز، كينيث، و ستيفن توبيك.
العالم الذي أوجدته التجارة، المجتمع، الثقافة، الاقتصاد العالمي، من 1400 إلى الوقت الحاضر.
أرمونك، نيويورك:
أم أي شاربي، 1999.
ريسنديز، أندريس.
أرض غريبة جداً:
الرحلة الملحمية بكابيزا دي فاكا:
الحكاية العجيبة لأصحاب السفينة الإسبانية الغارقة الذين ساروا عبر أميركا في القرن السادس عشر.
نيويورك:
كتب أساسية، 2007.

ريتشارد، جون، الحدود التي لا تنتهي:
التاريخ البيئي للعالم الحديث.
بيركلي:
مطبعة جامعة كاليفورنيا، 2003.
ستيرنز، بيتر، جميع الإصدارات.
موسوعة تاريخ العالم.
نيويورك:
هوجتون ميفلين، 2001.
ويلز جزن، 1688:
التاريخ العالمي.
نيويورك:
نورتون 2001.

مزيد من المراجع

الفصل 1

بابايان، كاثرين.
الصوفيون، الملك، ويسوع المسيح:.
المشاهد الحضارية لإيران الحديثة.
كامبريدج، MA
مطبعة جامعة هارفارد، 2002
موسوعة الإسلام.
ليدن:
بريل، 2002—.
متوافرة أيضاً على الشبكة والأقراص المضغوطة.
إسبوزيتو، جون: الإسلام:
الصراط مستقيم.
طبعة موسعة نيويورك:
مطبعة جامعة أكسفورد، 1991.
ماسي رودولف. سياسات التجارة في إيران الصفوية:
الحرير مقابل الفضة، 1600—1730.
نيويورك:
مطبعة جامعة كامبريدج، 2002.
نيكول دي.، جي. هالدون، وأس تورنبول.
سقوط القُسطنطينية:
الفتح العثماني لبيزنطة.
أوكسفورد:
أوسبري، 2007.

ريتشارد، جون، الإمبراطورية المغولية.
نيويورك:
مطبعة جامعة كامبريدج، 1993.
شو، ستانفورد.
تاريخ الإمبراطورية العثمانية وتركيا الحديثة.
المجلد. 1، إمبراطورية Gazis:
نهوض وانهيار الإمبراطورية العثمانية، 1280–1808.
نيويورك:
مطبعة جامعة كامبريدج، 1976.
ساكستون، ويلر أم، طبعة وترجمة بابر ناما:
مذكرات بابور، الأمير والإمبراطور.
واشنطن، العاصمة:
معرض فرير للفنون و أرثر ساكلر، مؤسسة سميثسونيان، و نيويورك:
مطبعة جامعة أكسفورد، 1996.

الفصل 2

باكويل، بيتر.
نظرة عامة على أمريكا اللاتينية.
الطبعة الثانية. مايدين، MA:
بلاكويل، 2004.
بيتهيل، ليزلي، طبعة مستعمرة أمريكا اللاتينية.
نيويورك:
مطبعة جامعة كامبريدج، 1984.
كليدينين، إنجا.
فتوحات متناقضة:

مايا والإسبان في يوكاتان، 1570–1517.
نيويورك:
مطبعة جامعة كامبريدج، 1987.
آزتك:
تفسير.
نيويورك:
مطبعة جامعة كامبريدج، 1991.
كورتيس، هرنان.
رسائل من المكسيك.
ترجمت وحررت بواسطة أنطوني باجدين.
مقدمة بواسطة جي أتش إليوت.
نيو هافين، CT:
مطبعة جامعة ييل، 1986.
ديفي، بيلي، وجورج وينوس.
تأسيس الإمبراطورية البرتغالية، 1415–1580.
مينيابوليس:
مطبعة جامعة مينيسوتا، 1977.
ليون– بورتيلا، ميغيل.
الحراب المكسورة:
سجلات الآزتك لغزو المكسيك.
طبعة موسعة و مُحدثة. بوسطن:
بيكون، 1992.
بادين أر. سي. الطنان و الصقر:
غزو و سيادة في وادي المكسيك، 1503–1541.
نيويورك:

هاربير، 1970.
ريستال، ماثيو.
الأساطير السبع للغزو الإسباني
نيويورك:
مطبعة جامعة أكسفورد، 2003
روسيل، بيتر.
الأمير هنري «البحار»
حياة.
نيو هافين، CT:
سوبراهمانيام، سانجاي.
الإمبراطورية البرتغالية في آسيا، 1500–1700:
التاريخ السياسي و الاقتصادي.
نيويورك:
لونجمان، 1993.
تاونسند، كاميلا «دفن الآلهة البيضاء:
آفاق جديدة في غزو المكسيك، «مراجعة التاريخ الأمريكي، 108,3 (يونيو 2003):

الفصل 3

بوزما، ويليام جون كالفين:
بورتريه القرن السادس عشر.
نيويورك:
مطبعة جامعة أكسفورد، 1988
بروتون، جيري.
النهضة بازار:
من طريق الحرير لمايكل أنجلو.

نيويورك:
مطبعة جامعة أكسفورد، 2002
كول، أورين، بيارا سينغ سامبي.
السيخ:
معتقداتهم و ممارساتهم الدينية.
نيويورك:
روتليدج، 1978
دي باري، WM.
تيودور، وإيرين بلوم، محرران.
مصادر الصينية التقليدية.
مجلد واحد:
من الأزمنة المُبكرة حتى 1600.
الإصدار الثاني. نيويورك:
مطبعة جامعة كولومبيا، 1999.
ديموك إدوارد الابن. تشايتنيا تشريتامرت – كرشن داس كفيراج:
ترجمة وتعليق.
حررت بواسطة توني كي ستيوارت.
مقدمة بواسطة ديموك وستيوارت.
سلسلة هارفارد الشرقية، المجلد. 56.
كامبريدج، MA:
مطبعة جامعة هارفارد، 1999.
المحرران، جودريتش، لي كارينغتون و شاو ينغ فرانغ.
قاموس سيرة مينغ الذراتية.
المجلد 2. نيويورك:
مطبعة جامعة كولومبيا، 1976.

هشيا بوشيا، تايخ طبعة كامبريدج للمسيحية، المجلد 6:
الإصلاح و التوسع، 1500–1660.
نيويورك:
مطبعة جامعة كامبريدج، 2007.
ليفي، أنطوني.
النهضة و الاصلاح:
النشأة الفكرية.
نيو هافين، CT:
مطبعة جامعة ييل، 2002.
ماريوس، ريتشارد.
مارتن لوثر:
المسيحية بين الله والموت.
كامبريدج، MA.
مطبعة جامعة هارفارد، 1999.
روزنتثال، مارغريت.
المحظية الصادقة:
فيرونيكا فرانكو، المواطن و الكاتب في البندقية القرن السادس عشر.
شيكاغو:
مطبعة جامعة شيكاغو، 1992.
تراسي، جيمس دي. الإصلاحات الأوروبية، 1450–1650.
الطبعة الثانية. لاندهام:
رومان و ليتل فيلد، 2006.
ويلز جون الابن، جبل الشهرة:
صور في التاريخ الصيني.
برينستون، نيوجيرسي:

مطبعة جامعة برينستون، 1999.

الفصل 4

ثمر العليق، ماري إليزابيث.
هيده– يوشي.
كامبريدج، MA:
مطبعة جامعة هارفارد، 1989.
بوزما، ويليام جي. البندقية والدفاع: حرية النظام الجمهوري:
قيم النهضة في عصر حركة معارضة الإصلاح.
بيركلي:
مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1968.
بريغدن، سوزان.
العالم الجديد و العالم المفقود:
قواعد تيودرز. 1485–1603
نيويورك:
الفايكنج، 2000.
شامبرز دي. سي. العصر الإمبراطوري للبندقية.
نيويورك:
هاركورت، بريس، جوفانوفيتش، 1970.
ديورسين، تي. فان.
«الجمهورية الهولندية، 1588–1780».
في تاريخ البلدان المُنخفضة، حرر بواسطة جي. سي. أتش. بلوم و أى. لامبيرتس، تُرجم بواسطة جيمس. سي. كينيدي، 143–218.
نيويورك:
بيرغن، 1999.

إسرائيل، جوناثان.
الجمهورية الهولندية:
النشأه، العظمة، والسقوط.
نيويورك:
مطبعة جامعة أكسفورد، 1995.
ريد، أنطوني.
قيم النهضة في عصر حركة معارضة الإصلاح، 1450–1680.
مُجلد. 2 توسع ونقد.
نيو هافين، CT:
مطبعة جامعة ييل، 1993.
توتمان، كونراد.
اليابان الحديثة.
بيركلي:
مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1993.
ويلز جون الابن، طبعة تفوق مواني غرب المحيط الهادي:
تايوان و وسط فيتنام، 1500–1800.
الديرشوت و برلنغتون، VT.
أشجيت، 2002

الفصل 5

بلوز، ليونارد.
سترانج كومباني:
المستعمرات الصينية، نساء المستيزو، و الهولنديين في باتافيا VOC.
أمستردام:
فوريس، 1986.

كورتين، فيليب دي. ثقافة التجارة في تاريخ العالم.
نيويورك:
مطبعة جامعة كامبريدج، 1984.
نهوض و انهيار مجمع الزرع:
مقالات في التاريخ الأطلسي.
الطبعة الثانية.
نيويورك:
مطبعة جامعة كامبريدج، 2002.
ديكنسون، جون A.، وبريان يونغ.
لمحة تاريخية موجزة عن كيبك.
الإصدار الثاني. مونتريال:
مطبعة جامعة ماجيل، 2000.
بومفريت، جون E. مع فلويد شمواي.
تأسيس المستعمرات الأمريكية، 1583–1660.
نيويورك:
هاربير، 1970.
ريختر، دانيل. مواجهة الشرق من بلاد الهند
التاريخ الأصلي لأمريكا البدائية.
كامبريدج، MA:
مطبعة جامعة هارفارد، 2001.
ريختر، دانيال. «محن لونجهاوس:
الشعوب الخمس في تاريخ أمريكا البدائي.»
في ما وراء سلسلة العهد:
الايروكوا و جيرانهم في هنود أمريكا الشمالية، 1600–1800. حُرر بواسطة دانيال ريختر و جيمس ميريل، 11–27.

جامعة بارك:
مطبعة جامعة ولاية بنسلفينيا 2003.
رينك، أوليفر. هولندا على نهر هودسون:
التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لهولندا. نيويورك.
إيثاكا:
مطبعة جامعة كورنيل، و كوبرز تاون، نيويورك:
جمعية ولاية نيويورك التاريخية، 1986.
شيلر، جيفري. «إعادة التفكير في جيمس تاون،» سميثسونيان 35,10 (يناير 2005)، 48–55.
ثورنتون، جون.
إفريقيا والأفارقة في صناعة العالم الأطلسي، 1400–1680.
الطبعة الثاني. نيويورك:
مطبعة جامعة كامبريدج، 1998.
فيكرز، دانيال، طبعة دليل المستعمرة الأمريكية.
مايدين، MA:
بلاكويل، 2003.
وايت، ريتشارد.
أرض الوسط:
الهنود، والامبراطوريات، والجمهوريات في منطقة البحيرات الكبرى، 1650–1815.
نيويورك:
مطبعة جامعة كامبريدج، 1991.
ويلز، جون الابن.، «العلاقات مع البحارة الأوروبيين، 1514–1662.»
في تاريخ كامبريدج للصين، المجلد. 8، 333–75.
نيويورك:
مطبعة جامعة كامبريدج، 1998.

الفصل 6

جولد ستون، جاك. الثورة والتمرد في العالم الحديث.
بيركلي:
مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1991.
كيشلانسكي، مارك.
تحول ملكية:
بريطانيا 1603—1714.
نيويورك:
بينجيون، 2007.
ستروف، لين. مينغ الجنوبي، 1644—1662.
نيو هافين، CT:
مطبعة جامعة ييل، 1996.
ستريف، لين، تكوين طبعة أسرة تشينغ في ومن العالم التاريخي.
كامبريدج، MA:
دراسات هارفارد شرق آسيا، 2004.
ويدج وود سي. في. حرب الثلاثين عاماً.
جاردن سيتي، نيويورك:
المرساة، 1961.
ويلز جون.، و جوناثان دي سبينس.
من مينغ إلى تشينغ:
الفتح، الإقليم، واستمرارية الصين في القرن السابع عشر.
نيو هافين، CT:
مطبعة جامعة ييل، 1979.

جاكوب، جيمس. الثورة العلمية:
الطموحات و الإنجازات، 1500—1700.
مرتفعات الأطلسي، نيوجيرسي:
مطبعة هيومانيتيز، 1998.
لينكولن، بروس.
فتح القارة:
سيبيريا والروس.
نيويورك:
راندوم هاوس، 1994.
مانكول، مارك.
روسيا و الصين:
علاقاتهم الدبلوماسية إلى عام 1728.
كامبريدج، MA:
مطبعة جامعة هارفارد، 1971.
سبينس، جونثان. إمبراطورية الصين:
بورتريه يانغتزي.
نيويورك:
كنوبف، 1974.
سبينس، جوناثان، «إقليم يانغتزي»
في تاريخ كامبريدج للصين، المجلد. 9، الجزء الأول:
إمبراطورية تشينغ إلى 1800، 120—82.
نيويورك:
مطبعة جامعة كامبريدج، 2002.
واست فال، ريتشارد. لا يوجد راحة أبداً:

سيرة إسحاق نيوتين.
وايت، ريتشارد.
إسحاق نيوتن:
الساحر الأخير:
ريدينج، MA:
أديسون ويسلي، 1997.

مواقع الإنترنت

أصوات إفريقية

www.mnh.si.edu/africanvoices

أصوات إفريقية، وهو جزء من موقع سميثسونيان الوطني للتاريخ الطبيعي، ويقدم خطاً زمنياً للتاريخ الإفريقي في وقت مبكر من البشر حتى وقتنا الحاضر.

عصر الاستكشاف

www. ageofex.marinersmuseum.org

الاستكشاف من العالم القديم حتى رحلات الكابتن كوك عبر بحر الجنوب في القرن الثامن عشر.

من متحف البحارة في نيوبورت نيوز، Va.

فن المغول قبل 1600 ميلادي

www.metmuseum.org/toah/hd/mugh/hd_mugh.htm

لوحات و هندسة معمارية من متحف ميتروبوليتان توضيح مهارة الفنانين المغول.

اسأل آسيا

www.askasia.org

برعاية جمعية آسيا، يتضمن هذا الموقع المُصمم على خطوط زمنية من التاريخ الآسيوي خلال الفترة الزمنية الحديثة، والخرائط التاريخية.

مؤسسة دراسة اليهود المشتتين في العالم.

www.aswadiaspora.org – منظمة متعددة الاختصاصات العلمية في مدار هذا البحث.

تصل المنظمات المهنية، والمؤتمرات، واليوميات، والموارد العلمية الأخرى.

تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي وحياة الرقيق في الأمريكتين

http://hitchcock.itc.virginia.edu/Slavery/ index.php

آلاف الصور لتجارة الرقيق وحياة الرقيق، وكثير منهم من قبل استعمار إفريقيا.

مركز لتاريخ العالم، وجامعة كاليفورنيا في سانتا كروز

www2. ucsc. edu/cwhl

مواد المناهج الدراسية مصممة للمعلمين على جميع المستويات، وأخبار المؤتمرات والأحداث.

الصين وأوروبا، 1,500—2000 و ما بعدها:

ما «الحديث»؟

afe.easia.columbia.edu/chinawh/web/help/about.html

ألبومات الصور، ومقالات، وتعليقات فيديو من قبل مؤرخين وكينيث بوميرانز وأر بينوغ.

سي إن إن ميلينيوم

www. cnn. com/SPECIALS/1999/millennium – موقع الوسائط المتعددة من سلسلة CNN ميلينيوم، مع أقسام في كل القرن من القرن الحادي عشر حتى القرن العشرين.

ويشتمل على كتب اللمحة المُختصرة، والخطوط الزمنية، والخرائط، و مميزات مثيرة للاهتمام بالصناعات.

عالمي في المجال.

مصادر حديثة

http://earlymodernweb.org.uk

تمت صيانة هذا الموقع بواسطة شارون هوارد من جامعة شيفيلد، ويقدم روابط لمجموعة متنوعة من المواقع حول العالم الحديث، ويعرفه هوارد بالقاسي 1500 إلى 1800.

منتدى التوسع الأوروبي والاندماج العالمي

www.feegi.org

منظمة علمية أقوى في الاتصالات حول المحيط الاطلسي.

البيبلوغرافيا ومواد التدريس.

تاريخ تمبوكتو

- www.timbuktufoundation.org/history.html

قصة تمبكتو والمناطق المحيطة بها، مع العديد من الرسومات التوضيحية والمصادر الأصلية.

برعاية مؤسسة تمبكتو التعليمية.

أتش– وارلد

/www.h-net.org/~world

المنتدى الرئيسي التفاعلي للطلاب و الباحثين في تاريخ العالم، و رائع لتقارير المعلمين و طلابهم.

الحياة البحرية في آسيا ومتحف ماليزيا الوطني

www.maritimeasia.ws

معرض الفخار العملي، الذي وجد في حطام سبع سفن غارقة من الرابع عشر إلى القرن التاسع عشر، مع مواد في التاريخ البحري لجنوب شرق آسيا.

العثمانيون

www.theottomans.org/english/index.asp – موقع أعلامي حول جميع جوانب الإمبراطورية العثمانية، بما في ذلك الفن والثقافة.

نحو عصر جديد من الشراكة، جامعة ليدن

www.tanap.nl

معلومات، بما في ذلك أدلة على المحفوظات والدراسات، على منحة دراسية تعاونية تشمل العلماء الآسيوين وثروات المحفوظات الهولندية.

مؤسسة تاريخ العالم

www.thewha.org

موقع المنظمة العلمية الرائدة في المجال.

محفوظات

نشرة تاريخ العالم ويوميات تاريخ العالم، معلومات للمعلمين.

بوصلة تاريخ العالم

www.worldhistorycompass.com – روابط لمحفوظات المصدر الرئيسي، أبرز المعالم

من معارض التحف، محاضرات، وغيرها من الأحداث.

يغطي تقريباً كل منطقة وفترة.

تاريخ العالم مُتصل

worldhistoryconnected.press.uiuc.edu

نشرة إخبارية، مقالات مُفسرة، ومقابلات مع مؤرخين.

مسائل ذات صلة بتاريخ العالم

www.worldhistorymatters.org

من جامعة جورج ماسون، معلومات ممتازة عن محفوظات المصدر الرئيسي، وأدلة لتفسير المصادر الأولية، والموارد للمعلمين.

يتم التركيز على التفاعل الثقافي، والعولمة، وحياة المرأة.

المواقع على شبكة الإنترنت 165

شكر وتقدير

يغطي الكتاب تلك الطائفة الواسعة من الموضوعات المتخصصة ويتناول العديد مما يهم المتخصصين، وما يزيد عن ذلك.

إهداء كتابي لزملائي في جامعة جنوب كاليفورنيا له عدة مستويات؛

ففي قسم التاريخ، أعطى ديبورا هاركنس تعليقات مفيدة للغاية بشأن المشروع بأكمله، كما قام كل من كارول شماس، وماريا إيلينا مارتينيز، وإدوين بيركينز، وأزادي أيسي روليش، ورمزي رويجي بالتعليق على الفصول.

زملائي في تاريخ شرق آسيا داخل وخارج القسم، كشارلوت فورث، وغوردون بيرغر، وكيونغ مون هوانغ، وبريت شيهان، وجوشوا جولدشتاين، وبيتين بيرج وبيتر نوسكو، لم يبخلوا -جميعاً- عليّ بالوقت ودفعوني إلى تطوير فهمي المتعلق بجزء من العالم، بدأت منه غزواتي لتاريخ العالم.

على المستوى الفردي وغير المؤسسي، قدم كالمعتاد كل من لوسيندا ويلز ومحمد المودة نظرة عميقة في العقيدة الإسلامية وممارستها.

وأود أيضاً أن أشكر القراء المجهولين لمطبعة جامعة أكسفورد، وكل فرد في مطبعة جامعة أكسفورد أسهم بخبرته في هذا المشروع، من الرسوم التوضيحية للخرائط وأكثر من ذلك بكثير، وخصوصاً نانسي توف.

لن أحدد أسماء أخرى بسبب أني لم أعرف أسماء بعض من المساهمين المهمين.

إن جامعة جنوب كاليفورنيا هي جامعة «عامة/ خاصة»، تلتزم أساساً بخدمة المدينة الهائلة والرائعة والصعبة المراس التي تحيط بها، بشعور عالمي قوي يتجه بخاصة إلى الجنوب عبر الحدود، وإلى الخارج عبر المحيط الهادي. لقد عملت في قسم التاريخ وتعلمت منه، هو ومركز الدراسات الشرق آسيوية الذي يحوي معلمين متخصصين في هذا المجال من رياض الأطفال إلى الثانوية، إذ إنهم يحاولون نقاش التغيرات العديدة التي طرأت على «تحول التاريخ العالمي». من بين الشخصيات العالمية البارزة التي تعلمت منها، ستيفين بي

سامبل، والرئيس ريتشارد دروبنيك؛ نائب العميد للشؤون الدولية ومؤسس أحد البرامج الدولية المميزة في إدارة الأعمال، وروبرت بيلر وهو أستاذ متقاعد متخصص في السياسة والتخطيط والتنمية، وخبير حل الأزمات في كل المجالات، وهمزة وصل في العلاقات العالمية.

وعلى الرغم من أني أدين بالعرفان إلى زملائي في جامعة جنوب كاليفورنيا، فإني أقر أيضاً بالفضل الهائل لشبكة الباحثين الصينيين الحيويين في جنوب كاليفورنيا، ولكل رواد التاريخ العالمي من كل الأنواع في المنطقة – ككينيث بوميرانز، وروبرت ماركس، وروس دون، وديفيد كريستيان، وغيرهم الكثير – وإلى زملائي في كل الفروع في نظام جامعة ولاية كاليفورنيا خصوصاً نورثريدج وبيكرسفيليد، الذين تناقشت معهم في التحولات المختلفة لتدريس التاريخ العالمي ولاسيما لدى معلمي المستقبل. تنتج من هذه المناقشات –عادة– حقيقة أن قسم التاريخ لديه موارد أكبر لتدريس التاريخ العالمي مما يُعتقد، لكن الناس في حاجة إلى التفكير في أنفسهم بطرق مختلفة إلى حد ما وإلى الحديث إلى بعضهم. وربما يساعد هذا الكتاب في هذا الصدد، فرأي المتخصص في لوثر أو المتخصص في طوكيو– جاوا وإرهاصاتهما الفكرية تشتبك في كتاب واحد قصير.

ومن الناحية القومية والدولية، كان مجتمع التاريخ العالمي منفتحاً انفتاحاً استثنائياً على احتياجات واهتمامات المعلمين في المستوى الثانوي والجامعي. فقد قام الكثيرون بدور القادة في اتحاد التاريخ العالمي. إنهم يمثلون وجوداً دائماً ومحفزاً في مجموعة مستخدمي البريد الإلكتروني على المستوى العالمي. ففي مرات عديدة لم تشارك التعددية الثقافية في كاليفورنيا بأكثر من تمنياتها بقضاء مواطن سريلانكي يوماً طيباً في محطة وقود أو أولئك الموجودين عند المخرج الأرميني الجميل. لكن توجد مرات اضطروا فيها إلى العمل على عواقب الاختلاف الديني وفهم العائلة وصدى الكوارث البعيدة مثل زلزال سيتشوان. إن معلمي كاليفورنيا من رياض الأطفال إلى الدكتوراة يأخذون مكانهم في الخطوط الأمامية في هذه المسائل أكثر من معظمنا. وإذا كانت بعض القصص أو المقارنات التي تكون التاريخ العالمي تساعدهم على التعامل مع فصولهم الدراسية العالمية، فإن هذه مكافأة إضافية للباحث الذي يواجه شاشة الكمبيوتر وتبدو مهمته مستحيلة.

هذا الكتاب

يعد المؤرخ البارز جون ويلز في كتابه هذا، استعراض واحدة من أكثر الفترات الزمنية صخباً واضطراباً في تاريخ العالم (بدءاً بـ 1450م حتى 1700م)، متأثراً من دون شك بمفاهيم العولمة الحديثة، ومتسامياً عن ذلك الطرح التقليدي الذي طالما رأى القارة الأوروبية محوراً لكل ما يحدث في العالم. فنرى ويلز يقتفي أسباب تلك التغيرات المتداخلة التي أسهمت في رسم عالم كولومبوس، ومارتن لوثر، والإمبراطور المغولي بابور، ولوك، ولويس الرابع عشر، والإمبراطور كانغزي. وعبر منهج متعدد المحاور نشهد الوقائع التاريخية في سرد متناغم ذي إيقاع متسلسل.